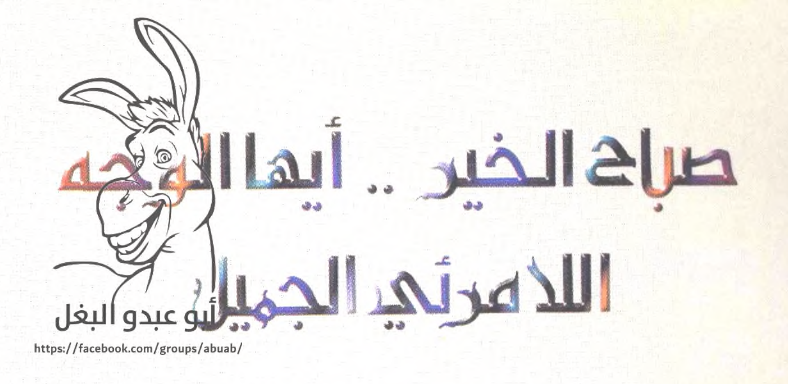
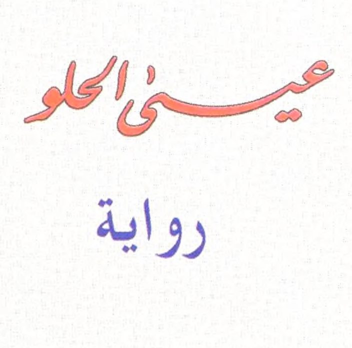


صباح الخير .. أيها الوجه اللامرئي الجميل





عيسى الحلو

رواية





صباح الخير أيها
الوجه اللامرئي الجميل

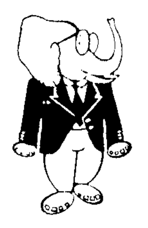
عيسى الحلو

* **صباح الخير أيها الوجه اللامرئي الجميل**

* عيسى الحلو

* الطبعة الأولى أغسطس 1997م

* الناشر : شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر



ص.ب ١٠٤٧١ الخرطوم

إشـــــارات

كانت الرواية السودانية منذ منتصف الستينات قد إكتسبت مكانة مرموقة ومتميزه بفضل روايات الطيب صالح: عرس الزين وبندر شاه – «ضو البيت ومريود ، وموسم الهجرة الي الشمال» التي إستقطبت إهتمام النقاد والدارسين العرب وغيرهم ، وتمت ترجمتها الي اللغات الحية في العالم.

وقد ألقى الطيب صالح بظله على المشهد الروائـى في السودان مما جعل أعمال الرواد من الروائيين السودانيين خليل عبد الله الحاج «إنهم بشر » وابوبكر خالد «بداية الربيع ، والنبع المر ، والقفز فوق الحائط القصير» وغيرهما تتواري ولاتجد الاهتمام النقدي إلا في إستثناءات قليلة ومثلها في ذلك أعمال الروائيين من الأجيال اللاحقة: إبراهيم إسحاق ابراهيم «حدث في القرية ، مهرجان المدرسة ا لقديمة ، أعمال الليل والبلدة، واخبار البنت ميا كايا» وفيصل مصطفي «الخفاء ورائعة النهار » واسماء عديدة منها : عمر الحميدي «جزيرة العوض » ومختار عجوبة «صالح الجبل» وهي تقترب من عوالم الطيب صالح ...!

ووجود الطيب صالح لم يمنع ظهور أسماء جديدة تحاول أن تكتب الرواية والقصة القصيرة من مختلف الأجيال وإن ظلت

معظم هذه الأعمال بعيدة عن تناول النقاد العرب ، وهذه مسألة تتصل بحرية الإبداع في التنقل بين أرجاء الوطن وتؤشر خللاً في المشهد الثقافي العربي !!

وقد ظلت الرواية العربية عبر كُتابها الذين رسخت شهرتهم في ذاكرة القراء وهم كثر ومنهم نجيب محفوظ ، عبد الرحمن منيف ، الطاهر وطار ، عبد الرحمن مجيد الربيعي ، جمال الغيطاني، حنا مينة ، جبرا ابراهيم جبرا ، أميل حبيبي وعشرات غيرهم تحاول بشتي الأساليب أن تجرب فى مختلف الإتجاهات ..فهي قد تأثرت بالرواية الغربية ، وطرحت علي ذاتها سؤال البحث عن شكل عربي للرواية يستفيد من الموروث العربي في القص والحكاية والسير الشعبية ، وهو جهد لازال متصلاً . كما أن الرواية العربية حاولت أن تعبر عن التحولات الإجتماعية في فترة الإنتقال التي يعاني المجتمع العربي آلامها ، وكما حاولت الرواية ان تعكس بدرجات متفاوتة ما لازم هذه الفترة من إنجازات وإنكسارات ، وإنعكاسات ذلك كله علي صعيد المجتمع ، أو علي نفسيات الشخوص والأبطال الذين امتلأت بهم صفحات الرواية العربية .

****

ومن الصور التي استهوت الروائيين العرب ، شخصية العربي المهاجر إلى أوربا – فمنذ فترة مبكرة كتب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق» ود. سهيل إدريس «الحي اللاتيني» ويحي حقي «قنديل أم هاشم» والطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» .

وسليمان في رواية عيسي الحلو مرَّ بذات التجربة التي مر بهامحسن واسماعيل ومصطفي سعيد الخ. ، في الإطار الخارجي

للتجربة ، إلا ان التركيبة النفسية ، والوضع الإجتماعي ، ولانود الدخول هنا في مقارنات «مكانها في غير هذه المقدمة» ، فإننا نؤشر سليمان ابن أمدرمان المدينة السودانية الكبيرة التي عاشت زمانها ، وهو واحد من الغرباء الذين إحتضنتهم باريس مثلما إحتضنت كاترين بالوحدة والعزلة ..ماتت كل الأشياء الصغيرة التي تمثل جسوراً للوصول بين هويتهم كزمن منسي وبين العصر الحديث .

***

وفي الرواية محاولة للخروج والانتقال من الرواية ذات الصوت الواحده كما يقول فاضل ثامر «مجلة أفكار الاردنية العدد(١٢١) لعام ١٩٩٥م» «الرواية المونولوجية» الي الرواية متعددة الأصوات «الرواية البولفونية» ، وهو إنتقال من لون سردى تهيمن فيه رؤيا فردية أحادية «للمؤلف أو البطل المركزي» علي المتطور الروائى بوصفها رؤيا مهيمنة متحكمة وأوتوقراطية علي المستوي الرؤيوي والايديولوجي الي منظور تتعايش فيه العديد من الرؤي والمنظورات الأيديولوجية والحياتية التي تمتلك حقها في الوجود والصراع بمعزل عن المنظور الأحادي المهيمن للمؤلف أو لبطله الأثير ، وهو إنتقال من إطار المنظور الفردي النرجسي البيروقراطي المنغلق إلى إطار المنظور الجماعي الليبرالى الديمقراطي المتعدد المنفتح.

ويبقي مهما الإشارة الي قول باختين :«أن ظاهرة تعدد الأصوات أو تعددية أشكال الوعي في الرواية الحديثة تمنح إهتماماً خاصاً للمنحي الحوارى في الرواية ، هذه النزعة التي إستطاعت أن تحرر الشخصية الروائية من رقابة المؤلف ومنحتها حرية واسعة في

الحركة داخل العمل الروائى بعد أن تخلصت من التوجهات الأيديولوجية المباشرة للمؤلف »

إلا أن هذا القول الأخير لايصح في كل الحالات لأننا نجد أن الخيوط في يد المؤلف – وقد لجأ المؤلف هنا ، إلى أساليب متعددة ومتنوعة فى إدارة الحوار وفي المونولوجات مع الإستعانة بالراوي احياناً.

وقد وصل عيسي الحلو إلى روايته هذه بعد أكثر من ثلاثين عاماً من معاناة الكتابة والتجريب الذي لايهدأ منذ ريش الببغاء «١٩٦٧م» وعشرات القصص القصيرة التي تميزت فيها مجموعة «وردة حمراء من أجل مريم» ومحاولات في الرواية «السماء والبرتقالة ، ومداخل العصافير إلى الحدائق» وقد نشرتا في الصحافة الأدبية السودانية .

***

ومن الملاحظات حول الرواية أنها تضمنت رواية داخل الرواية وهي تكتيك استخدمه شكسبير وروائيون ومسرحيون عرب كما تضمنت الرواية تداخل الأزمنة محققاً بذلك مقولة مارسيل بروست « لأن الإنسان هو ذلك الكائن الذي ليس له عمر محدد ذلك الكائن الذي يملك القدرة علي أن يغدو في ثوانٍ معدودات أصغر بسنين مما هو عليه ، وهو ، إذ تكتنفه جدران الزمن الذى عاش فيه ، ليطفو فيه ، ولكنه كأنما يطفو في حوض يتغير مستواه أبداً ، ليجعله في متناول هذا العصر أو ذاك .

ونحن في هذه المقدمة لا نود أن نخوض في التفاصيل أو نفرض رؤيا مسبقة ، ولكنها اشارات من أهمها الي جانب تداخل

الأزمنة المحور المكاني : باريس / أم درمان عند سليمان وكاثرين : باريس / المارتنيك وبقية الشخوص «منفيين ومهاجرين» — وهناك اشارات للصراعات السياسية في المارتنيك ، والصراع العربي الإسرائيلي ، وهناك تصورات عن العمل الروائى من نقاد وأصحاب علاقة بالمؤلف وفي حفل الإستقبال الذي اقامته دار غليمار بمناسبة صدور رواية سالم البدري الجديدة وكان الجدل بين نقاد الراوية حاداً «قالت كاثرين هل هؤلاء الاشخاص الذين يتحركون في روايتك هم نحن ...نحن كلنا ؟» أما سالم فقد قال: «رواية الآن وأمس ..المكان » تتبع خطاً رئيسياً هو طاقة التحول التي تكمن داخل تكوين الأشياء فالتطابق بين الروايات والواقع كوقائع تعتمد علي ضربة لاذب على الخط فالكاتب موضوع أمام وضعين : الخيال الفعّال أو الوهم المضلل ..فرغم أن شخصيات الرواية شخصيات حية ..إلا أنها ليست هي ..هي والتي تعرفين ..»

***

وأحسب أن هذه الرواية ستثير نقاشاً وجدلاً ، وتستقطب إهتماماً وانتباهاً الي روائيين سودانيين آخرين غير الطيب صالح ، وستطرح أسئلة حول البنية السردية فيها ، والمنحي الحواري الذي إتخذته ، وتعددية الأصوات ومستويات اللغة والإنتقال عبر الأزمنة والأمكنة ، ومقارنات مع أبطال روايات أخري «مصطفي سعيد مثلاً» والإختلافات في التركيبة النفسية ، والوعي السياسي ، وتوظيف الجنس داخل العمل الروائى ، وعشرات الأسئلة التي تتعلق بالفن الروائى ومدي قدرته علي التعبير عن أزمات الإنسان المعاصر ..باعتبار أن للرواية المعاصرة توازي الملحمة في العصور القديمة .

«كانت ذاكرة سليمان تتراجع وتحيا في الماضي .. كان يذكر مونبارناس والمولان روج وسان جيرمان ..يذكر باريس مكاناً مكاناً وأمدرمان زماناً وزماناً ..فكل الأمكنة والأزمنة تبدو سماوات سبع منطبقات»

والرواية تقوم علي هذه الذاكرة التي تتراجع وتحيا ... وتنتقل عبر المكان والزمان ..وتظل الأسئلة التي دارت حول الفنون - والتجويد الإبداعي مطروحة وهل يظهر في الموسيقي بشكل صداح ام أن الموسيقي في الروايات الادبية الجيدة تأتي خافتة ومهموسة؟

وتفتح هذه الرواية أمامنا كُوة نطل منها على عالم من المرئيات واللامرئيات وننتقل عبر الأزمنة والأمكنة، ونتأمل فيها الكوني والحياتي واليومي ..!!

مجذوب عيدروس

(١)

الآن.. وأمس والمكان

باريس .. شتاء ١٩٩٥م

كانت باريس ضاجة .. هامسة وصاخبة . تمتليء ساحاتها هذا الشتاء بالمغتربين . فكانت السفن وخطوط الطيران العالمية .. وقطار شرق أوربا السريع .. كانت كلها تصب في قلب باريس . وتتفرق الجماعات ذات الأعراق الكونية في الأحياء السكنية والشوارع. عيونهم تمتليء بالخوف والشعور بالوحدة. ثم يلتقون في مونبارناس والحي اللاتيني. يحملون مخاوفهم ودهشتهم ومتاعهم واشواقهم ويبحثون عن مأوى . ثم يذهبون للمقاهي فيتناولون مشروباً دافئاً ورفقة. يحلقون مثل طيور مهاجرة. فتتلاقى مصائرهم بفعل مصادفات الحياة او يفترقون . أما كاترين دو لامور فقد شقت لها طريقاً. إذ يفسحون لها الطريق ويحيونها.. فكانت نظراتهم الخائفة تشتهيها.. فينسونها وينشغلون عنها. ورغم برودة الشتاء.. كانت كاترين تشعر بشيء حار. فتلتهب كتل الثلج.. فتذوب صلابتها الصبورة الصامتة. وتحت النوافذ كانت كتل الثلج تلالاً بيضاء كالقطن. وكان شعور كاترين دو لامور مضطرباً. كانت تتأرجح ما بين وضوح الرؤيا المستبطن وما بين ضبابية الحلم. فكان عالمها يتفكك ويعيد تشكيل نفسه في صورة لم تعهدها كاترين. فإذا كان الأمس يتهدم.. فالآن يصبح زماناً مطلقاً. وتحت هذا الفضاء اللانهائي، وبمقدار تداخل

وتقاطع الأزمنة.. يأخذ المكان طابع إيقاعات زمن الأبدية.. مصادفة وحتمية. كان الثلج يذوب ويجري الماء وينساب على أسفلت الشارع الذي يتفرع من ميدان الكونكورد حينما يدخل في الحي اللاتيني. فكانت كاترين تخاف ويملأها شعور يعرفه كل البشر. يعرفونه باختلاف قومياتهم. يحملونه تحت جلودهم. ولا يعرفون له إسماً وموطناً. فهو غامض مثل الحزن ، وفرح جداً مثل الضوء ، سكران كنشوة النصر، وذابل كالهزيمة ، كثير الفيض أو قليل ، ولكننا نعرفه. وإن كنا لم نره وجهاً لوجه. نستعين عليه بالبكاء أو الصمت أو الهرج. وهو يحاصرنا فيملأ كل الفضاءات. فكانت كاترين تراه الآن دائما فوق سماء باريس مثلما كانت قد رأته زماناً فوق سماء الكاريبي.

أما سماء باريس الآن فقد تقوست فضاءاً رمادياً ناعماً كالستان ثم واصلت تساقط الثلج، فيبرق الثلج نجوماً بيضاء. وتتطاول أشجار البتولا عارية من أوراقها. وتتدثر العمائر والحدائق والطرقات ببخار أبيض وأزرق. أما باريس فقد ارتجفت من البرد.. من رأسها حتي قدميها.. ولم تكن مبالية بشيء. فنبض قلبها يدفق هويتها العميقة. فيدق صدرها بزمانها الحديث. وتزهو بشبابها الدائم النضرة. فهي نابليون وموليير.. وماري أنطونيت في غنجها المراح.. وأميراتها الممتلآت بالشبق والخيانة.. وفناناتها ذوات الخيال المجنون.. سارة برنار وجرترود أشتاين. وهي ذاتها المقصلة التي لا تعرف رحمة.. وهي ذاتها وثيقة حقوق الإنسان.. الإباحية والعقد الإجتماعي. هي أحزان جاك بريفيير وشك ديكارت هي جسد الزمان وروح العصور المستنيرة. فكانت تشع مثل لؤلؤة. فتغلب في دثار الثلج المبسوط فوق كتفيها. واثقة من حسنها وعلو مكانتها.

إضطرب صدر كاترين وهي تدوس كابح سيارتها. وتحاول جاهدة ضبط نفسها المضطربة. وتحت المظلات الملونة، المنصوبة على رصيف الشارع. انتشرت المقاهي التي يؤمها طلبة الفنون والآداب من الأجانب الوافدين الي باريس. إذ يختلط بهم المنفيون السياسيون والمخاطرون من دول العالم الثالث. وبين هذا الخليط شقت كاترين طريقها بين المناضد والكراسي. وكانت أصوات هؤلاء الغرباء واللامنتمين وحركات أجسادهم تخلو من أي تعبير ينم عن التفرد أو التميز.

.. تلك السمات التي تجعل الأفريقي أفريقياً.. والعربي شرقياً. فصدورهم خالية من الأشياء الخاصة بهم..

.. لقد أخذتهم مدينة النور وغسلتهم من همومهم الخاصة وادخلتهم في خيالها الذي يهضم كل الأفكار والعصور والحضارات فتولد طاقتها التي تشع نوراً. ورغم أن باريس قد أدخلتهم في جهازها الحضاري.. فلم تكن لتكترث لهم.. ولكنهم وسط هذا الشد والجذب .. بين أن يكونوا كما هم وبين التحول الخدر الذي يشعرون به بشكل خفي.. كانوا يقاومون.. وأمام الرفض ماتت كل الأشياء الصغيرة التي تمثل جسوراً للوصال بين هويتهم كزمن منسي وبين العصر الحديث الذي يدق به زمان باريس. ولهذا التناقض لم يكن التضامن مع المدينة ممكناً. وبموت هذا الشيء ضاعت الهوية العالمية تحت سماء البرد والثلج واللامسمى.

وتحت سماء هذه المدينة التقى سليمان الذي جاء من الخرطوم وكاترين دو لامور التي جاءت من المارتنيك. فكانوا جميعهم.. غرباء .. لا منتمين .. محاصرين بالوحدة وبالعزلة .. فلا هم ينتمون

لمجتمعاتهم ولا ينتمون لهذا المجتمع الذي دخلوا فيه. وبذا أصبحوا مواطنين عالميين.. ينتمون الي الأسرة العالمية رغم إختلاف الحضارات والعقائد. فكان هذا الإطار الإنساني هو قدرهم الذي أعطى تفاصيل حياتهم هنا طابعاً مأساوياً وكوميدياً كان يجرح أرواحهم في كل لحظة. وكانت باريس غانية قاسية القلب ولا مبالية.

*

عند مقعدين .. تحت مظلة داكنة الألوان جلست كاترين. خلعت قفازيها الصوفيين. وهي تنظر في ولهها غير الصبور في وجه سليمان. وكانت العينان تبرقان بوهج الصحارى المشع وسط أسرار عتمة الغابات المدارية.. فكانت كاترين أمام بحار المارتنيك. وكان الشعر الناعم المجعد يعكس طبعاً خنوعاً وروحاً شاسعاً مرناً وغير قادر على الحسم.

كانت كاترين تخاف هذه المرة.. الاّ يحسم الأمر المعلق بينهما منذ الشتاء الماضي. فهي تعرف أنه مربوط بالمصادفات التي لا ترى. أو ربما هي لا تفهمه بما يكفي. وهذا ما كانت تبرر به تباطأها في تركه. ولكنها كانت تخاف قابليته للإستفزاز التي تصل حد التدمير والعنف. لقد أتفقا ليلة أمس على ان يتخذ سليمان القرار. أن يحسم علاقتهما بالشكل المرجو. وأن يتزوجا هذا الشتاء. خاصة وأن ابنتها فرانسواز ستلتحق بالبكالوريا وتسكن في بيت الطالبات. وأن أبنها مارسيل سيتزوج. فهي تخشى على وضعها الاجتماعي والأكاديمي من سوء الفهم العام. مما يجعل علاقتها مع سليمان لا تستقيم مع كل هذه الأعتبارات. وبهذا كانت كاترين قد طلبت من سليمان أن يتخذ القرار.. وإلاَّ ليذهب كل في سبيله !.

لم يذب الثلج بعد. وبين سحب سماء الشتاء الباريسيه.. كان الصباح رمادياً. فكان سليمان متنازعاً بين المشاعر التي لا يعرف حقيقتها وبين تقديرات الربح والخسارة. إلاّ أنه في النهاية كانْ يخشى من أن يكون وضيعاً أمام نفسه. وأرتعشتِ كاترين بسبب الشك والخوف حينما .. [illegible]ها موجتان متلاحقتان من الهلع والبرد. فكانت كاترين المقبلة على عمرها الخمسين تعالج شيخوختها وترملها وأشواق جسدها المثقل بطيوف الحب والموت، بشيء من مقاومة آلام روحها. كانت محاصرة بالوحدة. كان فكتور زوجها سفيراً لبلدهما بورتوريكو.. إحدي الجزر الصغيرة في البحر الكاريبي. فكانت الجزيرة متجاذبة بامواج المد السياسي.. يشدها كاسترو من جهة وتشدها أمريكا من جهة. فبعد إغتيال فكتور ذاقت كاترين عذابات التحقيق البوليسي المتعسف والقهر. فلجأت الي باريس حتي لا تعرض حياتها وحياة إبنيها.. فرانسواز ومارسيل لصعوبات وأهوال هذه الانقلاباتِ العسكرية. وفي باريس التحقت كاترين بجامعة السوربون.. محاضرة في سياسات التنمية الحضارية في العالم الثالث. وكان سليمان عثمان أحد طلبتها، حيث يدرس الأُسس الإقتصادية للبلدان التي تحت التنمية في العالم. كانت كاترين قد رأته أول مرة ذاك المساء في قاعة الدرس. الشعر الليلي البهيم.. العينان .. ولم يكن رجلاً .. لم يكن وجهاً.. كان ذات الاطلاق.. كان ذات اللامرئي .. كان مثل السيف.. مثل الوردة.. ومثل لا شيء . هو الخوف الكوني الذي قدر لها ان تلتقي به . فكانت تمشي نحو حتفها بقوة دفع تعمل عكس هدفها الأصلي.. كما لو كانت قدرة الحياة البناءة فيها تنشد تفجير وتدمير طاقتها الحيوية. فما هدف الحياة حينئذ غير الموت.

بعد الأسبوع الاول من لقاء كاترين بسليمان.. كانت شقة كاترين التي تطل على نهر السين قد استضافت رجلاً غريباً . حاولت فرانسواز أن تتحاشاه، كما تجاهله مارسيل. فاجتهدت كاترين في أن تجعله بعيداً عن أذى أسرتها. ومثلما كانت نباتات الظل تنمو هنا بالرعاية والحنو، كانت الإلفة والمودة تنمو بين كاترين وسليمان. وفي معظم الليالي التي يقضيانها سوياً بالشقة، كانت كاترين تساعده في إعداد بحوثه الجامعية وتغازله وتقرأ له أشعاراً شديدة الجمال. وكان سليمان يقص عليها قصص ألف ليلة وليلة .. واخبار العرب وسير أبطال بلده القوميين. وطوال هذا الوقت كان سليمان ودوداً وطيباً. وكان يعرف إن كاترين تختلف عن تلك السائحة الأمريكية العجوز الثرية.. التي التقى بها في روما في طريق هجرته من الخرطوم الي باريس. لقد نفد ما كان معه من مال.. فلم يجد وسيلة لمواصلة رحلته الي باريس سوى أن يشتغل أعمالاً هامشية تدر عليه شيئاً من المال ليواصل الرحيل. فعمل مرشداً أثرياً يقود السواح الي القلاع والكلوزيوم وقنوات البندقية. فتعلقت به العجوز وفي نهاية كل جولة كانت تعطيه أوراقاً مالية من فئة الألف دولار أمريكي.. وتطلب في قسوة أن يقضي الليل معها بالفندق. فالاختلاف بين المرأتين كبير جداً. ولكن كاترين بدأت في التغير. وذات ضحى تزينت في أفراط وعزمته على رحلة فوق قارب يعبر السين. وقبل أن يصل القارب الي حدائق الشاطيء الآخر.. أخذت كاترين تغازل صبي القارب بشكل مكشوف. إلاّ أن سليمان لم يستثر ، ولم يفهم الدوافع وراء هذا التبذل الذي أعاد له ذكرى السائحة الأمريكية العجوز. وعرفت كاترين أنها قد منيت بفشل ذريع. ومنذ تلك الليلة أصطنعت طريقاً آخر . فالولد

إذاً يريدها أماً. وما بين هاتين العاطفتين الأمومة والعشق تخبطت كاترين في علاقتها بسليمان . عرفت الليالي بودلير ورامبو وايلوار والمتنبي والعباسي.. وسيزان وبيكاسو.. والصلحي وشبرين وبروست والطيب صالح والفيتوري. وعندما جاء الربيع أقامت له حفلاً في فندق المريديان.. ودعت اليه حسان باريس ورجالاتها. وقدمت سليمان على أنه خطيبها . وكانت هديتها له بهذه المناسبة أن أعطته بطاقة المواطنة من بلدية باريس.

وفي مثل هذا الطقس الملبد بسحب التناقضات هبت روح سليمان وانطلقت في فضائها الأوسع. وما كانت كاترين لتدري عواقب الأمور. ولكن قوة عقلها المنظم قد استشعرت بوادر أزمة روحية تسحق عظم سليمان. فقد جاء عند الفجر مخموراً .. خلع ثيابه جميعها.. ومشى عارياً. وهو يصرخ .. كاترين .. ها هو أنا ذا ! فحولة حتي العظم .. هاك الجسد كله .. كل قوة الفعل .. قه .. قه .. قه .. أليس هذا ما تريدين ! .. جسد فعّال يكفي باريس كلها..

وهجم سليمان في هياجه وحطم الزجاجيات والأواني وباقات الورد . ووقف وسط الحطام. وجاء مارسيل وفرانسواز. ثم ذهبا يطاطئان رأسيهما. وصاح سليمان .. أنني اكفي باريس كلها .. أنت ومارسيل وفرانسواز .

وقبل أن يستدير ليدخل غرفته بصق على وجه كاترين الذي أنفقت زهاء الساعتين في تزيينه. وانحنت كاترين تلملم حطام الأزمة والدم يتدفق من يديها. ومثلما انحنت أمام الأزمة .. هاهي تنحني لتمر عجلات الأذي الدامي فوق كبريائها . ولم تبك قط . كما أعتادت أن تبكي !.

خلعت كاترين قفازيها . وطلبت من خادم المقهى مشروبين ساخنين .

.. وقالت تخاطب سليمان .. وافقت ادارة مصحة علاج مدمني الكحول على طلبينا.

.. أنسى الأمر .. لن أذهب .

.. إذاً سأذهب وحدي .

.. ولماذا .! وأنت غير مدمنة !.

.. حتى أعرف كيف يمكن أن أتعامل معك .

كانت كاترين آسفة جداً لحالته .. ولهذه الثورات المجنونة . وكانت تعزي الحالة كلها لسوء تصرف منها . ولكنها لا تعرف بالضبط ماهي أخطاؤها ! فهي لا تعرف لماذا يساء فهمها دائماً . فحتى حكومة بلدها لا تعرف ان كانت كاترين تنتمي اليها .. ام هي تنتمي للمعارضة . ولأن كاترين لم تكن مهتمة الاّ بالشعر والحب ، فلم تكن حريصة على توضيح موقفها .

*

مضى الشتاء .. وتحولت سماء باريس الرمادية الي سماء فضية .. جاء ت الزنابق. إخضرت الأشجار .. وكان الأولاد يتقاذفون بكرات الثلج . ثم جاء دفء الربيع . ولكن سليمان لم تغيره دورات الفصول . فدارت روحه في متاهة الحب واللاشيء . لم يؤثر فيه حنان كاترين الأمومي المصطنع . كان جفولاً نفوراً .. كانت كلما حاولت الإقتراب منه خطوة .. يبعد خطوتين . وتوقفت قصص ألف ليلة وليلة عند الليلة الأربعمائة . وفي صباح الأحد اشتغلت كاترين في ترتيب وتزيين الشقة . يساعدها كل من فرانسواز ومارسيل . وفي المساء

كانت مائدة الحفل يتصدرها ديك رومي ونبيذ وورد أبيض . وجاء سليمان ومعه فتاة ذات ملامح شرقية . قدمها لكاترين ..

.. «.. إنها سونيا .. صديقة .. معي بالجامعة .. هي من أصل جزائري ..» .. وطوال العشاء كانا يتغازلان ويتغانجان .. ويفرطان في الشراب . وعندما إنتصف الليل.. ذهب بها سليمان الي فراش كاترين وأغلق الباب عليهما.

خافت كاترين من أن تثير فضيحة . فنامت في الشرفة تحت سماء باريس دون أن يغمض لها جفن . وعند الفجر مع بداية تنفس المدينة وتململها في النوم المتقطع ، نهضت كاترين وهي تلملم أطرافها ، من الهجر والإهانة والوحدة . ووقع نظرها على برج إيڤل. شعرت بأنها شائخة جداً .. قديمة مثل هذه المدينة ، التي أخذت أضواؤها الليلية البراقة تنطفيء الواحدة تلو الأخرى. وبرج إيڤل هو نفس المكان الذي شهد لقاءات الهوى الأولى .. «لا لم يكن كاذباً قط . عندما قال ويده تحتضن يدي ..»

.. «كم تكون الحياة جميلة عندما اكون معك ..» .

كان الحب يملأ عينيها بالدموع .. وهي كثيرة البكاء . فكاد البكاء يكون وسيلتها الوحيدة في التعبير عن ذاك الشيء الغامض الذي لا يقال . فهو لا يظهر بكامله .. ولكنها الآن تشعر به تحت جلدها .. حاداً كشفرة الموس ورقيقاً كالليل .. شيء هو مثل لا شيء في العالم.

لقد بكت ذاك اليوم عندما أشترط سليمان أن تطرد فرانسواز ومارسيل ، أن هي أرادت أن يعيش معها . فطلبت كاترين من فرانسواز ومارسيل أن يذهبا ليعيشا مع جدتهما تريزا في ريف بوردو. أمتثلا لطلبها ليتفاديا أي صدام فاضح للأسرة. رغم إنهما شعرا

بقسوة هذا الطلب. لقد كرها ان يكون لأمهما عشيق . كانت تصدمهما هذه الإبتذالات التي يقر إِنها في رَوايات فلوبير واستناندال التي تفضح تهتكات الطبقة الباريسية الوسطى . مما جعل كاترين تشعر بالذنب . وفي ذات اليوم ذهبت كاترين للكنيسة وأوقدت شمعة للفداء .. كانت تستتوب .. وجسدها يهتز بمشاعر متضاربة.

.. أن تترك سليمان .. وأن يشاركها جسد سليمان أفراح جسدها . وكانت الشمعة تتراقص مضطربة أمام تيارات التناقض . كان جسد كاترين يضيء باشواقه وكانت الشمعة تذوي بمخاوفها.

.. وفي تلك الليلة كانت كاترين قد اطلقت على ذاك الشيء المنتصب في تمرد والملتصق أسفل بطن سليمان مثل أفعى .. اسم «ديزازين» وفي المعجم الألماني وجدت ان المصطلح يعني .. ترتيب الاشياء على التوالي .. ويعني الإعداد لوظيفة ما . أو هو يعني وفق تقديرها الجسدي الخاص .. معني الخروج .. الظهور .. وذلك عندما يأخذ المعني له شكلاً. إذ يتجسد المجرد.. تتجسد رغبة الحياة . حيث انصهار الأنا في الآخر .

وخلصت كاترين من صلواتها . نفضت عن ضميرها غباراً طفيفاً بمثلما نفضت الغبار العالق بذيل ثوبها . لقد نسيت .. فكان النسيان طوق نجاتها من صدمات الحياة المتتالية . فالنسيان هو ما يجعل الحياة ممكنة . فعندما أتوها بجثة فكتور .. زوجها .. مثقوبة في أكثر من موضع .. كاد عقلها أن يطيش بفعل الصدمة . أنكرت في البدء أنه سيموت . أو هو قد مات . أخذوه منها في التو لأمور تتعلق بالأمن السياسي . وضعوه في مكان ما . لا تدري حتي الآن . إن كان فكتور قد مات حقاً ام هو ما زال حياً!.. فتارة تشتغل آليات النسيان التي

تدربت عليها بقرآتها للألماني هيدجر فتقول إنه مات .. وان ما مضى مضى .. فالنسيان هو أنبثاق الوجود .. هو انكشاف الراهن والحاضر . وبهذا يكون فكتور قد مات . ثم اعتادت كاترين على فكرة موت فكتور على مدى الشهور الستة الماضية . وكثيراً ما تأرجحت ما بين فكرتي النفي والإثبات . فكانت تلبس ثياب حدادها السود وتضع قبعة على رأسها وتلف على كل الدوائر التي كانت لها صلة بزوجها الراحل . كما كانت في نفس الوقت دائمة الذهاب الي أمها في بوردو. لقد دأبت على جمع المعلومات حول مقتل فكتور من مضابط الأمن والصحف . فكانت حقيقة موت زوجها تتأكد تارة وتنفي أخرى.. هذا بناء على حالتها الذهنية التي تكون فيها . فعندما وقعت في حب سليمان كان فكتور ميتاً بالفعل . وعندما نهضت الآن من نومها العاري الذليل في الشرفة .. كان فكتور حياً. وربما سيأتي ليأخذها هي ومارسيل وفرانسواز الي ماكسيم للغداء . أو أن يذهبا الي تريزا في مزرعتها في بوردو.

دخلت كاترين غرفتها . وارتدت ثيابها على عجل . كانت ترتجف من الخوف . وهي تتجنب رؤية هذين الغريبين العاريين النائمين فوق فراشها . كانت ثيابها مضطربة في فوضى لا حد لها. شعرها مشوش يتطاير كيفما أتفق . جرت قفزاً كما لو كانت مطاردة . فأصبحت تشبه فتيات الشوارع الخلفية في مونبارس. فلا تمت الي هيئة أستاذة جامعية ولا الي هيئة عضو هيئة دبلوماسية. فهي الآن تجري نظيفة زاهية الألوان مثل زنبقة تتفتح في صباح يوم مشرق . وتداخلت اللحظتان . بفعل اليأس . وبين المناضد التي يجلس حولها الغرباء واللامنتمون ، التي تظللها المظلات الملونة ويحوم فوقها الشعر

والأشواق الكونية ، ودخان التبغ وروائح القهوة والشطائر .. حيث يبلغ الزحام أشده في الحي اللاتيني في هذا الوقت وصلت كاترين الي موعدها مع سليمان.

*

شربا مشروبهما في رشفات متقطعة دون أن يتذوقاه .

لهثت كاترين .. وقالت .. إلي أي قرار وصلت !.

.. لا أستطيع اتخاذ قرار .

.. إذاً لنفترق .

.. كما تشائين !.

نهضا . تخاصما . ركبا سيارة كاترين . انطلقت السيارة . وعند أشارة المرور توقفت السيارة. كانت أصابع كاترين تنقر على عجلة القيادة .

وقالت .. سوف أرسل لك أشياءك .. الملابس والكتب .

ومن حقيبتها أخرجت شيكاً وكتبت له مبلغاً من الفرنكات .

وقالت : دون إن تنظر اليه مباشرة .. تدبر أمرك . ولا تخلط الأمور فنحن ما نزال صديقين فالحل في صالح الطرفين . واصل حياتك كما تريد . واكون أنا قد حللت مشكلة أولادي .. فمارسيل سيتزوج في الربيع . وفرانسواز ستدخل البكالوريا بعد شهور .

قال سليمان دون جدل . هناك دائما عدد لا يحصي من اللحظات داخل كل لحظة . تمثل عدداً من الخيارات . داخل كل موقف . ولكننا نختار لحظة واحدة داخل الموقف. أما اللحظات المبعدة فهي ما تزال تجري متوازية مع تلك اللحظة التي انخرطنا وتورطنا بالعيش فيها . فنحن نختار صورة واحدة من كل تلك الصور فتكون

ما نحن كائنون عليه.

.. قالت كاترين .. إن ادراكنا للموقف .. هو ادراك البدن .

.. قال سليمان .. كيفما كانت الطرق .. فيظل وراء هذا العالم عوالم أخرى !.

.. قالت كاترين .. الجسد هو الذي يشكل المعني .. كما تفعل اللوحة والقصيدة . شملهما صمت .. وانعقد فوق رأسيهما الشعور المرير بالفقد .. وكان مقهي الكافي دي روا يضج بالصخب .

*

كانت سيارة كاترين تتخطى كل اشارات المرور الحمراء . تاهت السيارة في تشابكات شوارع باريس . لقد اشتعلت نار الخصام بينهما في صمت . بعد ان تركا الحي اللاتيني خلفهما . وقليلاً قليلاً بدأ جليد الشعور بالفقد يذوب أمام لهيب نار الخصام الحية . فعرفا بشكل خفي أن الذي بينهما لم ينته بعد . رغم أن كاترين لم تنس إن الطرق أمامها قد سدت . فالقرار الذي ضرب بالعلاقة بينهما لم يكن بسببها .. الاّ أنه قرارها .. فهي التي وضعت سليمان داخل هذا الموقف. لقد إختارت هي إذاً هذا الفقدان . وكان هذا التناقض المزدوج يعذبها . وصلا شقة سليمان التي كانت مغلقة طوال الشتاء. نزل سليمان . أخرج الشيك من جيب سترته . أمسكه باطراف الأصابع . مزقه . رمى بالمزق وجه كاترين . طارت دموع كاترين مع المزق التي طارت في الهواء . وتناثر الكيان الجريح كصدى يخترق المسافات الرحيبة في كل العالم !.

*

وتحت هذا الشعور الضاغط قادت كاترين سيارتها . تاهت

السيارة في شوارع باريس دون هدف .. وهي تنطلق بالسرعة القصوى .. وكان المارة يهربون من أمامها في ذعر .. وكانت كاترين خائفة مثل طائر محاصر بالسماوات الزرقاء .. فكانت أجنحة التحليق تتخبط باحثة عن طريق ما . وانهمرت الثلوج في قطع صغيرة .. مطراً ناعماً كالغبار .. وامتلأت باريس بالبرد .. دخلت السيارة في شارع جانبي وفجأة ظهر رجل يرتدي معطفاً وقبعة . ويحمل عصاه ومظلة واقية من المطر منشورة فوق رأسه .. وفي يده مجموعة من الكتب . وضربت مقدمة السيارة الرجل الذي طار في الهواء وتناثرت الأشياء التي يحملها ووقعت في برك الماء الأحمر .. وتنبهت كاترين. وداست كابح السيارة. نزلت . ساعدت الرجل على النهوض .. فكان الرجل يقطر ماءاً .. أعطته عصاه والمظلة .. والكتب المبللة بالماء الأحمر. لم يثر الرجل .. كان صامتاً . وما أدهشها .. انه كان لطيفاً.. يكثر من كلمات الشكر حتى أنه كاد يعتذر من كل هذا . وأخذت كاترين تعتذر وتشعر بمسئوليتها نحوه بشكل مضاعف . وطلبت منه أن توصله الي بيته . قادت السيارة ودخلت الحي اللاتيني.

كانت شقة الرجل بالطابق الأسفل في أحدى البنايات . دخلا الشقة . اضاءت كاترين النور . وطلب منها الرجل أن تدخله الي غرفة نومه . ارقدته .. وسألته ان كان يحتاج الي طبيب .. رفض الرجل .. فليس هناك شيء سوى رضوض بسيطة. دثرته بغطاء ثقيل . وصنعت شاياً.. وتحت اضواء خافته وموسيقى كلاسيكيه رقيقة .. جلست كاترين الي جانبه ..

..قال الرجل .. اسمي سالم البدري . اكتب روايات . أعيش وحيداً دون أصدقاء . لقد اسعدتني هذه المصادفة .. وها أنا اقضي

الليل ومعي أمرأة جميلة. ولكنني أراك تعيسة . أهو الحب!.

.. أمسك سالم البدري بيدها . وأخذ يمسح على شعر رأسها بحنو .. ورغم أن سالم البدري لم يكن كهلاً .. إلاّ أن كاترين لم تشعر الاّ بمشاعر الصداقة الصافية.. لم يكن ذاك النوع من الرجال الذين يتوترون عندما يكونون في خلوة مع إمرأة .. وعرفت كاترين أنه مصاب بالمثالية الجنسية التي تجرد الرجل من حسيته وتعطيه روحاً رقيقاً وطهرانية عميقة .

.. قالت كاترين .. عن أي شيء تتكلم رواياتك ؟.

.. قال سليم .. عن الحياة !.

.. قالت كاترين .. لهذا السبب أنت ترحب بي .

قال سليم .. اريد أن أحبك فهذا يعطي كتابتي الطاقة .

.. قالت كاترين .. ظننت انك تكتب وأنت بعيد عن موضوعاتك .

.. قال سليم .. الرواية الجيدة .. هي تفاصيل تنمو كالبراعم.

.. قالت كاترين .. فهمت .. فأنت ستسيطر عليّ تماماً إذ تدخلني في الموقف.. في الحياة وفي الرواية .

برقت عينا سليم وتوهجتا . وعرف أن هناك قدراً ما قد ربطه بهذه المرأة .. وأنه سيلتقي بها دائماً .. في الحياة أو في الروايات . وقبل الفجر بقليل تركته كاترين وذهبت.

*

وفي الصباح جلست كاترين الي مرآتها . أكملت زينتها . وبحلقت في المرآة. ووسط السطح الضبابي المصقول رأت وجهها ... مطبوعة عليه الأحزان والأفراح .. وهي كلها تنصرف وتتواري . لقد

ذهب حبها الأول وانمحي من بريق العينين . ونسى جلد الشفاه حلاوة القبل المختلسة . وجه يمتليء بالتجاعيد . وبالمنديل مسحت كاترين السطح الغائم . ولكن الوجه لم يتبدل قط .. لم يكن الوجه هو وجهها .. كان وجه شيء يتقدم في بطء .. يدق مع ضخات الدم في القلب . في البدء كان مرحاً .. والآن هو ذاك الشيء الذي نحمله معنا في الحياة دائماً . شيء بارد كالشيخوخة . وشمل كاترين شعور خدر ليس هو الخوف الصافي كما يشتعل سالم البدري بالفن . وهي تود لهذه الطاقة أن تسحق روحها .. أن تسحق جسدها .. ذاك الإنسحاق المؤلم المؤذي والممتع . ويخدر جسد كاترين بمتعته الخاصة ورن جرس الهاتف .. رنيناً حاداً متواصلاً . فأستيقظت كاترين من غمار متعتها الجسدية .

– من !.

– صباح الخير .

– من ؟

– سليمان !.

– نعم . ماذا !.

– انتظريني .

في الفترة الزمانية المتقطعة داخل المحادثة الهاتفية . كان شعور العاشقين مزدوجاً بالتناقض . وحينما اندست كبرياء كل منهما في الأمر .. أصبحت عواطفها تتغذي بالكره وبالمودة . فكان الخليط حباً قاسياً حينما أخذ يذهب ويجيء في اللازمان واللامكان . ولقد عرفا كلاهما انهما قد وقعها في الفخ .. وقعا في اللامعني.

فضج الجسدان بأشواق الإمكان والأستحالة . فأصبحت

الاستحالة مطلباً وعائقاً يصطدم به المصير . فأخذا عبر هذه المحادثة القصيرة يدوران مثل حيوانين جريحين. فبعث الألم المصنوع من اللامعقول واللاجدوى، كل أصول العنف والقتال والأذى والحنان.

*

وفي صمت عاد كل شيء في حياتهما لوضعه السابق . فجلس سليمان في مقعده المعتاد في الشرفة التي تطل على نهر السين . كانت الشمس حمراء ، فاختلط الشفق بخضرة الأشجار وبقمم المباني الرمادية. وتحلق طيور سوداء فوق الدخان الصاعد من مداخن البواخر التي تمخر النهر . وسطح ضوء باريس تناثر فوق أمواج النهر الأخضر . وكان سليمان يشرب قهوته ويقرأ الصحف . فض برقية جاءت من الخرطوم تخبره بان أمه مريضه وفي وضع طبي خطير . ورأت كاترين انزعاج سليمان . وقرأت كاترين البرقية . وقال سليمان .. «سأتصل بهم عن طريق السفارة». ارتدى ثيابه وخرج . أنهت كاترين أفطارها وذهبت الي جامعتها يصحبها مارسيل وفرانسواز . وتضايقت كاترين من آرائهم المواربة ضد سليمان .

أخذ سليمان يتجول في شوارع المدينة . قطع الجسر . دخل في الشارع الرئيسي الذي ينصف الحي الجزائري . رأى سيارة الإسعاف الطبي وشرطة . وسمع أصواتاً تسب بكلمات عربية بذيئة . وصل قرب هؤلاء العرب المتجمهرين . علم أن عربياً قتل زوجته حينما وجدها في أحضان رجل آخر . توقف وأشتري سمكاً وخبزاً وبرتقالاً. وفي الطابق الثاني من مبنى آيل للسقوط مدّ يده وهي ترتعش وقرع جرس الباب.

فتحت سونيا الباب . كان لقاؤهما فاتراً . أخذت سونيا

اللفافات ودخلت المطبخ . وجلس سليمان فوق أريكة في صالة البيت. كان بيت سونيا ينم عن فوضى ضاربة . فهي تعيش هنا بمفردها .. وتذهب لأسرتها في الريف في عطلات الجامعة . لقد اعتاد سليمان على المجيء الي سونيا كلما أحس بضيق.

ورغم فوضى المكان ورثاثة البيت .. التي انعكست بطريقة ما على سونيا إلاّ أن سليمان كان يشعر شعوراً عميقاً بحقيقية المكان . فهي لا تعرف الشعر ولا الفلسفة . لها عينان لا تريان في الحياة أية تعقيدات . فهي تتعامل معه بلا خبرة سابقة ولا تسعى لأن تراه من الداخل . ورغم أنها زميلته بالجامعة ، إلاّ أن كل الذي تدرسه في الجامعة لا صلة له بحياتها هنا . كانت روحها البدائية تذكره بالنبات في الأطراف المنسية في مدينة ام درمان . أما كاترين .. الثقافة .. الثراء .. الطبقة الإجتماعية الرفيعة ..

.. كانت تجرده من سلاحه .. وتجعله هذا الكيان العاجز . فكاترين .. رغم أنها تنتمي جذرياً الي سليمان والي سونيا .. فهم كلهم ينحدرون من عالم تحت التنمية الإقتصادية والإجتماعية . ولكن كاترين تجاوزت طبقتها وانحازت للعالم ذي السلطة والثراء إن تفوق كاترين الحضاري يسلب سليمان جسده . فتموت قدرته الفعالة تحت شعوره بأنه مأخوذ .

وشعر سليمان برغبة جسدية غامرة . اندفع نحو المطبخ . هجم على سونيا ، التي كانت توليه ظهرها. أصاب الهلع سونيا .. فطارت آنية المرق .. حتي كاد المرق الساخن يندلق فوق صدرها . هجم سليمان على سونيا . وأخذ يلثم كل موضع في جسدها .. أطاح بها أرضاً وانبطح فوقها بكامل ثيابه . وفجأة انطفأ كل شيء .. قبل أن يبدأ

شيء. نهضت سونيا . نفضت ثوبها . ونظرت الي ساعة الحائط.

.. قالت سونيا .. لم يتبق لك الاّ عشر دقائق فقط . وهي كافية لتناول طعامك. ولكن لما تجيئني!..

.. لماذا تصبر عليك تلك العجوز !.. وأنت هكذا بلا شيء !.. آه .. آه .. أنني أفهم الآن.. لقد أخذتني تلك الليلة لبيتها وأنمتني على فراشها.. لتقول لها .. ان العيب فيها !.. يا للعجوز المسكينة!.

.. قال سليمان .. أنك لا تفهمين!!.. أنا أحبك !.. كنت أريد أن اكون آخذاً لا مأخوذاً.. مصغداً لا مسفلاً .

قالت سونيا .. أنت مثلي .. كلانا لا يحب أحداً . أنا لم يحبني أحد قط . ولهذا فأنا لا أحب أحداً إننا نضيع الوقت سدى.

.. هل تطرديني !.

.. يمكنك البقاء ان أردت . الساعة عندي بعشرة فرنكات . وفي هذه الساعة اقدم لك الخدمة التي تناسبك ! فالعواطف الشخصية غير واردة هنا.

.. هل أنت هكذا !.

.. أليس هذا ما تظنه بي !.

تساقط المطر .. حبات من الثلج الأبيض التي أخذت تثقب الوشاح الضبابي الشفاف الذي يكسو باريس. تحت المطر الثلجي قادت كاترين سيارتها بعد خروجها من بيت سالم البدري . كانت تعود لبيتها في الظهر . عند إشارة المرور توقفت السيارة. فوقع نظرها على احدى الصحف ، التي تحمل على صدر صفحتها الأولى صورة فكتور. شملها رعب بارد. أدارت السيارة ووقفت أمام كشك الصحف. كانت اللوموند والفيجارو تحملان عنوانين متناقضين. إذ

تقول اللوموند.. ان فكتور جسمان سفير بورتوريكو في ظل الحكومة العسكرية السابقة مازال حياً. فيما تقول الفيجارو أن فكتور قد مات. وان الأمريكان قد أعدوا بديلاً هو صورة معدلة للسفير السابق. ونظرت كاترين لصورة فكتور هنا وهناك . فكانت الصورتان تتطابقان. ودار عقل كاترين . ودخلت هذه المتاهة كما لو كانت جزيرة من جزر المارتنيك تضرب شواطئها أمواج المد والجزر . وكبلد من بلدان الشرق الأوسط تظهر الأحداث فيه في صورتين. فحاولت كاترين أن تلعب لعبة النسيان. وتحت شعور من يقع في الفخ .. قادت سيارتها وهي تعاني من المرض والدوار. وصلت شقتها .. كان جرس الهاتف يرن بشكل حاد متواصل.

.. نعم .. كاترين !.

.. من !.

.. صمت .

.. كنا نتابعك – الزمي الصمت .

.. أهو فكتور !.

.. نعم هو .

.. ولكن فكتور مات! .

.. لا .. أجريت له عملية جراحة ! .. لقد غيرنا جلده .. أصبح معنا!.

.. من الذي يتكلم !.

.. لا أحد .. أنسي الأمر!.

انقطعت المحادثة .. شمل الشقة صمت ينتفض بأجنحة الخوف .
لم يعد النسيان ممكناً. منذ بداية الشتاء كانت كاترين تنام نوماً

متقطعاً.. فتتأرجح ذاكرتها بين الوسن والصحو.. كان فتكور قد مات .. فجعل النسيان الحياة ممكنة. ولكن ها هو فكتور يبعث من جديد. فاذا بالماضي يسيطر على الحاضر. فالحاضر لحظة ذات جذر.. تثمر تاريخا.. فأختيار سليمان بديلاً عن فكتور شيء خارج سباق التأريخ والمصير الحتمي. عليها أن تنسي وأن تولد مع اللحظة الوليدة.. فما النسيان إلاّ انبثاق الحاضر!.. وهاهي برقية تأتي من الخرطوم. فأم سليمان قد عوفيت . فأذاً علي كاترين أن تنسى وأن تلهو في الاتجاه المعاكس. وكمن يسبح ضد التيار. أعدت كاترين الحلوى والعصائر .

وفي المساء زينت الصالة بشجرة عيد الميلاد. وعلقت اجراساً وورقاً لامعاً عاكساً للأضواء.. وأعدت مائدة الحفل كمفأجاة لسليمان. أختبأت كاترين خلف ستائر الصالة في انتظار عودة سليمان المسائية .

دخل سليمان .. قفزت كاترين .. رمت بنفسها بين ذراعيه.. وضمته الي صدرها وهي تلثم وجهه. انزعج سليمان. وبردة فعل مضادة .. تراجع سليمان بكل قوة الكيان الذي يحمي نفسه.. انغلق جسد سليمان كما تنغلق اكمام الوردة التي تستشعر يد القطاف. وجفل كل منهما. وتراجعا للوراء. وبهلع غامض.. كان كل منهما يحاول إخفاء شعوره الحقيقي بهذا الذي حدث. حاولا ان يتسترا باللياقة اللازمة على انكشاف الأمر. كان كلاهما يتحاشى أن يجرح الآخر.

.. قالت كاترين .. وهي تنظر أسفل قدميها. أردت فقط .. أن نحتفل معاً بنبأ سعيد.

.. أهو عودة فكتور كما تقول اللوموندا!.

.. مدت كاترين البرقية لسليمان دون أن تقول شيئاً.

جلسا صامتين . كانا يحتفلان بشيء غريب . شيء غائب . إلاّ أنه يشملهما بحضوره الكثيف . شيء مثل الحزن أو الأسف . شيء له وجه الندم. كان يختلط بشعور الجسد عندما يريد جسداً يطل عبره علي العالم. ..جسداً يشارك هذا التوق المستحيل الفرح. فكان جسد كاترين يرتعش في وحدته الكونية . وأخذت ذاكرة الجسد تستعيد ذاكرتها .. ولكنها كانت تصطدم بالماضي والراهن .. بين الإمكان والإستحالة وحملت اللحظة الراهنة كاترين فوق ظهر أمواج سوداء كثيفة مزبدة كجزيرة في المارتنيك تتلاعب بها الأحداث والأمواج . وظهر الحزن والهجر والعجز . فظهر هذا الوجه فملأ المكان . وأخذ الظل الكثيف يتسلل مع خيوط الضوء الأحمر النافذ عبر زجاج الصالة. فسقط تحت قدمي كاترين وسليمان دون أن يشعرا به.

*

ركبت كاترين سيارتها وذهبت للحي اللاتيني. قرعت جرس باب شقة سالم البدري. وتاه سليمان في شوارع باريس تنقله قدماه كيفما اتفق. فكانت الحياة تجري صاخبة.. والمارة يهرولون في عجلة .. الاشجار ساقطت أوراقها القديمة، ثم اكتست بزغب ناعم أخضر ورمادي. وأخذت أشجار الكرز واللوز تبرعم ورودها الصغيرة الحمراء والصفراء. واكتسى الحصي وحبات الرمل بالوهج الأصفر . وكانت روح ما. روح غامضة . شيء قوي جداً هو الأصل وسبب السبب يسيطر على مقاليد الأمور جميعها. هو الخيط الذي يصل بين الأشياء في تنوعها وتعددها ليربطها كلها في وحدتها الكلية. وكما للناس حياة.. فكذلك للأشياء حياة. فما الإختلاف بيني أنا وسليمان وشجرة الكرز هذه! .. أنها الحرية.. فللأشياء أيضاً حرية. حرية أن

تنمو وأن تثمر . هذا هو القانون. وعلي كلينا ينطلق . ومع صفير الريح الهين .. كان يسمع صوت كاترين .. «أن الحرية هي التي تعطينا الهوية .. وهذا ما يجعل بحثنا عن الحرية مجدياً..» نال التعب من سليمان .

كان يتفادى الحركة الفوارة .. المارة والسيارات . فكان جسد باريس المكتنز والشاسع يمور ويضج بالحيوية وبالبهاء الدائم كفتاة من فتيات مرقص المولان روج .. وهن يرفعن تنانيرهن في رقصة (الكان كان) .. كانت باريس مرحة وقاسية مثل عجوز تتصابى .

أو هي فتاة في أوائل النضوج تكتئب من جراء الحب ، وكان سليمان مكتئباً يتفادي الصدام بالزحام. وطاقة الحياة حوله تنطلق في كل الجهات. ورغم توهانه الشارد إلاّ أن تلك اليقظة الداخلية كانت تقوده دون ان يعي هذه الأرادة الخفية . ووقف سليمان أمام باب بيت سونيا.

قرع الجرس . ظهرت سونيا وجهها أبيض . عيناها محمرتان . حاولت أن تحييه بابتسامه.. ولكن الإبتسامة ذبلت قبل ان تنفتح اكمامها. دخل سليمان . كان كتفاه مرتفعين فظهر رأسه وعنقه دون ارتفاع الكتفين . أما فكاه فقد كأنا متصلبين . وفوق جبينه تقطيبة صغيرة .. تناثرت فوقها حبات العرق صمتا صمتاً طويلاً كل مشغول بما يدور في صدره . لم يكن أحدهما ليشعر بالآخر الي جانبه . حتي لتكاد تظن ان الذي بينهما هو نوع من خصام الحب . إلاّ أنهما كانا موقنين أن الذي بينهما في صميمه ما هو إلاّ نوع من العادة . أو الإلفة .. نوع من الوصال يعبر عن خروج من الحصار والعزلة. مشاركة وجدانية .. لا ندفع فيها ثمناً باهظاً من متع الروح أو الجسد.

حينما لا نجد أنفسنا فيما بعد تحت مطالبات بالوفاء والإلتزام

بالآخر الشريك. فكانت مشاعر سليمان وسونيا تلتقي الان عند مركز دائرة التعقيدات كلها في شكلها البسيط. كما لو كانا طفلين يلعبان معاً. ومثل حيوانين أليفين تربطهما علاقة عفوية غريزية هي مواصلة القتال والدفاع عن الذات امام أخطار غامضة لا ترى. فلم يشعر سليمان بسونيا وهي تتحرك جيئة وذهاباً ولا هي عندما عادت للجلوس. وانتبه سليمان عندما وضعت سونيا قدح القهوة وشطيرة ..

.. قالت .. تبدو ذاهلاً ومجهداً !.

.. متعب جداً .

.. أهي كاترين !.

.. ليس تحديداً. هي المعضلات كلها . تأتي دفعة واحدة.

.. متى تبدأ مناقشة الدكتوراة !.

.. الأسبوع القادم .

.. وماذا عنك !.

.. خلصت من الإمتحانات . وفي غضون الأيام القليلة القادمة سيضعونني في المستشفى! انهم يشتبهون في ورم خبيث ينمو في الرحم . وفي ذات الوقت تشتبه الشرطة في الشقة . فهم يراقبون من يأتي الي هنا!.

.. أليس تلك الأشياء مسموحاً بها في كل باريس !! .. فباريس ليست مدينة عربية!.

.. هم يشتبهون في نشاط سياسي عربي سري . موجه لعاصمة عربية كبرى .

.. إذاً أنت لست ..!!.

.. لست كما ظننت .

.. لماذا إذاً سمحت لي بذاك الفعل !.
.. أنت لم تفعل شيئاً .
.. لماذا لم توضحي لي الأمر إذاً !.
.. وماذا يهم . لست مسئولة عن الافكار التي يكونها الآخرون عني.
.. أنت تخفين حقيقتك عني . ولا تطمئنين لي.
.. ها أنا اطلعك على الأمر.
.. أنت الآن لا تخافين .. لأنك ستدخلين المستشفى.
.. لست خائفة . فأنت تتكلم عن الموت كمن يلعب مع الحياة رهاناً!.. اتركني الآن جانباً..
.. ماذا ستفعل أنت !.
لا أدري!.. ولكن لدي إقتراح .. أن نعيش معاً في شقتي.
.. في مقابل ماذا؟
.. لا شيء.
.. لا شيء يأتي من لا شيء. هذا الي جانب أنك تعرض نفسك لأخطار.
.. لنقل إذاً مقابل الصحبة .. أن نتشارك الوحدة.
.. ربما يقود هذا لشيء لا يرغب فيه أحدنا. فأنا لا أحب الخديعة.
.. إذاً لتقومي أنت بأعمال البيت . فأتفرغ أنا للدكتوراة.
نهض سليمان . وقال .. إذاً لنلتقي غداً في شقتي .. واعطى سونيا عنوان الشقة.
قالت سونيا .. اتفقنا .. شركاء في السكن فقط .. دون أية

أعباء اضافية.

*

أعد سليمان شقته للعمل وللصحبة الأليفة . أشترى سريراً حديدياً اضافياً وأغطية جديدة وبعض المؤن الغذائية . أخذ حماماً وارتدى ثيابه واتجه لبيت كاترين.

وجد كاترين تجلس على مقعدها المعتاد تقرأ كتاباً. فهي هادئة على شيء من البرود. لقد كانت كاترين في الأيام الأخيرة ترى الأشياء على غير عادتها في التفكير والإنفعال. لقد غمرتها مشاعر اليأس فأصبحت قليلة المطالب. وقد كان تأثير سالم البدري عليها عميقاً وكلما ذهبت اليه كانت تجد نفسها فيما يخص سليمان.. تحافظ على الحد الأدنى المسموح لها به. كانت تخشى أن تفقد كل شيء. فكان الطمع وليس الزهد هو ما يجعلها تكتفي بأقل القليل. وهذا ما أخذ سليمان يستثمره في معالجة الأمور معها.

.. قال سليمان.. تبدين رائعة اليوم.

.. نظرت اليه .. ابتسمت .. وقالت .. مزاجي رائع اليوم كالربيع.

قال سليمان .. انتقلت الي شقتي لأعمل في الدكتوراة.

قالت .. كيف لي أن أراك!.

.. كلما كان لدي وقت جئتك.

.. وداعاً.

.. هكذا سريعاً! .. إذاً لنسهر الليلة معاً.

.. لا .. عليّ أن أشرع في العمل فوراً.

.. وداعاً.

.. الي اللقاء.

*

عرفت كاترين بغريزتها العاشقة .. ان الأمر قد قضى . وأنها لن تلحق قط بركاب سليمان في رحلته التي بدأها بقرار انفراده بحياته. وضعت الكتاب الي جانبها. الحب وهم يا كاترين .. ولكن يا كاترين .. كيف لك أن تعرفي الحقائق والأوهام. فأمور القلب متقلبة كالطقس الرديء. من أقصى درجات الحرارة.. الي أدناها تحت الصفر. ولكي نحيا.. لكي تصبح الحياة ممكنة علينا ان ننسى،

.. أن نبتعد عن متاهة اللجاجة والإلحاح على امتلاك أشياء هي مستحيلة. وكيف لك يا كاترين ان تبديء من جديد! .. أنت عجوز جداً. أقدم من برج إيفل ومن كنيسة نوتردام. أقدم من اللوفر.

.. فصغار السن وحدهم هم الذين بأمكانهم أن يبدأوا من جديد. أغرورقت عينا كاترين. فالنسيان مستحيل .. والإستمرار مستحيل. ونهضت كاترين .. ولم يكن أمامها إلاّ سالم البدري .. تزينت وارتدت ثوباً مورداً ربيعياً .. وانطلقت سيارتها ودخلت الحي اللاتيني.

*

انتقلت سونيا الي شقة سليمان. ومن يراهما يظن أنهما زوجان متفاهمان. يعيشان هنا منذ زمن طويل. أعدت سونيا العشاء. جلسا يأكلان .. واضواء ليل باريس الصاخبة تتسلل عبر زجاج نافذة الصالة. كانت باريس كلها تحتهما . أضواء متناثرة كنجوم السماء .. وهما صامتان في وحدتهما .. متحرران من أي مطالب مشتركة .. تربطهما عاطفة حارة وغير إنسانية .. هي مثل علاقة الشجرة بالشجرة .. مثل

وجود النجمة الي جانب النجمة. مثل الورود البرية .. علاقة يسيطر عليها قانون الطبيعة، الذي يصنع خوف الفئران من القطط. ومن هذا البعد العالي كانا ينظران لألامهما ولألام الآخرين. لم يشعرا بأنهما كانا قاسيين .. حينما حولا ذاتيهما الي حيوانين .. أو نصف إلهين !! وبعد أن أنهيا عشاءهما .. وانفرد كل بنفسه .. هاماً بالنوم . كان كل منهما يدرك بأن الألفة والحب والجنس والكره .. هي ورود لا تنمو في هذه التربة الطباشيرية القاحلة . أنها روابط إنسانية تنمو وتزهر وتثمر في تربة أخرى. هي المشاركة العميقة. وعندما إنتصف الليل، أحاطت بهما أحلام واشواق مبهمة تبحث طوال الليل الي من تتوجه اليه.

فكانت الأشياء تأتي أرقاماً واحصاءات ونظريات في التنمية الإقتصادية والإجتماعية. كان عقل سليمان مشغولاً بمشروع إستثمار الحقل البترولي في المنطقة الإستوائية في بلده. وكيفية تمويل هذا المشروع. إذ حاولت بيوت أموال أجنبيه تمويله. وتنافست جهات عدة على التمويل لتحقيق الأرباح ولتسيطر سياسياً على المقدرات الوطنية والقومية لبلده وتديرها باتجاه الغرب. وكان سليمان يفكر بشكل يربط بين الظواهر بشكل محدد بعلوم الرياضيات وارتكازاً على ارتباطات التتالي الرقمي لعلاقات الشيء بالشيء فكان منهجه في الدراسة لا يربط بين الجمال والاخلاق .. كان يعزل السياسة عن الإقتصاد .. كان جمالياً محضاً . ولهذا كان طعماً سهلاً لتلك الجهات. لم يكن سليمان الاّ ضائعاً تحت آليات حضارة الغرب حينما تتحرك الأشياء بواسطة الحاسوب الإلكتروني .. أما سونيا فقد أنكرت نفسها .. وجعلت الأشياء مجردات .. فلم تكسب شيئاً سوى أفكار مجردة عن الثورة السياسية والإجتماعية ..

كانت سونيا تقول لسليمان .. إن نكبة الشعب العربي .. هي أنه شعب شاعر وعاشق .. فالحب والثورة والشعر أشياء تختلط عنده .

وقال سليمان .. كيف إذاً .. نعرف الحدود بين الشيء والشيء؟ .. أهو الحد المادي .. أم هو الحد الصوفي !.

لقد انقضى الليل وهما يتحدثان بهذه الطريقة!..

*

جلجل صوت جرس الباب . تدفق الصوت بالنغم كما لو كان صادراً من مفاتيح بيانو .. عند مفاتيح السلم الأدنى وامتلأت الشقة بالرنين الموسيقي . صمت الجرس . وأزّت النار في حطب المدفأة .. وكان الضوء خافتاً تحجبه عن التدفق الستائر الجوخ الثقيلة. وكان سالم البدري يجلس على مكتبه يعمل في مخطوطة روائية جديدة . فتح سالم البدري الباب .. فكان وجهاً لوجه مع كاترين. صمتا .. ولم تكن كاترين لتعرف لماذا جاءت . ولم يكن سالم البدري ليعرف لماذا كان يتوقع مجيئها .. رغم أنه كان ينتظرها. جلسا على مقعدين متجاورين .

قالت كاترين وهي تنظر الي اكوام الورق على مكتب سالم البدري ..

..أهي رواية جديدة !.

..أومأ سالم برأسه موافقاً .

عن أي شيء تتكلم الرواية !.. وما هو عنوانها!.

عنوانها ... (الآن وأمس .. والمكان) .. تتكلم عن طبيعة معرفتنا للأشياء. حينما نضع ذات الشيء في أزمنة مختلفة .. وامكنة مختلفة .. فهل يظل الشيء هو ذات الشيء دائماً . وما الذي يتغير !..

نحن أم الأشياء !.

قالت كاترين .. ولكننا نقتل الأشياء عندما نعرفها .

قال سالم .. بالضبط .

قالت كاترين .. ولكن لماذا!.

لأننا حين نعرفها نمنع قدرة التحول فيها. ولهذا نحن نعيد تكرارها.

كيف ؟.

نخضع الأشياء حينئذ لقانون السبب والنتيجة . ومن ثم تكف الأشياء عن الإنفلات عن هذا المسار . فالذي نعرفه لا يفاجئنا.

.. رن جرس الباب .. ثم دخل ثلاثة أشخاص .. عرفهم سالم بكاترين كان أحدهم شاعراً والثاني ناقداً أدبياً انجليزياً بدار نشر لندنية كبرى . و رئيس تحرير دار النشر منشورات غليمار بباريس .

انصرفت كاترين بعد دخول هؤلاء الأشخاص .. فتوجهت الي بيت سليمان . دخلت كاترين وسط دهشة سونيا وسليمان . جلست كاترين في هدوء ودود .. بون سوار .. بون سوار..

أتيت لأدعوكما لحفل تنكري . أقيمه ليلة غد . نوع من اللهو. بوفيه مفتوح. احضرا في الثامنة مساء . على أن يحضر كل منكما قناعاً.

استرخت كاترين في جلستها . ولكن سليمان وسونيا كانا موقنين أن مجيئها يرمي لتجريحهما فهي قطعاً تظن أن بينهما علاقة جسدية سرية . ولكن كاترين كانت تشعر نحوهما بمودة لقد أحبت ذات الأشخاص الذين أحبهم سليمان. هذا الي جانب أنها كانت

تخشى الخصام الذي قد يفقدها سليمان.

قال سليمان .. وهو ينظر الي سونيا طالباً منها أن توافق بدورها .. سوف نأتي معاً أتفقنا.

.. وعم صمت كثيف.

.. قالت كاترين .. ما لكما واجمان.

.. قالت سونيا .. نخشى سوء فهم الذي بيني وبين سليمان. فنحن هنا لأغراض عملية.

.. قالت كاترين .. للعلاقات تبريراتها . والمشكلة سعة أفق هذا التبرير! كأن تشمل العلاقة بين الأثنين الآخرين أيضاً .. كأمتداد لهذه العلاقة .

قال سليمان .. لقد إطلعت على تعليقك حول بحثي حول التنمية الأقتصادية في العالم الثالث .. فأنت تخلطين بين الأقتصاد والشعر .

قالت كاترين .. بحثك تنقصه الروح الإنسانية .. فهو ينصب على البنية المادية. فماذا تفعل بهؤلاء الناس بعد ان تغير الأشياء حولهم .. الأفضل أن تتركهم في حالهم مادمت لا تستطيع أن تغير دواخلهم.

قالت سونيا .. إن نغير دواخلهم .. يعني أن نغير البنية الإقتصادية والسياسية.

قالت كاترين .. الأمر ليس بهذه البساطة.

نهضت كاترين .. وقالت .. أورفوار .. سنلتقي إذاً ليلة الغد.

*

أخذ طقس باريس في الإعتدال . إذ لاحت بوادر الربيع . أنبت الشجر أوراقه الجديدة .. وتجمعت السحب في كتل .. كانت تحلق في

إنخفاض . والريح الهنية تدفعها الي الجنوب. وأحياناً تظهر زرقة السماء .. فخلع الرجال قبعاتهم ، وارتدت النساء أثواباً قصيرة موردة. وفي قاعة السوربون نوقشت رسالة سليمان لنيل الدكتوراة . وبعد أسبوع تنافست الشركات المالية على مشروعه البترولي.

أمتلأت عينا كاترين بالدموع . وتخلفت سونيا . التي تسبب عدم حضورها في قلق سليمان.

وعندما إنتهت المناقشة اعتذر سليمان لكاترين عن الذهاب معها. فكان يخشى أن يكون شيء سيء قد وقع لسونيا . فذهب سليمان لشقتها القديمة .. ولشقته .. فلم يجدها. وكانت دوائر الشرطة مقلوبة عقب الأنباء التي وردت من الشرق الأوسط ، والتي أعلنت عن إغتيال أحد الزعماء العرب الساعين للصلح مع أسرائيل . وأدرك سليمان سبب إختفاء سونيا .

في السابعة والنصف مدت الموائد في البهو الكبير في بيت كاترين . زين البهو الكبير بشجيرات ذات خضرة . وركبت مصابيح كهربائية ذات أضواء ملونة . وعند الثامنة وقفت كاترين بصحبة فرانسواز ومارسيل يستقبلون الضيوف.

وجاء المدعوون .. يرتدون أقنعة ملونة . عزفت الموسيقى . وأخذ المدعوون يرقصون في أقنعتهم المختلفة الألوان والأشكال . ماعدا ثلاثة منهم كانوا يرتدون ذات القناع. مما أدخل على هذه اللعبة التنكرية تسلية مضاعفة. فلم يتدخل أحد في تغير مجرى الأمور التي قد تذهب الي جهة الكوميدي أو جهة التراجيدي. فليست هناك خسارة تذكر.

شع البهو بالضياء. وصدح بالموسيقى وماج بالحركة. انسابت الأجساد مع الايقاع. وكان اللهو والمرح يغمر صدورهم جميعا.

وعندما تذكرت كاترين فكتور انقبض قلبها. ولكنها تناسته وأنسابت روحها في اللحظة الراهنة . وتدفقت مشاعرها كتدفق هذه الأنغام . فمن الممكن ان يحيا الناس بلا خوف ان هم استطاعوا النسيان!.. وارتفعت الضحكات مجلجلة .. وشاع حبور بين المدعوين . وكانوا يتخفون عن انفسهم بمثلما كانوا يتخفون عن الآخرين.

.. وقال فرانسواز وهي تهمس في أذن مارسيل .. ألم تلاحظ شيئا!.

.. قال مارسيل .. لا .. شيء مثل ماذا!.

.. قالت فرانسواز .. هناك ثلاثة أقنعة متشابهة!.

.. من هم !.

.. قالت فرانسواز .. لا أدري!.

.. قال مارسيل .. هذا لا يغير شيئاً.

.. قالت فرانسواز .. حقاً .. فهو لهو لا غير.

*

أستمرت الموسيقى والضياء يتدفقان . والمدعوون منهمكون في مرحهم المتنكر. ومن بينهم تسلل أحدهم . على جهة قناع وجه نمر . لحق به آخر له نفس وجه النمر . وبعد وقت قصير لحق بهم في الخفاء وجه النمر الثالث !.

وتحت السلالم الخلفية .. في هذه الرقعة الضيقة المظلمة .. التقى الوجهان القناعان.. انفاس حارة .. ووعي تدفق عبر البدن أقصى ونقي كل ما حوله وأخذ الوعي البدني يستعيد زماناً من التوق والوهم الضائع . ودار الجسدان .. رقصا .. حلقا .. وهمس الصوت .. «تماماً كما تصورتك .. جميلا .. قوياً .. ناعماً .. يا للجمال !» .. ودخل

الظل وصارا كتلة من الليل.

ومن مكان ما .. هنا خلف السلم الخلفي مباشرة .. كان القناع الثالث يبكي ، في صوت مكتوم .

*

ثم تسلل القناع الأول ودخل البهو وذاب كالظل في الضوء . ثم جاء الثاني وتلاشى.. أما القناع الثالث فلم يظهر حتي نهاية الحفل . عند بداية الفجر إنتهي الحفل التنكرى . وذهب الجميع وتفرقوا في شوارع باريس .

استيقظت فرانسواز عند الظهر. كاد الصداع ينصف رأسها . فكانت مكتئبة. لقد حلمت احلاماً قاسية. لم تترك وراء ها إلاّ هذا الشعور الضجر حينما تنحل علاقتك بنفسك وبمن هم حولك. جلست وسط سريرها وتناولت افطارها وهي شاردة العقل.

.. ترى من هم هؤلاء الأقنعة الثلاثة ؟

.. ترى .. أهي كاترين !.. سونيا ! .. سليمان ! .. أم اكون أنا ايضاً دون أن أعي ذاتي !.

.. وراقت اللعبة لفرانسواز. ولكنها أبعدت نفسها . قفزت من سريرها. مشطت شعرها .

.. ابدلت ثوبها .. واندفعت نحو الشرفة .. وذاك عندما تناهي اليها صوت سليمان .

*

وكان سليمان وكاترين ومارسيل يجلسون عند الشرفة الزجاجية المطلة على نهر السين. ينسكب حولهم ضوء اباجورة أصفر مخلوط بلون غطاء الاباجورة الرمادي مما يعطي شعوراً ببداية المساء.

وكان سطح السين ينكسر موجات صغيرة تلعب في مداعبة هينة. فتنساب موجة صغيرة ، فتلحق بها اخرى وتمسك بها من ذيلها . ثم تذوب الموجة في الموجة ، في حركة مستمرة وتشترك الاضواء في هذا اللهو . فلا تملك إلاّ أن تتراقص فتتحول في لهوها البديع الي نجوم ، ثم الي بروق كهربائية تتفرق كالشرارات ذات الذيول الزرقاء والخضراء . وتنغرس حادة الرؤوس في لحم الماء الرجراج المكتنز . وتتراجع لتصعد الي أعلا ضياء أبيض مغسولاً بالماء والزبد. تصعد مهتاجة ومستثارة. وكانت فرانسواز تنظر للسين تارة وتنظر لسليمان تارة. ونظرت لوجه سليمان .. العينين.. ثم الشفتين . وانتبهت للحديث الذي يدور.

إذ قال مارسيل يخاطب سليمان .. ماذا عن تلك الأقنعة في افريقيا .. وامريكا الجنوبية !.

قالت فرانسواز .. في الحضارات البدائية هي محض زينة !.

قال سليمان .. انهم يتجملون .. ويختبئون امام الخطر ليدرؤنه.

قالت كاترين .. يقول المكسيكي (باث) .. ان الحب عيد يجعلنا سكرى مما يؤدي لأن نتفتح على الآخر . ومن ثم نخضع له . اما عندما نتخفى فاننا نخفي الجرح (الحب) .. نخفي هذا الجرح الحي والدائم الإشتعال تحت شمس النظرة الداخلية .

قالت فرانسواز .. ولكن الخطيئة تولد شعوراً بالوحدة.

قال سليمان .. ومن الوحدة يأتي شعور عميق بالذات .. بالأنا!.

قالت كاترين .. الوحدة تولد الشعور بالتيتم .. فيأتي الشعور بالذنب.

قال مارسيل .. فالتكفير .. الإنتحار مثلاً هو نهاية الأغتراب.

قالت فرانسواز .. التضحية هي المنفذ.

قال سليمان .. اللامنتمون والغرباء .. يرفضون مجتمعاتهم كما يرفضون المجتمعات الجديدة التي يدخلون فيها . فعندما يتخفون فذلك لجذب الفريسة التي هي الصياد .. فهم يضعون أنفسهم في وضع المطارد والمطاردة تخلصهم من وحدتهم.

التفت سليمان نحو كاترين وقال أليس هذا ما جاء عند آكتافيو باث!.

قالت كاترين .. بلى . واضافت .. نحن وحيدون لأننا مختلفون !.

قال سليمان .. الإنسان وحيد في كل أنحاء العالم .. أنها وحدة تمثل شرقنا الأنساني الكوني.

*

تزينت كاترين في افراط. لدرجة أثارت شكوك سليمان عن طبيعة العلاقة بينها وبين سالم البدري. ولكنه لم يبد شيئا من شكوكه .. ووضعت كاترين فوق كتفيها معطف الفراء. فكان رأس الثعلب ينام فوق صدر كاترين تبرق عيناه وتلتقي بعيني سليمان .. فتوهم سليمان بأنها تقولان شيئاً غامضاً .

وانطلقت سيارة كاترين لشقة سالم البدري التي انتقل اليها منذ أسبوع. وهي أكثر اتساعاً وتقع في حي سان جيرمان. وبما أنها تشمل الطابق الأخير كله فقد جعل سالم البدري سطوح هذه البناية الجديدة حديقة يانعة كحدائق بابل المعلقة . ووسط هذه الشقة الشاسعة كان سالم البدري يشعر شعوراً عميقاً بالعزلة. وداخل هذه الحديقة البابلية

.. أعد سالم مأدبة العشاء لضيفيه سليمان وكاترين . وكانت هذه هي المرة الأولى التي سيلتقي فيها بسليمان.

كانت باريس تبدو من هذا العلو امواجاً من الضوء .. نوافذ مضاءة .. نوافذ مظلمة.. واصوات تنبعث عالية .. واضحة حيناً ومختلطة .. مغنية وباكية .. غاضبة ومرحة .. فكان صخب الحياة الفوار يعكس حقيقة صلبة .. تنوع الحياة وتيه الرجل عندما يجد نفسه وحيداً.

لم تكن وحدة وعزلة سالم البدري ناتجة بسبب حضاري .. ذاك الذي يسمونه دائماً بصراع الأنا والآخر .. حينما تتعارك الحضارات

لتثبت كل أهليتها في التفوق . جاء البدري مصطفى من مورتانيا وتزوج فتاة من أسطامبول ولدت له سالم البدري .. وبعد أن اكمل سالم الباكالوريا عمل في الصحافة الأدبية .. وانطلق كالصاروخ فنالت روايته الأولى جائزة البولتزر فتأكدت مكانته الفنية . كما ثبتت الخط الروائي العام الذي مثل عالم سالم البدري . فهي طقس للوحدة والعزلة المضاعفة . فطوال زواج سالم البدري .. لم يعرف طبيعة عاطفته تجاه هذه الزوجة . ولكنها عندما نقلت الي مستشفى الولادة .. كان سالم يقف عند رأسها .. وكانت حالتها الصحية تتفاقم .. لقد أصيبت بنزيف حاد .. فكانت تذبل في بطء .. ويد سالم تضغط على يدها .. كان يخشى أن يفقدها فجأة .. ابتسمت له .. كانت تريد أن تقول شيئاً .. وماتت الإبتسامة تدريجياً.

وفي تلك اللحظة عرف سالم أنه يحبها كان يحب هذه المرأة النحيلة طول الوقت .. ولكن الوقت قد ضاع لكي يقول لها .. أنه يحبها. وفي غمرة هذه الأحزان جاء سليمان وكاترين . جلسوا حول

المائدة حيث الشموع تتراقص بالضوء الشاحب . كانوا يتحدثون.. وكان حاجز ما يقف دون حميمية وصدق الحديث .. فكان الكلام يستخدمهم دون أن يفلحوا في أن يستخدموه .. وكان سليمان يحدث نفسه «ترى .. لأنهما يحبان بعضهما» .. أما كاترين فقد عرفت بشكل خفي .. ان سالم البدري قد جعلها هي وسليمان مادة لروايته التي يكتبها الآن . وعندما إنتهي العشاء وهمّ سليمان وكاترين بالذهاب .. جدد سالم البدري دعوة أخرى . وكان شديد الإصرار على حضورهما معا !.

وصل سليمان وكاترين . أُضيئت الصالة . خلعت كاترين معطفها الفراء . وكان سليمان يمتليء برغبة محمومة أن يظل الي جانب كاترين لأطول وقت .. لقد عرف انها الأن تبعد عنه وتقترب من سالم البدري .. نوع من احترام الذات كان يدفعه للنزال .. ورن جرس الهاتف . ورفعت كاترين السماعة .

نعم .. نعم هو موجود.

اعطت كاترين سماعة الهاتف لسليمان .

نعم . ماذا ! .. متي ! .. سوف أحضر سريعا .

قالت كاترين .. ماذا حدث !.

قال سليمان .. سونيا تواجه متاعب.

قالت كاترين .. سأذهب معك .

*

وفي الطريق .. كانت كاترين متوترة الأعصاب . كمن يتوقع أمراً سيئاً.

.. قالت .. ما الامر بالضبط ؟

.. قال سليمان .. سونيا عند الشرطة الأمنية . ولا بد من أخراجها بالضمان المالي!.

قالت كاترين .. أهو نشاط سياسي معادي لحكومة بلدها ؟

.. قال سليمان .. الأمر متعلق بإغتيال ذلك الزعيم العربي المتصالح مع اسرائيل .

.. قالت كاترين .. هي إذاً عضو في تلك المنظمات !.

.. قال سليمان .. نعم !.

*

عندما وصلا مبنى الشرطة . وجدا سيارة إسعاف طبي ، تقف أمام المبنى . وعرفا من الضابط المسئول أنهم ينقلونها الي المستشفى بسبب حالتها الصحية المتفاقمة الخطورة.

.. قالت كاترين في جزع .. ماذا حدث لها !.

.. قال سليمان .. أنها تعاني من أورام خبيثة في مراحلها الأخيرة !.

*

لاحقت سيارة كاترين سيارة الإسعاف . وضعوها في سرعة كبيرة في غرفة الإنعاش المركز . وكانت سونيا قد دخلت في غيبوبة كاملة . وفي صالة الإنتظار جلس سليمان وكاترين يتصفحان الصحف الصادرة أول المساء .. وكانت تتحدث عن الإمساك بخلية سرية من الإرهابيين العرب . الذين دبروا إغتيال الزعيم العربي الصديق . وأن من بينهم فتاة واحدة . وأن الشرطة الأمنية استطاعت أن تسيطر على كل القصة . ومن المتوقع أن يقدم الجناة للمحاكمة القضائية بعد شفاء الفتاة التي هي تحت العلاج الطبي الآن . وبعد مضي ثلاث

ساعات إنصرفت كاترين وتركت سليمان في رفقة سونيا.

من خلف زجاج غرفة الأنعاش .. كان سليمان يراقب سونيا . كانت أحوالها الصحية متقلبة . كان وجهها شاحباً مسترخياً وخدراً بالنوم والغيبوبة . ثم يزحف الألم الشديد الوطأة وينتشر كالليل في بطء . ويسحق عظامها . بعد أن كان قد هتك كل نسيج خلايا الحياة المتدفقة في الشرايين الدقيقة .

.. فكانت خيوط الدم الصغيرة التي تربط بالخلية .. وتصل البروتونات بدورتها الدائرية الكاملة تصاب بالعطل والفشل . والألم يسحق الجسد سحقاً . وتفرد سونيا جسدها .. تحاول جاهدة مقاومة الألم . ولكن الألم كان يجمعها ويطويها طياً . وفي لحظة الإشراق التي تسبق الموت .. فتحت سونيا عينيها . وامتلأ عقلها لحين بطقس صحو جاء بعد اكفهرار . وفي صوت هامس طلبت من الممرضة أن ترى ذاك الرجل الذي يقف خلف الزجاج .

أمسك سليمان بيدها الدافئة بسبب تأثير الحمى . وشعر بأنها كلها تنبض هاهنا بين راحتي يديه . رفعت رأسها اليه . وكان الشعر الأسود المسترسل يحيط بوجهها . أشرقت عيناها ببريق وامض سريع.

.. قالت .. شكراً لك .. لقد منحتني تلك الليلة كل شيء . لقد كانت هي المرة الاولى.. وهي أيضاً المرة الاخيرة. وكنت أعرف أنني لن أحيا . قطب سليمان وجهه .. رأت سونيا هذه الدهشة . لعله يخالها تهذي .. أو لعله قد نسي . قالت سونيا .. أنسيت هكذا سريعاً .. تلك الليلة .. الحفل التنكري في بيت كاترين ! .

.. لقد عرفت أنه أنت .. رغم القناع .. عرف جسدي أنه أنت .. وما تزال ذاكرتي التي توهن وتنطفيء تحتفظ بك .

.. قال سليمان .. نعم .. إنه أنا .. ذاك .. نعم .. تلك الليلة .. كنا بلا أقنعة .

.. قالت سونيا .. أشعر براحة عميقة .. أنه إذاً أنت ! .. وفي هدوء سقطت يد سونيا التي كانت تقبض على يد سليمان .. ماتت سونيا وهي تعانق ذاك الظل .

*

بعد أسبوع من موت سونيا .. كان سليمان واقعاً تحت تأثير هذه الضربة . لم يستطع أن يستوعب هذا الموت . موت إنسان عزيز .. لم نكن نقدره بما يكفي عندما كان بيننا .. وها هو الفقد يظهر لنا الأنسان والشعور القوي بهذا العزيز . لقد كان الحب متخفياً .. وهاهو ينكشف بعد فوات الأوان.

وفي الأيام الكثيرة .. وفي الليالي الكثيرة كان سليمان يفكر في ما قالته سونيا قبل موتها بدقائق قليلة .. فكان يتساءل .. ترى من يكون ذاك الرجل الذي تتحدث عنه سونيا!.. أحقاً أنا ! لقد كنت واقعاً تحت تأثير الكحول ! .. لقد صنعت سونيا وهمها .. وادخلته في موتها . فأصبح الوهم حقيقة من حقائق حياتها وموتها . أما أوهامي الخاصة فما زال ضوء النهار وجريان الحياة الفوار يبددانها.

*

وفي حفل الإستقبال الذي أقامته دار غليمار بمناسبة صدور رواية سالم البدري الجديدة .. كان سليمان يقف الي جانب فرانسواز .. وهناك كانت كاترين تمسك بيد سالم البدري . وكان الحضور من المثقفين وأهل الأدب والفن .. قد توزعوا الي جماعات وأخذوا يتحدثون عن الرواية حديثاً فنياً متخصصاً .

.. قال سليمان بدافع من الحسد والغيرة التي تأكل صدره .. لست أدري لماذا ..أو يبدو لي كل هذا كحفل تنكري .. كل يخفي حقيقته .. كلنا .. حتي مؤلفنا العظيم ! .. ولكننا نتسلى .. ألسنا نقرأ الروايات لهذا الغرض ! .. ان متاهة التخفى والوهم .. بقدر ما هي خطيرة .. إلاّ أنها مسلية جداً .

وارتعبت فرانسواز .. وقالت .. ولكن تظل هناك حقائق .. فهناك دائماً الشيء وظل الشيء . علينا الاّ نخلط بين الشيئين !.

.. قال سليمان .. ربما !.

.. قالت فرانسواز .. الأمر ببساطة هو أننا بمقدار ما نتخفى عن أنفسنا فأننا نتخفى عن الآخرين .

.. قال سليمان .. ولكن بالمثل فأن الآخرين يخفوننا !.

.. قالت فرانسواز .. أنت تتكلم عن وضعك مع كاترين . تلك القصة البائسة !.

.. قال سليمان .. حقاً أنها لمتاهة !.

.. قالت فرانسواز .. كيف تفعل للخروج منها ! .. أم هي قصة مسلية يحلو لك إن تكون فيها مطارداً لتثبت وتأكد وحدتك ومن ثم تأكد هويتك وكينونتك !.

.. قال سليمان .. لست عجولاً على أمر الحسم . فسوف تحل هذه القصة نفسها بنفسها . وما أنا إلاّ شخص من الشخوص الوهمية التي صنعتها كاترين . فعليها هي أن تصل الي حلول تناسبها .

.. قالت فرانسواز .. لقد بلغ بك التخفي مداه . فحتي أنا لا أستطيع أن أجدك .

.. قال سليمان .. لا وقت للدخول في أحلام الآخرين مرة

أخرى . ربما أعود الي بلدي لأفعل أشياء أكثر جدوى . اني شديد الأسف على توضيح الموقف بشكل ربما يكون جارحاً لمن يطالبني بأن أكون شريكاً في قصة لا أري نفسي بطلاً لها !.

*

انضمت مجموعة الي سالم وكاترين . ودار الحديث عن الرواية وقد انصب الحديث عن مضمونها وطريقة كتابتها . وكان الجدل بين نقاد الرواية حاداً يذهب حيناً لأقصي درجات الذم وحيناً يصل للمدح.

وشعر سالم بضيق . جذب كاترين من يدها واستأذن من هذه الجماعة .. وقال .. ان مهمتي قد انتهت بكتابة الرواية .. ولكم أن تروها بالطريقة التي ترون .

وفي طريق العودة .. أخذت كاترين سالماً .. وفي طريقهما لسان جيرمان .. قالت كاترين .. هل هؤلاء الأشخاص الذين يتحركون في روايتك .. هم نحن .. نحن كلنا! ضحك سالم .. وقال .. أنا لا اكتب عن الواقع .. لا أكتب عن هذا العالم كما هو في شكله الظاهري ..

.. قالت كاترين .. انني فقط أشعر بالخوف .. من كل هذه النهايات كما لو أنها توقعات عراف أو قس .

.. هذا كل ما في الأمر ! .. وأضافت في صوت مضطرب .. ترى هل ستصح هذه التوقعات .

.. قال سالم .. رواية (الآن وأمس .. المكان) تتبع خطاً رئيسياً .. هو طاقة التحول التي تكمن داخل تكوين الأشياء . فالتطابق بين الروايات والواقع كوقائع تعتمد على ضربة لاذب .. على الحظ ..

فالكاتب موضوع أمام وضعين .. الخيال الفّعال .. أو الوهم المضلل ..
فرغم ان شخصيات الرواية كشخصيات حية .. إلاّ انها ليست هي ..
هي والتي تعرفين ! .. واضاف سالم البدري .. أتعرفين يا كاترين ..
لقد أحببتك جداً .. وكنت أعرف أنك تحبين شخصاً آخر . فما كان
يمكن إذاً ان أحرف مسار التحول الكامن فيك. وهكذا أيضاً اكتب
رواياتي .. هكذا كتبت رواية (الآن وأمس .. المكان)..

لم يكن سليمان يريد ان يرى حقيقة بسيطة وواضحة . هي أن
كاترين قد اندفعت نحو سالم البدري بسبب يأسها منه .. من حب
سليمان لها . لقد فهمت من كل ذلك ان سليمان يريدها صديقة .
ولكن صدر سليمان يمتليء بالغيظ . فكان هذا الحب الكاره يدفع به
في فضاء واسع ويبعثر روحه كيفما كان . ترك سليمان فرانسواز عند
بوابة دار نشر غليمار . واتجه نحو حي سان جيرمان . وفي طريقه
وجد مسرح الكورسال يعرض مسرحية صمويل بكيت .. في انتظار
جودو . فغمره شعور بالإستخفاف . وفي التوقفّ عن مطاردة كاترين
حينما نوى أن يلحق بها في بيت سالم البدري . وبعد أن انحرف عن
وجهته وجد نفسه أمام مرقص المولان روج .. مع بداية زمن العرض .
وعندما وقف ليشتري تذكرة الدخول .. كانت مراوح الطاحونة
الهوائية تدور وتتدفق بالأضواء الملونة. جلس على مقعده .. وعلى
المسرح ظهرت فتاة صغيرة .. تغني بصوت مبحوح على طريقة
جوزفين بيكر .. كما تقول ملصقات الدعاية .. وتتزيأ بأزياء المغنية
الوجودية جوليت جيريكو .. فكانت الفتاة تنال إعجاب العجائز الذين
كانوا يوماً شباب ذاك الزمان. لقد كان سليمان مأخوذاً بالفتاة لأسباب
أخرى .. فهي تعيد له زماناً ضائعاً .. هي امتداد وبعث حي .. لراقية

سليم .. لا .. هي .. هي سونيا تبعث للحياة. وبانتهاء الأغنية ذهب سليمان لكواليس المسرح . قدم نفسه للفتاة .. وطلب أن تقبل دعوته للعشاء .. فحددا مساء غد موعداً بفندق فرساي .

*

بدأ الطقس في التحول من الشتاء للصيف .. فخلعت باريس معاطف الفراء والصوف.. ورفعت الستائر الثقيلة فحلت محلها ستائر قطنية وحريرية .. والتمعت أشعة الشمس وأنجم سماء الليل الصافي .. وترنمت باريس بالأغاني المرحة وفي حدائق التوليري وساحات الكونكورد حلقت الحمائم البيضاء والرمادية في طيرانها الأنيس .. وساقطت الأشجار أوراقها القديمة وأخذت في الإخضرار .. وامتلأت الشوارع بالأوراق الذابلة التي اجتهدت البلدية بنظافتها .. وظهرت براعم وورود الصيف الآخذ في النضج.

عند بداية هذه الليلة الصيفية كان سليمان يعمل في مشروعه البترولي والأوراق واكواب القهوة وعلب السجائر تعم المكان . وعند منتصف الليل ترك كل شيء . إتجه سليمان نحو مترو الأنفاق .. فكانت الساعة في مدخل النفق تشير للثانية صباحاً . جلس قرب النافذة الزجاجية .. وانطلق المترو نحو الريف . مرّ على ظلمات .. وأنوار .. وأرقام كبيرة بيضاء تتراجع للوراء،، وكان النفق يتلوي .. وهناك في نهايته غير المحددة تتكور نقطة ضوء .. تتشتت النقطة وتتشظى الي خيوط من الضوء الأخضر والأزرق الأوراق . ولاحت لسليمان حياته التي عاشها .. الماضي والحاضر .. مثل هذا النفق المظلم الممتليء بالارقام الفسفورية العاكسة للبريق . وهناك عند مخرج النفق هذا الضوء .. يتراقص مثل وعد بحياة حقيقية .. تلك الحياة الصميمية

البسيطة التي يمكن أن تعاش . وانطلق المترو يتلوي .. ثم يمر كالسهم . يدور هنا ويستقيم هناك. وتحت العيون المثقلة بالنعاس كانت أم درمان تجيء في الثانية صباحاً .. مسافرة على مقعد في مترو الأنفاق في الثانية صباحاً بتوقيت باريس المحلي. تجيء راقية سليم مغطاة بثوب السراب مكسوة بماء النسيان . تلوح سحابة فوق ضباب الذاكرة الواهن . راقية سليم .. أمرأة في الستين .. جسد كالمدن القديمة وروح مراهقة كالثمر الطالع .. فهي تمشي في طرقات ام درمان مكشوفة في عريها الجارح.

ويبلغ استفزاز الحياء أشده ، فيرمي الحياء عليها الأغطية فتستدفيء روحها . كانت راقية ضحية صراع روحها وجسدها معاً . فكانت كمن لو يستشهد ، حينما تحول المجرد الي محسوس . فكان تعلقها بالحياة ما بين الرفض والقبول يجعل جسدها يشتعل بهذا الوجد الصوفي .. فكان الجسد ينفعل ليثبت الحياة ضد الموت عن طريق الموت ذاته. فصعدت روح راقية عبر أفناء الجسد . فكان هذا الوجد الأيروسي خليطاً من حب الحقائق العليا وحب الذات ، فأصبحت الذات جسراً للوصول لتلك السماوات.

وفي الصباح قبل الطابور المدرسي . كنت أقف خلف السياج الذي يسور مدرسة بيت الأمانة. وجاءت راقية سليم . وقفت خلف السور وجهها قرب وجهي . وأنفاسها العاشقة الحارة تملأ خياشيمي.

ولم أنظر لعريها قط. وتوهجت تلكما العينان .. عينان واسعتان تتموجان بكل الألوان كقوس قزح. وتشرقان كشمسين في سماء الذهول والجنون . هما صخب الحياة حينما يتدفق من النبع . هي الحياة حينما تعبر عنها الغرائز الدنيا في سلم التطور الحضاري. فأصاب ضجيج الرغبة عقلها بالعطب . ومن ثم افلحت حياتها القاسية الخشنة

من تدمير قوانين النظام فانطلقت أعاصير الفوضى فلم يكن أمامها إلاّ ان تجن بفعل أرادتها الخفية . وتتعلق بي العينان .. وتمتلأن.

كانت راقية سليم عرياً محضاً مثل حقيقة كونية . عينان هاجستان بعناق الجمال. فكانت لا ترى وجهي .. بل كانت تري وجهاً آخر لا مرئياً .. وجهاً عجيباً هو وجه الحياة ووجه الموت معاً . فكانت روحها البريئة تحلق بين تخوم الطهر والدنس . ودنت فمها .. ومثل عصفورين كان كل منا يدخل منقاره في منقار الآخر . وكانت هي تلك المرة الأولى التي يتعرف فيها جسدي على الأشياء.

كان فمها وردة تتفتح في النسيان . وأخذت الوردة تدنو . والتقى الفمان . ودخلا في عمق اللجة واصطدمت الأسنان بالأسنان وعصفت الحياة بالكيانين .. وأمام هذا المطر المنهمر من سماواته الداخلية .. طال الزمن كالأبدية .. وفجأة خلف الحاجز تم كل شيء .. ومشت راقية . التفتت الي الوراء . أومضت عيناها بالعرفان . وما زلت احتفظ بطعم فمها الذي له طعم القرنفل . وبعينيها اللتين هما الحزن ذاته !.

كان مترو النفق يجري . والآن وامس والمكان كلها تجري . هنا .. وهناك. وكاترين أمام صعوبات حياتها المعقدة . إذ أن فرانسواز تريد ان تدخلها مصحة عقلية لتدرأ طيشها وعشقها اللامجدي. ومارسيل قرر الهجرة . ولكن راقية سليم تظل خارج السباق كله . فهي زمان لا يندغم في إيقاعات الزمان الآن . أما أنا فلا شيء البته !.

وتوقف المترو في النفق . ووصلنا المحطة الأخيرة .. بوردو .. وهي مدينة ريفية .. هي عبارة عن فيلات صغيرة ذات سقوف من القرميد الرمادي .. ذات سياجات من الحديد المطلي باللون الأسود

تحيط بها أشجار ذات خضرة داكنة .. وتتسلق أشجار العنب حتي النوافذ محملة بالعناقيد الحمراء والبنفسجية والزرقاء . وتحيط كتل الثلوج بالسياجات وهي تذوب بحرارة الصيف . تبدو بوردو زاهية وسعيدة .. نوافذها مشرعة مسدولة الستائر .. والمكان نظيف مغسول وجيد الأنارة .

وفي طريقي دخلت في شارع ذي أشجار ضخمة داكنة الظلال. على يسار الشارع تقع فيلا تريزا . وهو بيت ريفي مكون من طابق واحد . له نوافذ زجاجية صقيلة . طلاؤه أبيض ناصع يعطي أنطباعاً بحياة حارة بسيطة . وحول البيت اشجار السرو العالية . وامامه حديقه معتني بها . وفي مؤخرة البيت حظيرة لتربية الأبقار . دفعت باب الحاجز الخارجي . التقيت برجل عجوز متين البناء .. مشدود القامة .. يرتدي سروالاً قطنياً قصيرا . وكان العجوز عاري النصف الأعلى يمسك بمقص تقليم الأشجار كان مشغولاً بتنظيف أشجار العنب التي تعلو الحاجز .

قال .. من ؟ وماذا تريد !.

.. أنا من طرف كاترين . أريد مقابلة مدام تريزا !.

– مشى العجوز أمامي وهو يومىء برأسه لكي اتبعه !.

أدخلني العجوز صالة بها مقاعد مكسوة بقماش الكتان المورد الأصفر . وأصص زرقاء تنمو فيها ورود انجليزية حمراء .. وفي الأركان نباتات متسلقة ذات اشواك .. تصل حتي إطارات الصور الفوتوغرافية السوداء التي تجمع شمل العائلة . وكانت أمرأة ضخمة سمراء تقف ناحية أصص الورد وتصب فوق شجيرات الورد الماء . كانت مدام تريزا تعطينا ظهرها .. وقال العجوز .. «هذا السيد من

باريس .. وهو يريد لقاءك . أستدارت العجوز بصعوبة إذ لم يستطع جسدها الشاسع أن يساعدها في الحركة .. أشارت عليّ بالجلوس في خشونة.

قالت تخاطب خادمها العجوز أعد غداءً خاصاً . فالسيد سوف يكون ضيفنا على الغداء .. هذا .. إذ لم يكن لديه مانع !.

قلت .. هذا يسرني !.

قالت .. لندخل في الموضوع مباشرة .

قلت .. أنا صديق كاترين !.

قالت .. اهلاً مسيو سليمان .

قال سليمان .. كاترين تمر بصعوبات مع أولادها ! .. فلابد أن تتدخلي في الأمر.

.. قالت .. لقد حسمت الأمر . تحدثت معهم عبر الهاتف . وسويت بينهم المسألة.

قلت .. لقد جئت من أجل ذلك .

قالت .. هذا كرم منك . ولكنني حسبت أن زيارتك تتعلق بالجانب الذي يخصكما أنت وكاترين .

فالأولاد يريدون إبعادك عنها .

قال .. هذا أمر أقرره أنا وكاترين:

.. ولكن الأولاد طرف في المشكلة . ومن حق كاترين أن تتخذ قرارها.

.. ومن حقي ايضاً أن أتخذ قراري .

.. في علمي أنك قد اتخذته بالفعل . وكان هذا هو أصل الأزمة. فأنت لا تريد كاترين زوجة .

.. ماذا تريد اذاً !.

.. أريد صداقتها .

.. قل قبلت ؟

.. يبدو الأمر كذلك .

.. ولكنها تشكو . فهي تتحمل سلبيات هذه العلاقة وحدها . فأنت تبذل نفسك كصديق .. ولكنها تريد رجلاً ! .. أتفهم ! وما يهم كاترين هو الألتزام العاطفي!:

.. أريدها صديقة . وهذا ما تقرره كاترين وحدها !.

.. اذاً اذهب وقل لها هذا !.

نهضت مدام تريزا . وأنهت الجدل . نادت خادمها قالت .. خذ السيد الي غرفة الضيوف حتى موعد الغداء ثم اذهب معه الي المحطة لموافاة موعد قطاره.

تركتنا مدام تريزا ودخلت غرفتها .

*

قادني العجوز الي غرفة الضيوف . غمز لي بعينه .. وقال .. دعك من هذه البقرة .. هي وابنتها لا تطيقان الحياة بدون هذا (....) .. فهي الآن تنتظرني من أجل هذا . أنا أعرف الأمر بينكما كاترين وانت ! لا تتزوج ابداً أمرأة لا ترغب فيها.

.. قال سليمان .. أنا لا أرغب في الزواج اصلاً !:

.. قال العجوز . أسمي ماتيو . لقد أحببتك جداً فأنت تذكرني بتوأمي سنتياجو . أنا أجير لمدام تريزا . أقدم خدماتي .. كل شيء .. النظافة .. الحديقة .. المطبخ . أملأ لها بانيو الحمام بالحليب لكي تستحم . ادعك جلدها الخشن .. ادعكها كلها .. حتي يغمي عليها

من النشوة. هي تريد هذا كثيراً . ونقوم معاً أنا وهي بتسجيل الأرقام القياسية في دفتر صغير تحتفظ به في جيوب ثوبها الي جانب كتابها المقدس . هؤلاء النساء لهن جرح لا يندمل قط . لا يشفى هذا الجرح شيء سوى الموت . والرجل منا يشعر بأنه رجل عندما يغزو العالم بسلاحه هذا ! إنها الحرب الحقيقية التي على الرجل الحق أن يخوضها . وداخل هذا الشيء نار لا تنطفيء أبداً ..!!.

*

جلست في المقعد .. تحرك المترو في بطء . ثم انطلق داخل النفق . هاهي الأرقام الفسفورية تومض من جديد بين المسافة والمسافة . لقد كان العجوز محقاً . ذاك الشيء حقاً هو الشعلة التي تقود العالم كله نحو هدف واحد . نصوب .. نصيب الهدف . تنطلق الطلقة وعندما يقضي الأمر مؤقتا نعاود الكرة .. نشتغل بطريقة أخرى .. وان كان السلاح هو ذات السلاح.

.. أنه لهب الحياة .. وفي وقت الهدنة الذي يسمونه الإرتواء .. لا يكون إلاّ الجوع مرة أخرى.

تنطفيء النار مؤقتا ويشتعل اللهيب مجدداً . ويتجدد شكل الهدف .. السلطة حيناً.. القوة . هذه الطاقة لا بد أن تعمل . وهكذا تخوض المعركة تلو المعركة . النجاح ، الشهرة ، الإحترام ، الحب . أن نكون هنا وسط اللهب وفي مركز العالم . نكتب الشعر، اللوحة ، النغم . كل هذا الجمال الذي يشع. نقطف التفاحة من الشجرة لنرى نور المصباح والمصباح في المشكاة .

لا نرى إلاّ جزءاً . وهكذا نلهث وراء هذا الشيء الذي يفجر الحياة فينا . ويقودنا لمصدر النور. ليس هذا الشيء وسخاً كما يتصوره

الكثيرون . فهم يخافون منه لأنه يقودهم الي طريق صعب . إما الي القمة .. وإما الي الهاوية ! .. ومن راقية سليم عرفت. وجئت الي هنا عن طريق الاسكندرية روما مارسيليا . ومنذ ذاك قطعت كل خيوط الكهرباء التي تشعل اللهب . فانتقلت الطاقة للعقل . التركيز .. فك الأشياء واعادة تركيبها . عالم من التجريد الذهني . فالجسد شيء تافه يعيش على قدرات أخرى . وعندما تغادره الروح يصبح جيفة . والروح تذهب الي هناك وتنضاف الي النجوم . لقد دفع آل عبد الرحيم بالبنت علوية الي صحراء ليبيا . بنت ذات روح عملاقة. زوجوها لمغترب . لم يأت ليأخذها .. خافوا من شماتة الشامتين أولئك الذين كان آل رحمة قد رفضوا تزويج ابنهم بها . دفعوا بالبنت فوق ظهر شاحنة سافرت من أم درمان في الفجر. وصلت دنقلا . وفي الصحراء .. في طريق الكفرة طرابلس .. ضلت الشاحنة التي كانت تشق الزمهرير والبرد وعواصف الرمل . وضاع ذاك الحب السري الذي .. لم يعرفه أحد قط !! ولكنه ضاع في الصحراء الليبية . ولم يعثروا حتي على عظامه التي أكلتها الغربان والصقور.

كان زمان أم درمان .. وكان زمان باريس يتطابقان . ويدقان في نسق عالمية وأحزان وأشواق البشر أجمعين . جاءت أم درمان بالحزن الأشد وجاءت باريس باشياء.. تقابلت المدينتان .. كقطبي الملهاة والمأساة. هكذا جاء امس المكان .. والآن والمكان! تداخلا .. تقاطعا .. توازيا . وجريا يدوران مع دوران الأرض . فالمغتربون .. واللامنتمون .. هم أشد الناس حزناً .. واكثرهم شوقاً لرؤية ذاك الوجه اللامرئي .. الذي يلوح في آفاق البشرية خاطفاً وعابراً ! منا من يراه .. ومنا من لا يراه . قد ننتبه اليه فيسلمنا نفسه .. وقد نهمله فيهملنا ، لقد

رأته سونيا خلف قناع ما . ورأته راقيه .. وكاترين .. وسالم البدري .. وماتيو وتريزا وفرانسواز .. كلنا . كلنا! .. فكل الطاقة هناك .. هناك داخل هذا الشيء السحري الذي يشرق ويغرب متجدداً.

ودخل مترو الأنفاق باريس وكفت أم درمان عن المجيء.

*

بعد انتهاء المحادثة الهاتفية بين كاترين وتريزا . دار رأس كاترين . كما لو ضربت الضربة القاتلة . فوجدت نفسها داخل حصار الإستحاله . ان تكف عن حب سليمان وتبعد . أو أن تستمر في تحمل هذا الأذى . فكلا الأمرين لا يحتمل . فلا سبيل أمامها غير طريق واحد لا غيره ! وبدأ لها هذا الحل هو الحل الوحيد الممكن لهذه المعضلة . وعقب هذا التفكير رسخ إيمانها العميق وتوطد .

شملتها راحة عميقة . استكانت وهدأت . ودبت الحركة في الشقة . وصدحت موسيقى برامز وباخ وكل السمفونيات الكبيرة التي تمجد الألم العظيم . وأخذت كاترين تقرأ المقاطع الأخيرة لموت الملك لير . وهو تحت العاصفة .. ومايكوفسكي وهو يقدم على الفجيعة .. وزوربا الممتليء بحب الحياة وهو يموت ..!! جاءتها كل الأرواح العظيمة وعمها ذاك النوع الفريد من الفرح . فأخذت الشقة تشع بهذا النور الوضيء .

ورن جرس الهاتف

أهلاً كاترين ! .. أنا سليمان !.

أهلاً .

سوف أسهر الليلة معك !.

مرحباً .

أعدت كاترين مائدة صغيرة .. زجاجة شمبانيا .. وعنباً ووردأ ودجاجاً مشويا.

جاء سليمان في بذلة بيضاء . يضع على عروتها وردة قرنفل . كان بهياً كالأيام المشرقة . وشعرت كاترين بان صدر سليمان يتوقد بشموع حفله السري غير القابل للبوح . وتساءلت .. «تري ماذا يريد الآن بالضبط.» . وبدأ الحفل كمقدمة موسيقية مرحة بسيطة . وتدفقت السمفونية .

.. تفرعت الأنغام الي جداول رقراقة . وتحولت الجداول الي خيوط ماء .. جرى الماء.. جرت شرايين الأصوات لتصب كلها في الكوانتر بونيت . ثم تجمع النغم في مركز الكون . تناثر الي موجات تنقسم الي موجات أصغر . تتلاطم كلها من السلم الصغير لتصل الي السلم الكبير .. حب .. حب .. وصال .. صد .. حنان .. قسوة .. دو . ري .. مي .. فا .. صو .. لا .. سي..!!.

.. وقرأت كاترين أشعارا .. وحكى سليمان أقاصيص الف ليلة وليلة . وانسحرت كاترين بسندبادها الذي يطير فوق بساطه الذي يسابق السحب . وفي قمة قمم هذه اليلة المسحورة التي لا تصدق .. طلب سليمان من كاترين أن يكملا السهرة في غرفتها . وتحت تأثير الجمال الخيالي الرومانسي .. استجابت كاترين .

*

استلقت كاترين فوق سريرها مثل طفل يسمع أعاجيب شهرزاد جاء سليمان وجلس قربها .. أدني وجهه الملتهب من وجهها .. انتفضت كاترين . اعتدلت في جلستها.. غطت ساقها العاري بثوبها .

وكانت عينا سليمان تشعان برغبة قوية في الوصال .

.. قالت كاترين .. لا .. ليس باسم الشفقة .

.. لا .. ليس باسم تأنيب الضمير .

.. لا .. فالأمر ما كان .. ولن يكون تسديد دين وفواتير !.

كان سليمان منفعلا . حتي كاد دمه ليطفر من عروقه . كان شيء فيه يعتمل. يحطم المألوف والمعتاد. اذ كان هذا الجسد الممتنع عن الإنفعال والفعل الإراديين .. ينطلق جواداً متوحشاً قافزاً الحواجز العالية في رعونة وطيش . فكان جسد سليمان يمتليء بجسد كاترين كما تمتليء الوردة بالشذى .. وكما يمتليء الصمت بالهمس وبالضجيج. أو كما يمتليء الكوب بالماء . والغابة بالأشجار . وكانت الرغبة بحجم ذاك الجسد الذي كانت تسعى اليه . فكان جد سليمان في رغبته يتطابق بجسد كاترين .

دنا سليمان .. أنفاسه حارة .. لاهثة . وانفجر شريان الحياة بكهرباء الرغبة الدموي، الذي تأجل موعده طويلاً . حتي كاد ينسى في لجاجة الرغبات المراوغة ، والتي لا تعرف نفسها فتنكر وجهها . فأخذت الرغبة تموء . وتطوى جلدها .. ثم تتكور .. تفرد جسدها .. تنشب أظافرها وتتأهب للهجوم كقطيع من القطط المتوحشة. فها هي تنطلق.. وجري جواد الرغبة في فضاء منطبق ومغلق. فأصطدمت الأستحالة بالإمكان. وانطبقت السماء على الأرض .. فكانت كاترين تتراجع للخلف في هلع .. كانت تظن أن العصافير تغرد الرغبة الحانية وهي تحلق في سماوات الأشواق والحلم . واستفزها هذا العنف .. واستثار فيها روح القتال .

فتكورت مثل قذيفة . انكمشت .. ومن درج الكومودينو ..

أخرجت المسدس .. تكتك المسدس .. سحبت زناد التأمين .. وصوبت نحو الهدف .. بيديها الأثنين .

.. كف عن هذا .. والاّ أطلقت عليك النار !!.

لم يتوقف سليمان .. زحف نحوها وصدره مفتوح .. وطارت طلقة .. واخترقت زجاج النافذة .. استيقظ سليمان .. نهض وهو يترنح . نظر في عيني كاترين . فهما حمراوان .. خاليتان من ذاك البريق ..

.. وعرف سليمان أنه من الصعب جداً أن تعرف انساناً ما .. مهما كان هذا الإنسان عزيزاً عليك . فأن أحباء نا يشربون من دمنا ! طأطأ سليمان رأسه وخرج يمتليء جسده بالهزيمة . أما كاترين التي بقيت وحيدة فقد عجز عقلها عن فهم كل هذا ! فكادت لا تعرف نفسها ! وعلى أثر صوت المسدس جاء ت فرانسواز ولحق بها مارسيل. بحلقوا.. وكاترين تبكي وهي تمسك بالمسدس . تصوبه الي لا شيء . وعرف كل من مارسيل وفرانسواز أنها مخمورة ومذهولة . والمائدة هناك تتوسطها زجاجة شمبانيا فارغة . جلسا قربها ، هدآ من روعها .. وضعت كاترين رأسها فوق صدر فرانسواز وأخذت تبكي. وقالت .. «لقد أضعت كل شيء . لقد كاد اللاشيء يصبح شيئا . كاد المستحيل ان يتحقق! ثم انفجرت كاترين تضحك وتبكي . جسدها يهتز في الخيبة والحزن وقد حبست فيه ارادة الابداع .. وكلما يستطيع الجسد هو ان يموت . كان يفني ذاته .. كما تنفذ قدرة الإضاء ة في الشمعة التي فقدت جذوتها احتراقاً .

قالت كاترين وهي تتحدث للاشيء .. أتصدقين يا فرانسواز .. سليمان .. كان هنا.. أراد أن يأخذني .

.. لا .. لست تافهة لهذا الحد ! كنت سأقتله . إن هو تمادى . ولكن هل سيعاود الكرة ! ..

مستحيل .. لقد اضعته ! واجهشت كاترين بالبكاء . نظرت فرانسواز لمارسيل .. «وهمست .. انها تهزي وتتوهم» .. قال مارسيل .. «ولم لا .. ربما كان سليمان هنا حقيقة .» ونظر مارسيل الي الكأسين الممتلئين حتي النصف . وشعر بتلك الحرارة التي تتركها أجساد الآخرين وراها في المكان.

أشترى سليمان قمصاناً من الحرير لها أزرار مذهبة. وبذلتين ورابطات عنق. وزين شعره عند الحلاق استيفان. وأمام المرآة كان يسطع مثل نجوم السينما في فيلم استعراضي بالغ التكلفة.

.. وعندما أخذ سيارة تاكسي في طريقه لفندق فارساي .. كان يعرف أنه رجل جميل ذو سحر لا يقاوم.

وامتلأ بالزهو مثل طاؤوس. كان موعده مع فتاة المولان روج قد شحذ روح الغرام فيه بعد ذاك الحزن والخيبة التي منى بها عند كاترين. ولكنه عندما تذكر كاترين .. همد كل شيء .. وكاد أن يتراجع عن الإيفاء بموعده. لقد كانت عواطفه نحو كاترين تظهر له الآن واضحة. فكاترين هي مركز كل انفعالاته.

هي مركز طاقة الحياة داخله. فهي التي تعطيه التبرير للنجاح .. هي التي تعطيه الدافع لأن يحيا بعمق.. أن يحس الربيع والصيف والشتاء .. ان يستشعر تفاصيل تجليات الحياة .. أن يحب الآخرين ..

.. فهو لا يحب أحداً إذا ارتبط هذا الإنفعال الأصغر بالإنفعال الأكبر .. فكان يمتليء بكاترين كما يمتليء الإسفنج بالماء .. بها يتشبع كما يتشبع الهواء ببخار الماء . كانت كاترين هي مركز الدائرة وحيواته كلها تلف وتدور على هامش مركز الدائرة . فلم تكن قصص حب سليمان الصغيرة هذه الا تجليات قصة حبه الكبرى .. كاترين دو لامور . التي ما كانت ترى الأمر إلاّ بطريقة معكوسة.

*

دخل سليمان صالة الفندق .. وتعدد في آلاف الصور عبر المرآيا العاكسة . وهناك كانت تجلس فتاة المولان روج . كانت تدخن في عصبية ظاهرة .

جذب سليمان المقعد وحياها .. بون سوار .

.. بوان سوار . أنت جميل جداً .. لماذا لا تشتغل بالسينما !.

.. ضحك سليمان .. وقال .. لماذا لا أشتغل بك انت !.

.. قالت .. لانك لا تعرفني !.. أخشى أن تقول لي أنك دعوتني للعشاء لانك قد أحببتني !.

.. قال .. هذه هي الحقيقة !.

.. قالت .. هذا كذب !.

.. قال .. كيف تعرفين ؟

.. قالت .. هي مسألة تحدث دائماً .. خاصة إذا كان الشخص الذي نتعلق به نجم . الممثلون والفنانون عموماً .. يفلح الذين يضعونهم في أن يضعوهم في إطار من الحلم والوهم .. فنحن لا نحبهم هم ولكن فقط نحب خيالنا الذي يتحول الي مرئي .. ومن ثم نحب فيهم اللامرئي .

.. قال سليمان .. ماذا لو قلت لك .. أنني لا أحبك .. كلما في الأمر عندما رأيتك مصادفة كنت تعيدين لذاكرتي شخصاً عزيزاً .. مات .. فتاة صديقة اسمها سونيا .

.. أطرقت الفتاة .. وشعرت أنها أمام موقف مختلف وشخص مختلف .. وهذا ما جعلها تنجذب الي رفقة سليمان .

.. قالت .. ما دمت صادقاً معي فسأكون صادقة معك . لقد درست الموسيقى في الكنوفستوار في موسكو .. فأنا من أرمينيا .. ثم هاجرت اسرتي الي باريس بعد التحولات السياسية . والصدام الذي حدث بين موسكو والسوفيتيات . وعندما اشتدت الازمة الإقتصادية كانت الشبيبة تحلم بالبيبسي كولا .. والهامبيرجر والجينز . فكان الحلم

الأمريكي ينتشر في عواصم أوربا الغربية.

.. وجئنا ممتلئين بهذا الحلم . كان من المفروض أن أعمل أستاذاً للموسيقى أو عضواً في البالية أو الأوبرا . ولكن الملاهي الراقصة ذات ربع سريع .. وغمزت بعينها .. وهناك المتوحدون من العجائز الذين يحتاجون للرفقة .

توقفت عن الحديث عندما أحضر الجرسون طبقي السلطة والمرق . أخذت المعلقة باصبعيها الطويلين .. ورشفت رشفات كبيرة .. واحضر الطبق الرئيسي .. أخذت نصيبها .. ثم أخذت تأكل في تلذذ واضح .. كانت الفتاة حسية جداً .. واضحة ومباشرة .. كذاك الوضوح الذي يصدمك عندما تلتقي به عند السوقي .

.. قالت وفمها يمتليء بالطعام .. ليس هذا انحطاطاً .. كما يقول الإشتراكيون الأخلاقيون .. كلما في الأمر .. ان العصر الآن لم ينجز أخلاقه الجديدة .. فالعالم كله الآن في فترة تحول . إن حضارة القرن العشرين كلها تسقط .. لقد أفسدني رجل احببته حقاً .. واحبني حقاً .. ولكن علاقة أمه برجل غير ابيه دمرت فيه صفاء روحه .. فدمر روحي . وكان هذا يتوافق مع مشاريعي .. فجمعت ثروة كبيرة ..

فما عدت أحب أحداً حتى ولا ذاك الرجل . ومن كل هذا تعلمت أن الكل باطل وقبض الريح .. وما الدنيا الاّ جناح بعوضة !.. فعرفت أن الحياة لا تكون مواتية الا مع الأقوياء .. اولئك الذين لا قلب لهم!.

.. عندما انتهينا من العشاء . شملنا صمت . وكان أن استرخت وهدأت . بعد أن تناولت قرصاً من علبة زرقاء كانت تحملها داخل

حقيبتها في حرص ظاهر . مما جعل سليمان يعتقد انها نوع من العقاقير المخدرة . وبعد قليل اتسعت عيناها الجميلتان .. وترنمت باغنية حزينة هامسة .

قالت .. هذه الأقراص تعطل طاقة الجسد الحسية .. وتجعل الرؤيا تتسع .. فترى الأشياء عند مستوى آخر .. فالروح تعمل عندئذ
لقد تبدلت تماماً .. لم تكن هي تلك الفتاة الخشنة النهمة للحياة .. وعندما رأت دهشتي .. ابتسمت ..

.. قالت .. مشكلة الذي يحبني .. أنه يفاجأ دائماً وفي كل لحظة بأنني أتغير ،

.. قالت .. آه .. لقد نسينا كلانا .. كان ينبغي أن نبدأ بأن أخبرك باسمي .. فأنت لا تعرفه فيما يبدو .. اسمي .. أنوشكا . وأنت؟.

.. اسمي سليمان . من الخرطوم .. ادرس الآن بالسوربون .

.. هتفت في دهشة .. إذاً أنت الذي حدثني عنك مارسيل !.. فهو يقول إنك مثلي .. دائم التغير ولا تثبت على حال . لقد حدثتك عن الظروف التي جعلتني هكذا .. ولكن لماذا أنت هكذا كالماء دائم الجريان . متقلب الصفات؟.

.. قال سليمان .. لا أعرف .

.. قالت .. بالضبط .. من يعرف !.. واضافت هل تعرف الروائي سالم البدري ؟... فهو شقي بحبه لي . وكاد أن يشقيني .. فهو يريد ان يحدد شخصيتي .. أن يعرفني بالطريقة التي يريد كما لو كنت شخصية من شخصيات رواياته .. حاولت أن أكون كما يريد . ولكنه فشل تماماً في توضيح الأمر لي . وعندما نهضنا .. نهم بالذهاب

.. حزنت .. ما كنت اريد ان أتركها تمضي . كنت أريد ان أبقي معها لأطول وقت .. فوافقت فوراً على طلبها أن نقضى سهرتنا في بيت سالم البدري. خرجنا من فندق فرساي .. وركبنا سيارتها اللوموزين واتجهنا نحو حي سان جيرمان . وفي الطريق كنا صامتين .. وفجأة قالت .. هل تصدق أن المصادفات هي حتميات ! .. وعاد الصمت يشملنا .

*

قرعنا الجرس . وقف أمامنا سالم البدري . اكتسى وجهه بسحابة قلق .. ثم جمد الوجه على هيئة القلق . دخلنا .. فحاول سالم أن يبدد هذا التوتر .. فأكثر من الترحيب بنا . وجلسنا في حجرة مكتبة وعلمنا منه أن يعمل الآن في كتابة الجزء الثاني من الرواية . قدم لنا طبق فاكهة ومشروبات غازية مثلجة .. وكان أن تبدل القلق الي مرح . أما أنوشكا فقد كانت تتصرف بحرية كما لو كانت في بيتها .

فذهبت وجلست أمام البيانو .. وتدفقت الأنغام هامسة .. تدفقت في قوة .. توقفت .. لم تكن انوشكا جادة في العزف كانت كمن يلهو أو يتدرب على اللعب على البيانو . نهض سالم .. ووقف خلف ظهرها .. واستدارت أنوشكا نحوه .. أمسكت أصابعها الطويلة بأصابعه .. ثم أخذ يمسح بيده على شعرها الأصفر المنهدل حتي خاصريتها . وفجأة انتبها لوجودي بينهما . ثم قرع جرس الباب .. ودخل رجل طويل ذو شارب أحمر .. ومن حديثهما المتبادل .. كان واضحاً ان سالم علي موعد معه .. وأن الأمر يتعلق برواية سالم .. فالرجل ناقد أدبي يعمل في مجلة التايمز اللندنية .. جلسا متواجهين .. عند مكتب سالم .. وأخذا يتحدثان . وأثناء هذا كانت أنوشكا تعزف

مقطوعة لتسايكوفسكي ..

.. وبعد نصف ساعة .. ذهب الناقد الصحفي . وذهب سالم ليتخذ نفس وضعه السابق .. ونجحت الموسيقي في ايقاظ عاطفتيهما .. فكان الوجهان يدنوان .. ونهضت .. عرفت أنهما قد نسياني .. خرجت وصفقت الباب خلفي .

*

تحت وطأة الشعور السأم .. كان سليمان يمشى تحت الليل دون هدف .. جلس على مقعد على ضفة السين .. وشعور بالغربة حاد وعميق يحيط به . في بداية حياته هنا .. كان العالم الجديد يبهره .. فالزمان والمكان هنا ينبثقان دائماً في حيوية الجدة كما لو كنت تشاهد فيلماً سينمائياً شديد الاثارة والجمال . عالم يتفجر بالمعلومات . فالعالم يتكون أمام عينيك كما لو كان يتركب شيئاً فشيئاً . فأنت تشهد ميلاد الحقائق . وقليلاً قليلاً يبرد كل شيء . بحوث في ظلمات النفس .. علوم السياسة والإقتصاد .. ولكن الآن كل شيء يدور في الفراغ.

لا جديد .. وحتي الفنون أخذت لها مسارات بلا أفاق . والعالم الآن في فترة تحول ينتظر الجديد . وأم درمان تملأني الآن .. فهي بنية متحركة .. تحاول أن تحافظ على هويتها دون تفريط .. فهي تتوازن مع تعديلات جريان الزمان .. وتدخل التعديلات في بنيتها الأصيلة بلا تشوهات .

ويجيء كل من لامست حياتي بعضاً منه تجيء أم ردمان صوراً .. حية لا يربطها رابط . تجيء الأشياء أشتاتاً . أشتات .. بعثرة وتفكك. تجيء ام درمان ولا تقول الاّ أقل القليل . لم تقل أشياء ها بالتركيز المطلوب . كانت حريصة الا تندغم في زمان ليس هو زمانها.

فهي ذكري لم نتح لها التركيز اللازم . لم نفتح لها قنوات الجريان والتدفق . جاء ت أم درمان ببيوتها الطين. بمآسيها الصغيرة .. وبتراجيدياتها الكبرى . التي تمشى على إيقاع مارشاتها العسكرية . وبصراعات أحزابها. وبعدم جديتها في صياغة فكرة واحدة من الوجد الذي يملأ صدرها . لقد فقدت براءتها بعد كرري .. فأستبيحت أمام غريب الأفكار . الكل نساها وادار لها ظهره . بعناها ونحن نتصنع السهو. فلم تعد تجيء كالحبيب بلا إستئذان .. لقد ضاع ما يربطني بها .. فتبعثرت .. واحاط بي التفكك .. فلم اقو على الفعل الأكيد . لقد انكرت نفسي ..

.. ماذا أريد من هذه المرأة . ماذا أريد من كاترين !!.

.. لم تكن الشفقة . ولا الشعور بالذنب ! .. ولكن شيء داخلي كان يتحرك في الإتجاه الضد. كنت أجتهد لكسر القيد .. أن يتحرر الفعل . لقد الفتها .. أعتدت عليها .. وهي تتحملني رغم وعورة طبعي . وفوق هذا فهي تحبني ! فما الحب إذاً أن لم يكن هو هذه الأشياء !.. هل الطريق بيننا قد شُد بعد هذا الذي حدث تلك الليلة ! هل لي أن أحاول مرة أخرى !!! .

*

استمر سليمان قابعاً في بيته طوال الاسبوع . وفي نهاية الأسبوع أبلى من الملاريا . فذهب للايفاء بالموعد المضروب بينه وبين شركة إستثمار البترول . وعندما أخذ المصعد التف حوله عدد من مواطنيه حيوه .. وكان المصعد يتجاوز الطابق الأول في طريقه للطابق الرابع حيث تشغل مكاتب الشركة كل الطابق. إلاّ أن المصعد واصل الصعود الي الطابق الأخير. فإذا بهؤلاء النفر يدفعون به دفعاً الي الطابق

الأخير . وقال أحدهم .. نحن نريد ان نبلغك أمراً هاماً . وادخلوه مكتباً به أساس بسيط. أجلسوه عنوة . ووقفوا أمامه جميعاً . قال أكبرهم .. أنت تسير في طريق لا يوصلك الاّ الي الخطر. وقال الثاني .. لماذا وقع عليك الإختيار للقيام بهذا المشروع !.. أنت أصغر سناً وأقل تجربة. فأن جهة ما تستخدمك .. وفي هذا ما يضر بالبلد.

قال سليمان .. أنا لا أهتم بالسياسة .. سأفعل مايفيد البلد ان وجدت لذاك سبيلاً .. وفي ظل أي نظام سياسي !.

.. قال اكبرهم .. لا تسلم نفسك لنفوذ أجنبي . سنتابعك . وإن وجدنا شيئاً ضاراً انتهينا منك !.

*

في المساء جاءت فرانسواز الي سليمان . دخلت .. انزعج سليمان . فهي المرة الأولى التي تأتي فيها لبيته .

جلست صامته ومغمومة . قدم لها سليمان فنجان قهوة . ارتشفت قهوتها .. في اضطراب واضح !.

.. قال سليمان : يبدو ان هناك شيئاً .. فما هو !.

.. قالت فرانسواز .. الأمر يتعلق بكاترين.

.. قال سليمان ماذا حدث .

.. قالت فرانسواز .. كنت في البدء لا أوافق على شكل علاقتكما . ولكن الظروف الآن تغيرت. جئت لأطلب منك مساعدتها . فهي تمر بأزمة صحية قاسية . أريد ان تساعدها في عبور الأزمة . ولك أن تتركها بعد أن تطيب . وتعود لحالتها الطبيعية.

قال سليمان .. ماذا أفعل وهي لا تريد .

قالت فرانسواز .. فقط .. حاول بكل الحب .

قال سليمان سأحاول . أرجو أن تصدقيني القول .. أن كاترين عزيزة عليّ جداً . وأنا مستعد للزواج بها .. أن هي وافقت .

تهللت أسارير فرانسواز وقفزت من مقعدها طائرة .. وارتمت فوق صدر سليمان كما لو كان أباها .

بكت . وجفف سليمان دموع فرانسواز . وبحس فرانسواز الأنثوي علمت أن سليمان يحب كاترين ولكن كاترين لا تريد أن تصدق . طبعت فرانسواز قبلة فوق جبين سليمان .. وطلبت منه وهي تنصرف أن يأتي اليهم. وفي الصباح الغد . وكان صوتها مفعماً بالشكر والرجاء معاً.

*

عند التاسعة صباحاً وفق الموعد المضروب جاء ت أنوشكا الي شقة سالم البدري. وعندما دخلت وجدت مدير شركة .. يونفيرسال السينمائية .. جاء من كلفورنيا لإبرام العقد مع نجمة الفيلم السينمائي الذي سيصور في كلفورنيا وهو مأخوذ من رواية سالم البدري (الآن وأمس والمكان) .. وكان هناك في أقصى حجرة المكتب رجل عربي مسلم .. رجل عجوز هو أحد أقارب سالم البدري.

لقد أعد سالم البدري كل شيء بناء على الإتفاق الذي تم بينه وبين أنوشكا.. إن يتزوجها في مقابل أن يصنع منها ممثلة ومغنية عالمية . ان تعطيها يونفيرسال أجر أكبر النجوم وأن تأخذ نسبة من الارباح عند العروض السينمائية.

وقعت أنوشكا العقدين .. عقد السينما وعقد زواجها من سالم البدري . وقد تم عقد الزواج وفق الشريعة الاسلامية .

وفي التاسعة مساء أقيم حفل الزواج في سرية تامة . إلاّ أن الخبر

تسرب للصحافة .. فظهرت صحف الصباح تحمل في صفحتها الأولي زواج هذه النجمة الجميلة . كما تصدرت صورة أنوشكا كل أغلفة المجلات المصورة.

*

كانت كاترين وفرانسواز جالستين تقرأن صحف الصباح . فعندما وقعت عيونهم على الخبر .. أصابهما قلق .. كانتا تخشيان أن يصدم مارسيل بهذا الخبر . وفي هذه اللحظة دخل سليمان .

.. بون سوار .

.. بون سوار .

.. مالكما شاحبتان ؟.

أعطت كاترين الصحيفة لسليمان وهي تشير للخبر . قرأ سليمان .. لم يندهش .. للخبر .. وقال .. «لماذا هذا الأنزعاج !.. قالت كاترين .. أخشى على مارسيل .. ربما هما متفقان على الزواج!.. وفكر سليمان في صمت .. في حالة أن أنوشكا خذلت مارسيل .. فهذا يعني أن علاقتهما لا تستطيع أن تحمي نفسها . فهي في النهاية لا توصل إلاّ للفراق . وكما لو كانت كاترين تخمن طريقته في النظر للمسألة كلها .. قالت .. هناك عواطف إنسانية معقدة لأنها مركبة وليست بسيطة كما تظن . ولهذا ما كنت أوافق على رأي سالم البدري القائل بان تحولات الشخصية توصل الي نتيجة مقررة منذ البداية .. فهو يراهن على حتمية المسار والصيرورة .. هذا قد ينفع شجرة التفاح التي لا تثمر الا تفاحاً .. أما الناس فهم دائماً يتحركون وسط فضاءات من الخيارات حتى وان بدت هذه الخيارات مصادفات كما تحاول أن تؤكد أنوشكا، في احاديثها التي تطلقها الآن في

الصحف والتلفزيون .

.. قالت فرانسواز .. أنوشكا فوضوية .. تستخدم هذا النوع من الكلام لتبرير تحللها من الإلتزام .

.. وفي أثناء حديث كاترين وسليمان وفرانسواز .. دخل مارسيل غاضباً . وقال من بين أسنانه ..

.. لقد تزوجت .. رغم أننا كنا قد اتفقنا على رفض فكرة الزواج كلها .. أن نرتبط معاً بلا زواج .. الا يتزوج أحدنا منفرداً .

.. قالت كاترين .. ولكن هذا ضد الكنيسة .

.. قال مارسيل .. وهل ما تفعلينه أنت يتفق مع الكنيسة !.. لقد رفضنا الزواج حتى لا نفعل الذي تفعلين .

.. هاجت كاترين .. واندفعت وصفعت مارسيل بكل قوتها .. ثم استدارت وهي تجري نحو غرفتها .

.. وخرج سليمان .. تاركاً الأخوين يتشاجران ويتراشقان بكلمات بذيئة وجارحة . فكان عاجزاً عن فعل شيء .

*

في الصباح ذهب سليمان واستلم سيارته الفولوكس بعد ان دفع قسطها الأول . ركبها واتجه للسوربون .. إنتهى من محاضرته وجدد عقد عمله معهم كاستاذ مساعد لمدة سنة قادمة . ثم دلف الي مقر مركز الدراسات العربية وأعطى رئيس تحرير مجلة المركز بحثاً .. يعتبر تكملة للبحوث السابقة التي نشرها .. وهي كلها ستنشر كتاباً في طبعتين .. طبعة فرنسية وأخرى عربية .. فكتبوا له شيكاً بحقوقه المادية .. ثم أبلغوه بأنهم عينوه محرراً للشئون الإقتصادية والإجتماعية بالمركز .. واعدوا له مكتباً خاصاً بالمركز.

.. ادار سيارته وذهب لدكان يبيع الأناتيك واللوحات المستنسخة .. في مونبارس ، أشترى لوحتين مستنسختين لسيزان وفان جوخ . ورغم إختلاف اسلوب العمل عند الرسامين .. فقد كان سليمان يرى أن سيزان يعطيك الحياة كما لو كانت تحت المطر .. أو وراء بحار أو زجاج .. يعطيك الأنطباع الشعوري للأشياء ويخلصك من انطباعات البصر .. فأنت تري بعينك الداخلية .. أما فان جوخ .. فهو الحس الأولي بالأشياء .. فالحياة حارة تتدفق وتتراقص كلها سنابل مثقلة بالأثمار. ثم اشترى اسطوانات لأغاني ريفية .. تتحدث عن الأشياء بشكل عاطفي بريء . وعندما أدار سليمان سيارته .. شعر أن هناك من يلاحقه .. سيارة لوموزين خضراء .. هي أنوشكا نظر في مرآة سيارته .. رجل يرتدي قبعة . . هو إذاً سالم البدري .. وكان سليمان قد لاحظ وجود السيارة اللوموزين الخضراء وهي واقفة على رصيف الشارع المقابل عندما كان بمركز الدراسات . إذاً فسالم يريده في أمر ما . ويريد للقاء أن يكون مصادفة لا تدبيراً . عند رصيف مقهي الكافي دي روا .. ركن سليمان سيارته . وجلس عند مائدة على حافة الشارع ..

.. جاء سالم وتصنع دهشة ..

.. بون جور .

.. بون جور .

هل لي أن أتحادث معك قليلاً . لقد أصابني الضجر من العمل . لقد كنت حبيس الورق .

.. مرحباً . أنا أيضاً أشعر بالفراغ . أين أنوشكا !.

.. أنوشكا .. تصور مشاهد فيلمها في الكوت دو زير .

.. كنت أتوقع أن تكون معها .. على الأقل .. فأنت مؤلف الرواية التي يجري تصويرها سينمائياً .

.. لا استطيع .. وهذا ما أردت الحديث فيه معك . فأنت أقرب الناس فهماً لها ! .

.. قال سليمان بدهشة حقيقية .. أنا !.

.. نعم أنت . هذا ما تقوله هي !.

.. قال سليمان في سخط .. هذه البنت مؤلفة روايات .. بارعة .. هي أبرع منك يا سالم !.

.. هي فوضوية . ذات خيال سريالي .. هي تبحث عن اللامرئي .. وترى السخرية والعبث في المفعول . لقد قامت بافعال هي الجنون ذاته . ففي ليلة زواجنا .. مزقت ثوبها .. واحضرت صينية الفرن .. وجلست عليها .. حولها اكوام من البطاطس المشوية والمورتاديلا .. كانت عارية يكسوها شعرها الناري الطويل المتهدل ..

.. رمت بالشوكة والسكين في وجهي .. وصاحت . «هاهو العشاء جاهز ..» .. صفعتها حتى أدميت فمها .. إندفعت نحو المكتب وأتت بمخطوطة الجزء الثاني من الرواية حيث أعمل في كتابته .. فرشت الصفحات على الأرض .. وكانت الرواية قد توقفت حتي الصفحة الستين .. ووضعت اوراقاً بيضاء .. رقمتها حتي المائة .. وقالت هاهي أنوشكا محبوسة داخل الورق ما بين الرقم الستين حتي المائة .. واخذت تقهقه .. ها هي أنوشكا ذي .. ربما تموت في نهاية الرواية . أنوشكا رهن إشارة سالم البدري .

.. ألم تبع له روحها !.

.. كانت تقول كلاماً مخيفاً . وعملت طوال الليل على

تهدئتها. ولم أمسسها قط حتي الآن. صمت سالم ..

.. أرجو أن تساعدني .. أن نعيد اليها التوازن المطلوب .

.. قلت .. ربما كنت أنت المشكلة .

.. قال .. كيف .

.. قلت .. ربما كان التعقيد كله ناتجاً من مهنتك . فأنت تكتب روايات تتخيل فيها شخصيات وتحيطها باقدار وتقودها لمصيرها المحتوم.

.. قال سالم .. ولكن ماذا عن مارسيل .. وهو لا يمتهن مهنتي.

.. قلت .. ذاك تعقيد آخر مختلف . ولكن في حالتكما هذه أنتما الأثنان . فهي تعرف سيطرتك المتعسفة التي تدير بها مصائر شخصياتك الروائية . وهذا يذكرها بالعسف الذي عرفته في الحزب في موسكو .. ليس هناك أية احتمالات للمصادفات ولا للاضافات الفردية .. فمسار الأمور حتمي.

.. قال سالم .. هذه ليست سيطرتي .. ولكنها سيطرة الفن .

.. قلت .. لست ضليعاً في هذه الأمور الفنية .. ولكن يبدو لي انك تخلط بين المعاش والمتخيل. تخلط بين المرئي واللامرئي .

قال سالم .. هذه ليست قوانين .. ولكنها قوانين الفن.

قلت .. ولكنك تتمرد في رواياتك عن قوانين الفن . ذاك الكلام الذي قاله نقادك في كل مكان. سالم البدري كاتب ما بعد الحداثة .. يبتكر أدوات جديدة .. لانه يبتكر خطاباً روائياً جديداً يتجاوز فيه الكلاسيكية الصارمة عند بلزاك .. ويتجاوز الرواية الطليعية.

.. قال سالم .. وانت كقاريء مستنير ماذا ترى !.

.. قلت .. أرجو الا تأخذ ماأقول عن الرواية مأخذاً جاداً .

ولكنه إنطباع تخلف عندي منذ القراءة الأولى .

.. قال سالم .. هات ما عندك .. وهو ذو قيمة ، على صعيدي الكتابة والحياة .

قلت .. سأقول لك شيئاً خطيراً .. ارجو ان تتفهمه . أن روايتك تضج وتصخب بصوت واحد هو أنت .. وما تعدد الأصوات فيها الاّ تعددك انت .. فأنت مقسوم لشظايا كمرآيا مهشمة .. كل جزء يعكس صورة الكل الذي هو أنت . وهذا حال كل كتاب الرواية ... وهذا ما يجعل ضمير الأنا ينقلب فجأة لضمير الهو وبالعكس.

.. قال سالم .. إذاً أين المشكلة ؟

.. المشكلة .. إنك تأخذ صوتاً واحداً .. شخصية واحدة .. وتعزل الصوت عن محيطه .. عن باقي الأصوات .. دون أن تستخدم اجراء النقد الأدبي الجمالي . فالغلطة انك تستخدم مناهج الأجتماع .. حينما تعزل الظاهرة عن محيطها . وذلك عندما تدخلها في قالب جاهز من آراءك الخاصة .. لعلك قرأت باشلار «أن الرأي يفكر بطريقة رديئة .. أنه يترجم الحاجات الي معارف . والروح العلمية تمنع أن يكون لنا رأي حول قضايا لا نفهمها».

.. قال سالم .. كثيراً ما يكون لنا رأي قاطع جداً حول مالا نعرفه . وكثيراً ما نضع تنظيراً لتوضيح الظاهرة الإجتماعية ويكون بعيداً من الأسس الإجتماعية .. فالأيديولوجيا تعمينا عن رؤية الحتميات الإجتماعية . هذا أيضاً ما يقوله البنيويون .. ومنهم بشلار على الخصوص .

.. ولكن يا صديقي .. من الذي يكتب عن الظواهر الإجتماعية. أنا لا أكتب قصصاً عن الواقع .. أنا أكتب اساطير ..

اكتب الخيالي واضيفه الي مرموزات الواقع.

.. قال سليمان أهو التعبير عن أي شيء اذاً !.

.. قال سالم لقد أجاب . شكلوفسكي على السؤال .. إن الفن يعبر عن الأحساس بالحياة .. وهدف الفن ليس هو هدف العلوم التي نتكلم عنها . الفن يهدف ان يجعل الأشياء محسوسة كرؤيا .. وليس كمعرفة .. كما تفعل العلوم . الفن يتابع مسار الشيء وهو يتكون وينبثق .. لا الشيء كما هو كائن .

.. تنهد سالم .. وقال لقد بعدنا جداً عن الحياة !.. لقد بعدنا عن أنوشكا .

.. قلت .. ماذا تريد مني بالضبط !.

.. قال سالم .. أن تعيدها لي .

قلت .. هل تحبها ! .

قال .. وهل تحبها أنت !.

قلت .. ليس هناك صلة بين الشيئين .

قال .. لا هناك صلة .. ان كنتما تحبان بعضكما .. لتركتها .

قلت .. ولكنك تعلم أنها لا تحب احداً .

قال .. لا هي تحب أحداً .. ربما أنت .. أو ربما هو مارسيل أو أنا .

*

افترق سالم وسليمان . وانطلقت سيارة سليمان الفولوكس في الهاي ويز . متجهة نحو شاطيء المتوسط . وهي رحلة طويلة جداً . ولكن سليمان كان يشعر بأنها سيمنع ضرراً ما . وطالت الرحلة جداً.

جرت الفولوكس فوق صخرة بركانية ذات لون دخاني ..
واسفل الجرف كان ماء المتوسط دائم التبدل في ثياب شفافة من الألوان كافة .. فتارة يأخذ البحر اللون الأخضر فالأزرق فالأصفر الغامض .. كان البحر يتلون باستمرار مع طلوع الفجر .. ثم يتصاعد بخار كثيف أبيض ويغطي الأشجار والبيوت في القمم البعيدة وكان الهاي وي يصعد باستمرار ويدور وينحني .. وفوق ماء البحر من هذا العلو .. تظهر اليخوت البيضاء في مراسيها .. ومراكب السباق المائي .. تطفو ساكنة بيضاء ومسودة كسرب من البجع العائم في نعاس . وتظهر مدينة دوفيل الفرنسية .. تصحو بعد سهرة صاخبة بالشمبانيا وبآمال وخيبات موائد الروليت .. وملايين الفرنكات التي تهدر في لحظة وتكسب في لحظة .. حياة كاملة تقوم علي روح المغامرة والمصادفة . فالحب ينجح مصادفة ويموت مصادفة .. والمال .. والخراب والعمار .. إنها مدينة المصادفات الأرضية . هذا هو شكلها الظاهر للعيان .. أما حقيقتها الخفية .. فهي مدينة الحتميات الوضعية ..
.. شركات تمسك بخيوط المصائر تديرها وتوجهها الوجهة المطلوبة . هي مدينة التحولات .. تدخلها الفتيات الريفيات فتحولهن الي مغنيات وراقصات ونجوم سينما .. وعندما تنضجهن المأساة ينتحرن بأقراص الأسبرين . إخترقت الفولوكس الصور الفوتغرافية المكبرة بالأحجام الطبيعية لأنوشكا وهي في أوضاع مختلفة .. وكان المارة ينظرون لهذه الصور الملائكية المخلوطة بالشهوة الجنسية وهم يحلمون باللامرئي المجسد في الطرقات والمبذول والمغلف بالضباب الكثيف .. وكانت الاستحالة .. أن ينالوا هذا الاطلاق تصعد رغباتهم من مستوها الحسي الي مستواها الصوفي .

.. وهمس سليمان وهو ينظر لصور أنوشكا المزروعة في الوهم والروايات والمبذولة تحت الضباب على قارعة الطريق .. ويقول .. يا للفن الذي يحلم به سالم .. وكل القرن الحادي والعشرين!.

.. توقفت الفولوكس أمام شاليه .. بيت صغير مطلي باللون الرمادي .. ومغروس داخل الصخر الأردوازي .. وتطلع نباتات من بين شقوق الصخور .. وتكتسي اشجار التفاح بفللات بيضاء تلتمع من خلالها الثمار الممتلئة الحمراء .. مغطاة بحبات الندى .

.. كان التعب والنعاس .. ينهك سليمان ويضجره . قرع الجرس . فكان الشاليه خالياً .. كتب على بطاقة اسمه وحدد موعد زيارة أخرى أثناء اليوم . وعندما استدار هبت ريح ونزعت البطاقة وأخذت تلعب بها بعيداً . دارت البطاقة .. صعدت ثم قفزت عالياً فوق الأمواج الحمراء .

*

صورت أنوشكا مع الفجر المشاهد التي تمثلها .. في الشريط السينمائي .. كانت تبدو رومانسية مثقلة الضمير بالذنوب من جراء علاقتها القلبية ببطل الفيلم (بلومندو) .. وغمرها شعور بأنها مزيفة .. فهي تعبر عن شيء لا تحسه مطلقاً . فكانت أمام الكاميرا ومصابيح الإضاءة القوية تود أن لو تصرخ .. أن تبصق على كل شيء .. هذه أكاذيب . أن تفسخ العقد الذي وقعته مع اليونفيرسال .. ومن الجانب الآخر كانت تخشى أن ترد لهم المال وأن تدفع المزيد تعويضا . لبست ثيابها .. وقادت سيارتها .. فاتجهت اللوموزين الخضراء الي بنك باريس .. فرع دوفيل .. وبالتلكس طلبت كل ودائعها .. انتظرت كل النهار حتي استلمت المجوهرات والفرنكات .. حملتها تحت أنظار

الجميع .. كانت تريد أحداً يطاردها .. يقتلها ويسرقها .. رمت الثروة على مقعد اللوموزين الخلفي.. وعندما لم يحدث شيء كما خططت لموتها .. أخذت ترمي بالمجوهرات واوراق النقد .. لفافة بعد أخرى .. وقطع المجوهرات قطعة بعد أخرى .. ثم سمعت صفير سيارات الشرطة من وراء ها . وعندما وقفت سيارتها عند مدخل الشالية كانت شرطة دوفيل قد سلمتها ثروتها .. والضابط .. يقول في لطف جم .. لقد سقطت أشياؤك من السيارة ..

وفي المساء .. كان مارسيل .. ذائغ النظرات .. إستطالت لحيته وذقنه .. كان مريضاً شاحباً.. فكان فمه يزبد بزبد أبيض . يدخل يده في جيب سترته ويضع قرصاً يبتلعه .. يترنح .. ويمشي .. كان يطلع الصخرة في إعياء وبطء . وفي هذا الوقت أخرجت أنوشكا مسدسا كاتماً للصوت ودفعت فيه رصاصتين دخلت أنوشكا غرفتها واجهشت بالبكاء .. وتناثرت حولها رزم الفرنكات وقطع المجوهرات .. ودخل خادمها الزنجي الأمريكي .. كفت عن البكاء .. فها هي خطتها تعمل بطريقة ما . ولكن شيئاً ما على غير ما قدرت أخذ يحدث .. دنا الخادم منها .. عيناه تبرقان .. تمتلئان بذاك الحلم المصور على لافتات الدعاية.. .. كانت قدماه تطآن المجوهرات والفرنكات .. وتضاءل المرئي بكل سحره المحسوس أمام غموض سحر اللامرئي .. كانت في البدء تريد أن تقتل نفسها بنفسها عندما لم يأت أحد ليقتلها .. ولكن ها هو الموت يأتيها من حيث لا تحسب . وهجم الخادم كما تهجم الذئاب على أرنب صغير.. أغمي عليها .. وعندما نهض الخادم .. كان خيط دم يخرج من فمها والمسدس المحشو بين يديها. وخرج الخادم على أصابع قدميه .. واختفى تحت ضباب أحلام دوفيل .

*

دخل مارسيل .. دار رأسه .. إمتلأ جسده كله بالضجيج والحزن . وارتمى فوق أنوشكا وهو يصرخ ويبكي .. لقد قتلت نفسها بسببي .. وبرقت عيناه .. أمسك بالمسدس .. نام الي جوارها .. إحتضنها .. ووضع فوهة المسدس فوق جبهته .. وضغط على الزناد . ودون صوت إخترقت الطلقتان رأسه . فأنكفأ فوق أنوشكا .

وبعد لحظات كانت الفولوكس تطلع الصخرة الأردوازية .. كان الليل قد هبط .. دخل سليمان.. عبر الأبواب المفتوحة .. ومن هناك رأى صوء قوياً يتدفق من الباب المفتوح على مصراعيه ..

.. وشلت المفاجأة سليمان .. لقد انتحرا إذاً ..!!.

.. جرى وهاتف الشرطة .. وماهي الآ لحظات حتي إمتلأ المكان بالشرطة والصحافة .. التي أخذت كاميراتها تصور هذا المسرح. وبعد دقائق من هذا المرج والهرج .. فتحت أنوشكا عينيها .. وعندما رأت مارسيل محطم الرأس والدم يغطي ثوبها صرخت وأغمي عليها مرة ثانية.

*

نقلت أنوشكا للمستشفى .

وخرجت صحف باريس .. في صدر صفحاتها الأولى بعناوين متشابهة .. رميو وجوليت القرن العشرين .. وفي هذا الوقت كان فيلم (الآن وأمس المكان) يعرض في اكثر من دار عرض سينمائي .. وضرب ايراد الفيلم رقماً قياسياً.

وأثناء هذا كانت الصحافة تتوقع أن تحاول أنوشكا الإنتحار مرة ثانية ها هو الواقع يعيد إنتاج قصة شكسبير الخيالية .. هاهي روميو وجوليت تبعث مجدداً . وعاشت ليالي باريس وهي تغني بهذا الحب المتوهم .. وتحلم بأنوشكا .. ذاك الحلم الضبابي اللامرئي المجسد في حمي الرغبات والطموحات .

أما سالم البدري .. فقد عاوده الأمل .. في أن هذه التجربة ستعيد لأنوشكا توازنها المطلوب.

طوال هذا الأسبوع، كانت حالة كاترين الصحية تعطي انطباعاً بعدم الاستقرار. فقد لاحظت فرانسواز على كاترين شروداً ذهنياً غير معهود. فقد كانت الأشياء تسقط من بين يديها وتتحطم. فعندما كانت كاترين على مائدة الأفطار .. كانت الأطباق والأكواب تقع وتتناثر الي شظايا. أما الكتب فقد سقطت كلها من فوق رفوف المكتبة. وقد عزت فرانسواز هذه الحالة التي تمر بها كاترين لمعرفتها بموافقة سليمان على الزواج منها .

.. وعندما هاتفت تريزا فرانسواز قالت .. أن المشكلة قد إنتهت بموافقة سليمان علي الزواج. ولكن فرانسواز قالت لها .. أنها غير مطمئنة .. إذ أن هناك أمراً ما يجري في ذهن كاترين. وهي لا تدري ما هو بالضبط. إلاّ أنه شيء غير مطمئن . وكانت كاترين طوال فترة الضحي تتظاهر بالنوم. كانت الأفكار تضطرب .. فهي تلك الطيوف التي تحركها وتولدها الدوافع الخفية . فاذا بأمواج المارتنيك .. تندفع من كل الجهات وتحاصر كاترين . وعندما يهدأ المحيط .. كان سطح الماء سميكاً مخضراً وساكناً . وتحت السطح كانت تلك الأعماق المظلمة تمور. وإذ تهب الريح الخفيفة المحملة بالمطر تتراقص غصون

الأشجار وتتساقط ثمار جوز الهند والكاكاو.

لم تكن كاترين قد تجاوزت السنتين من عمرها. وكانت تريزا تربطها خلف ظهرها، حينما تلفها بثوب خشن من الكتان. فكانت قدماها الصغيرتان تحتكان بأليتي تريزا وهي تجمع الثمر المتساقط.

كانت تريزا جميلة جداً .. وعندما تمشي بين عمال مزارع الكاكاو كانت تثير عاصفة من الإثارة العاطفية . وتحت شجرة من أشجار المانجروف الكثيفة الخضرة والأغصان .. جذب الفريد تريزا وبطحها على ظهرها .. فتشابكا واصطخبا في حركة عنيفة . وكان جسد تريزا يسحقني تحت . صرخت . استمر صراخي ولكنهما لم يكترثا . لقد نمت علاقة حميمة بين جسدي وجسد تريزا. وعندما تبرعم صدري شجعتني تريزا على ان أقيم علاقة جسدية مع جسد آخر. فكان فكتور هو من إكتشف معي جسدي . كنا نحوم وندخل البيوت .. نجوب المدينة كلها على مدار أيام الأسبوع . نغسل الثياب ونطهو وننظف . كنت مربوطة على ظهرها .. كنت اتشمم عرقها الحامض .. كنت أشاركها تعاستها ولذة جسدها الشقية . كانت تريزا تتعب .. تمتليء رئتها بالهواء .. وتزفر .. فأعلو وانخفض وأنا على ظهرها المتنفس .. فكانت الفضيلة التي حصلت عليها من علاقتي بفكتور هي أنني حررت جسدي .. وأخذت اتنفس برئتي . ولكن فكتور كان يدفعني لأن أقيم علاقات مع رجال آخرين .. كان يختبيء . كان ينظر للمشهد من خلال ثقب ما . وعندما تبلغ به الإثارة ذروتها كان يبكي. وكانت هذه الأشياء تصيبني بالغثيان . فأصبحت حبيسة الطهرانية وحبيسة الاندفاعات الحسية في ذات الوقت . ولم يستطع النسيان أن يفعل شيئاً . ولم يقبل الزمان هذا التفكيك .. فهو يجري .. كما تجري

قطرة الماء نحو الأخرى .. فيجري الزمان خيطاً واحداً سلساً . فما عمري أنا كاترين دو لامور ! .. انه هذه السيولة .. هو حركة الموج في المارتنيك .. موجة تمسك بأذيال موجة.. وتتفجر هذه الكثافة على الشواطيء الصخرية شظايا من الزبد ..

*

أخذت الأشياء تنادى الأشياء بشكل متقطع .. متداخل .. متواز. فكانت حياة كاترين تجيء الآن كلها .. كتلة صلبة .. ثم تأخذ في التفكك . وكاترين تتجنب الشعور بالأسف . كانت تحاول أن تحيط تلك الأزمنة التي جمعتها بسليمان بحماية حانية كما تحمي الصدفة اللؤلؤة . فهي أزمنة سقتها كاترين كما تسقي الورود بالإهتمام الدؤوب . فكان كيان كاترين يمسك بهذه الطيوف التي تحلق الآن عصافير ترفرف في تغريدها النزق . وخلعت كاترين ثيابها . تزينت . عقصت شعرها .. ضفيرتين كبيرتين .. أمتلأ البانيو بالماء . وصدحت نغمات موسيقية متسللة من البيك أب الموضوع بالصالة .. وأمتلأت غرفة الحمام بالضوء الخافت . وداخل هذا المشهد الذي أعدته كاترين بحب وعناية كانت كل العناصر دقيقة التركيب كقصيدة حزينة. وعلي الاركان باقات ورد .. كان كل شيء يبدو كما لو كان احتفالاً بافراح عرس . ونزلت كاترين في البانيو .. انزلقت في الحوض الرخامي . غطاها الماء حتي الذقن . أمتلأ البانيو بفقاقيع بيضاء . وبيديها أخذت تلعب بالفقاقيع كما كانت تلعب بزبد امواج المارتنيك. وجاء زمان ودخل في زمان .. وعرفت كاترين أنها تدخل الآن في زمان ذي طبيعة خاصة .. ذاك الزمان الكوني العجيب . وبشفرة موس كانت مدسوسة تحت عريها الكثيف .. زجت كاترين الوريد .. وتحت

الماء كان الدم ينزف بطيئاً .. قطرة .. قطرة . وذهبت كاترين بعيداً مع نشوة متعها الجسدية . أغمضت عينيها واسلمت جسدها وروحها لسليمان . وفي الموت كانت روحها تتحرر نقطة بعد نقطة . كانت كاترين تشاهد حفل موتها السعيد بنفسها . وقد وعدتها روحها أن تحلق في كل مكان . أن تحلق في هذه الشقة شبراً شبراً . ان تصاحب روحها سليمان ابداً كما يصاحبه ظله . الاّ تفارق باريس .. أن تحضر الحفلات الموسيقية .. وأنْ تقرأ الكتب وتشاهد عروض الأزياء . وأن تطلع في مواسم النماء والأزهار .. أن تكون شمساً في الحياة لا تغيب. وكان شيء يشملها بالحذر . يمشي من أسفل القدم الي أعلى في بطء . ليس هو الحزن.. وليس هو الخوف .. شيء يعرفه كل البشر . يحملونه تحت جلودهم ولا يعرفون له أسماً. وذهبت كاترين مع إغماءات الموت .. مشت نحو نهايتها .. نحو الموت !.

*

جاء سليمان عند الثامنة مساء . وكانت الصالة مضاءة في إنارة قوية. وحول الاركان رصت باقات الورد . ومن السقف تدلت شرائط الأعياد الملونة .. وفي وسط الصالة أعدت مائدة .. وكانت الكؤوس والأطباق الكرستيال براقة ..! .. من الواضح إن كاترين ستقيم حفلاً!.. وتوجس سليمان من هذا الذي يراه أمامه . ذهب لغرفة كاترين ولكنه لم يجدها . ونادى .. فرانسواز .. وسمع خرير صنبور الماء .. ثم دقات طبول عنيفة متسارعة .. ودفع باب الحمام . وقف سليمان مصعوقاً .. فاض ماء البانيو الأحمر طافحاً . وكاترين تطفو مثل سمكة بلا حراك .

انطفأت أضواء باريس .نضبت الكتب .. إنتهى زمن الروايات الأدبية العظيمة .. والشعر والفكر النير . وانطفأت الأضواء .. وأسدلت ستائر خشبات المسارح . وذبلت الحدائق . وفقد البرتقال مذاقه . وكان سليمان حزيناً .. واصبحت كاترين جرحاً غير قابل للإندمال أبداً.

*

ماتت سونيا .. ولم تتوقف الحياة . ماتت كاترين ولم تتوقف الحياة . جاء الشتاء وذهب .. جاء الصيف والربيع وذهبا . جاء ت الزنابق وذهبت ولم تتوقف الحياة . لا شيء يموت إلاّ بموتنا الخاص . ولكن الحزن والفقد يعلماننا أن ننسى . لقد كان أمل كاترين في النسيان كبيراً . وفي كثير من الأحيان يكون النسيان مستحيلاً . ويأتي الماضي دائماً متنكراً في قناعه ليجدد نفسه فيخادعنا . ونخادعه . وفي الزيارات التي كان سليمان يجيء فيها لرؤية فرانسواز بدأ شيء يتولد بين سليمان وفرانسواز . بدأ الحب يتبرعم . ولكن كاترين كانت بين فرانسواز وسليمان .. لم ينسياها قط . كانت تدفعهما دفعاً لهذا الحب. كما لو كانت تعاود الحياة وتجددها بكليهما معاً . كما لو كانت تعيد ترتيب الأشياء بينها وبين سليمان بطريقة أفضل . فكان سليمان وفرانسواز يشعران في ذات الوقت بأن النسيان ممكن .. تارة.. ومستحيل في كل الأحيان .

أما تريزا فقد وافقت وباركت علاقتهما . واتفق سليمان وفرانسواز أن يتشاركا السكن والعيش . وأن يتم الزواج بعد مضي ستة أشهر . يختبر فيها كل منهما الآخر . حتي يكون الفراق سهلاً ودون تعقيد في حال الفشل. وأن يحاولا معاً في إخلاص للوصول الي

صياغة أسلوب في الحياة يرضي الطرفين . وطوال الشهرين الأولين كانا يتخبطان دون أن يركنا الي بر الأمان سالمين من مخاطر تعقيدات علاقتهما.

*

إستيقظ سليمان مبكراً هذا الصباح . فوجد حمامه الصباحي معداً بذات النسق الذي كانت كاترين تسير عليه . ماء دافيء .. أدوات الحلاقة .. عطر .. تمتيشن .. وعندما جلس سليمان للأفطار .. وجد ذات الأشياء المربي والزبد والخبز المحمص .. والقهوة .. كان كل شيء كما هو في السابق.. كما لو كانت روح كاترين تسكن المكان . فكاد سليمان الاّ يعرف فرانسواز . كانت ملابسها هي ذات الأزياء التي تلبسها كاترين . وذات النبر في الكلام .. ذات الموضوعات .. كل القاموس اللغوي .. وكل تراكيب الكلام . لم تكن فرانسواز هي فرانسواز !! كانت فرانسواز هي كاترين طبق الأصل.. روحاً وصورة. وعندما رأت فرانسواز دهشة سليمان واستنكاره لما يرى .. قالت .. «ماذا بك .. تحملق فيّ هكذا !!».

قال سليمان .. لا شيء .. فقط أني أراك تدخلين في شخصية هي لست أنت !.

قالت .. الاّ تحب كاترين !.

قال .. بلى .. ولكن كاترين ماتت . وأنا أحبك أنت الآن .

قالت .. كاترين لم تمت .

قال .. أنت ممثلة لدور لا يلائمك . لماذا لا تكونين نفسك !.

قالت .. المشكلة لم تكن أنا .. إنها أنت !.

قال .. كيف !.

قالت .. لا يمكنني الإحتفاظ بك . إلاّ إذا فعلت الأشياء كما تفعلها كاترين !.

قال .. أنا أحبك أنت !.

قالت .. لا . أنت تكذب !.

قال .. ولماذا اكذب !.

قالت .. ما يهمني .. هو أن أواصل حياة كاترين !.

أجهشت فرانسواز بالبكاء . ووجد سليمان نفسه أمام هذا التعقيد الروحاني الجديد يحاول انقاذ علاقتهما .. وذلك بإرجاع الأوضاع لحالتها الطبيعية .. أن تظل فرانسواز هي فرانسواز.

*

لم تكن محاولات سليمان لأرجاع فرانسواز لحالتها العادية امراً سهلاً . إذ إزداد الأمر سوءاً في الشهور التالية .. فها هي فرانسواز تجلس على معقد كاترين المفضل .. تقرأ ذات الكتب .. وتعد نفسها للدراسات العليا لتصبح محاضرة بالسوربون . كما اخذت تولي سليمان عطفاً أمومياً.. وتتصنع حنو وصرامة الأمومة . ثم تذهب لبوردو لتتولى شئون تريزا بالرعاية . وفي عطلات نهاية الأسبوع كانت تصطحب سليمان للأوبرا وللعروض المسرحية .. وتشترى الكتب ذات الموضوعات الكبيرة . وفي المساء تجلس مع سليمان حول المدفأة لتحدثه حول ما يقرأنه معاً وما يشاهدانه . ثم يذهب كل منهما الي غرفته .. فيرددان معاً .. «بون سوار .. بون سوار» .

وفي كل هذا كان هناك إختلاف عميق بين القصتين .. بين الحياتين . فلم تكن فرانسواز مشغولة بأحاسيس الجسد مثل كاترين . ولم يكن سليمان مشغولاً بها بذات الحرارة . فكانت عواطف سليمان

القلبية تبرد باتجاه فرانسواز . لقد أدخلت فرانسواز عاطفتيهما في طقس الحب العذري. وذلك عندما إختلطت مشاعرها بمشاعر الوفاء لكاترين فلم. تستطع تخطي حاجز أن تحب نفس الرجل الذي كانت أمها تحبه قبل موتها . وكان سليمان أمام كل هذا كمن يتفرج على تمثيلية وهمية . وكان سليمان يقول لنفسه .. «هذا لست أنا..» .. لقد عرف مبكراً أنه من الخطل أن يحلم أحلام الآخرين . ولهذا السبب أخذ يبتعد .. فأخذت فرانسواز في مطاردته . فاكتشف عبر مكابدات هذه المطاردات .. ان هذا الوضع هو ما كانت فرانسواز تسعي اليه . فهذه هي النقطة المركزية التي يمكن من خلالها إعادة إنتاج قصة كاترين كلها.

فأصبح سليمان يهرب في كل الإتجاهات . فأصبح مطارداً ووحيداً من جديد .. مثلما كان مع كاترين . فكان عليه أمام هذا الوضع ان ينقذ فرانسواز وإن ينقذ نفسه من هذه المتاهة .

*

مثلما كانت كاترين في طفولتها المربوطة على ظهر تريزا .. تشقيان معاً .. وتتنفسان معاً من ذات الرئة . ومثلما عرفت كاترين الأشياء عبر جسد تريزا . فقد انبطحت كاترين فوق طفولة فرانسواز .. فكانت الأمومة قد ربطت البنوة اليها .. فأصبحت فرانسواز سجينة موت كاترين . فإعتقدت فرانسواز في إيمانها العميق أنها باحياء روح كاترين .. تبعث كاترين مجدداً وتعيدها للحياة . فهي تلغي ذاتها .. فهي تتصنع الموت .. تميت نفسها بنفسها .. كما لو كانت تنام . كانت فرانسواز تحيا نوعاً من التظاهر والتخفي . فهي كمن يمثل دوراً على المسرح .. دون أن تعرف أنها تمثل . فلم تكن ممثلة جيدة . لأنها

لم تعرف المسافة بين نفسها وبين الشخصية التي تمثلها . فهي تراقب نفسها وتشاهدها كما يشاهدها الآخرون . لقد اندمجت في التمثيل للدرجة القصوى . حتي الغت المسافة بينها وبين كاترين. فبعد مراسيم الدفن .. أخذت فرانسواز تعمل في اعداد مقبرة كاترين بشكل جديد . فقد هدمت المقبرة . وبنتها من الرخام الوردي . وهو نفس لون طلاء غرفة كاترين . وزرعت ورداً حول المقبرة . وسورتها بسور من الحديد المخرم كوشاح من الدانتيلا . وكانت قد وضعت القبر كله تحت ظل شجرة السنديان التي تشقشق فيها عصافير تأتي من كل الجهات . فأصبحت المقبرة مثل حقل ريفي طليق . أخذت فرانسواز تذهب للقبر كل ضحى .. مرحة كما لو كانت تذهب في نزهة . فتصحب معها سليمان . يقضيان كل النهار معاً . ولا يرجعان الاّ عند الغروب . وفي ذات ضحى جلسا تحت ظل السنديانة . تناولا أفطارهما .. وقرأ سليمان أشعاراً .. وداهم النعاس فرانسواز بسبب حرارة الضحى . فأستلقت على ظهرها فوق العشب الندي . حمت عينيها من الوهج الذي يترقرق بين أغصان السنديانة بقبعتها التي وضعتها فوق وجهها . وفجأة توقف سليمان عن قراءة الشعر .. حينما هبت ريح لينة ورفعت ثوب فرانسواز . واشتعل جسد سليمان . . أعتراه شيء قوي .. أن يفك القيود .. أن يتحررا . زحف سليمان في بطء .

.. زحف في حذر . ودخل في نوم فرانسواز . واخترق احلامها من أقصاها لأدناها . وفي النوم قاتلت بكل قواها .. ثم أخذت قواها تتراخى .. ذاك التراخي العذب . وسبحت مع موج النوم الكاسح الذي أخذ يغطيها شيئاً فشيئاً حتي الغرق . فكانت تتنفس بصعوبة .. فتأوهت ملتاعة بكل أذى حلمها المرعب الذي يضرب

نومها ضرباً مؤذياً وممتعاً.

*

وشهدت العصافير وشمس الضحى .. والموت .. والخراف ذات الأجراس الرنانة .. والهوام المحلقة بين الأريج .. وذرات الغبار التي تثيرها عجلات السيارات في الطرق الريفية .. شهدت كل الضاحية تحرير سليمان وفرانسواز من أوهام الحياة . وعندما نهضا .. أخذا يبكيان ..

.. لقد بكيا بحرقة موت الوهم الجميل .. وميلاد حقائق الحياة المفاجئة . نهضا .. ولم ينظر أي منهما في وجه الآخر . لقد مات كل شيء .. ولقد ولد كل شيء . ومنذ ذاك الضحى لم يلتقيا مطلقاً.

*

من شرفة شقة سليمان بالطابق الرابع عشر .. كان سليمان ينظر الي باريس .. والليل يمتليء بالضياء ..

.. حياة جارية لاهثة . لا تتوقف مثل نهر يجري من المنبع الي المصب . نوافذ مطفأة .. نوافذ مضيئة . وباريس هي مدينة كغيرها من المدن الكبرى في العالم . فيها كل شيء .. وفيها لا شيء .. الموت والحياة .. وهذا المكان المنزوي الصغير .. هذه الشرفة .. هذه الشقة التي كانت تمتليء بالحياة .. ذبلت .. أنطفأت . أين سونيا ! .. فرانسواز ! .. كاترين .. انوشكا ! .. الشانزليزيه .. ام درمان ..!! نحن ظلال تعبر حياة الآخرين . وهم بدورهم ظلال تعبر حياتنا . ماذا بقى منهم لنا ! وماذا بقى منا لهم ! .. لا شيء منا . ولا شيء منهم . وأمام استحالة أن نعيد دورات الأيام .. لا نملك إلاّ النسيان .

.. ولكن الي متي يا سليمان هذا الدوران داخل هذه المتاهة !.

.. لا بد من بداية ما !! .

*

ودار سليمان مع الدوامة . غرق في لجة الأضواء والليل . وها هو وجه الغياب .. فموت الأحباء يكشف بطلان وزيف المكان .. السعادة سراب .. وما الإمتاع إلاّ خدر في الحواس . هو إشباع الحاجة .. إيقاف التوتر . فالحياة تبعث الرغبات .. وأصبحت باريس خاوية .. هيكلاً مجرداً من المعنى . فالظلمة تسكن الأضواء البراقة . واللاشيء يسكن الأريج والرحيق .. اللاشيء يسكن الوجه والمرآيا . وتمتليء الذاكرة بالنسيان .. والنسيان يحيا بالذاكرة . أمواج في لجة المتاهة تتلاطم . وتوقفت عن الدوران أعياد باريس المتنقلة مثل سيرك . توقفت حركة النماء والتفتح . فكان سليمان يتقاطع ويتوازي مضطرباً بأرادته وحريته .. بجسده وروحه . ويتداخل كشوارع مدينة المتاهة . وفوق هذه المراجيح يذهب ويجيء . ويمتليء بالدوار واللاشيء. فنما فيه شعور الإغتراب .. فالمكان ليس مكانه . فهو نخلة صحراوية استنبتت تحت وابل المطر الثلجي . فكان سليمان من البرد ينكمش كنخلة تحمي نفسها من الصقيع . لقد كانت حياته في باريس حفلاً تنكرياً .. كان في حفل كاترين التنكري مثل حرباء تتخفى بطقس المكان . كان يحمي نفسه من الخطر .. فاذاً لا بد من العودة .. للوطن !.

*

طوال هذه المدة لم يذهب سليمان للحي اللاتيني او حدائق التوليري .. كان يختبيء منزوياً مثل قنفذ. فتدبر أمر رحيله للخرطوم .. وقع عقد عمل مع الشركة المنقبة عن البترول . اعطوه تذكرة سفر على الخطوط الجوية اللبنانية ... باريس القاهرة ... ثم القاهرة الخرطوم

عن طريق الخطوط الجوية السعودية.

*

حلقت الطائرة في فجر الخميس بتوقيت مطار أورلي الدولي . ومن إرتفاع الف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر .. كانت باريس رمادية وزرقاء وخضراء . كانت ضبابية غير مرئية بما يكفي .. تلوح كأشعار رامبو الهاجسة بالعزلة .. ولوحات بيكاسو التي تحاول تعقيد الوضوح فتقبض على الشيء ونقيض الشيء . ترقص على موسيقى التانجو حيث تبدأ الحكايات من نهاياتها . وسونيا التي تعيش الخطر .. وانوشكا التي تعرف روحها حتي العظم .. فرانسواز وكاترين لعبة الروح والجسد .. وسالم البدري الذي تصبح رواياته مرآيا لرؤية ذواته المنشطرة .. الألوان الزاهيات .. الأفراح القصيرة العمر .. الأحزان المشرقة .. الكتب الطازجة بروائح حبر المطابع .. حساسية العصور الحديثة .. جلال من الدفق الأنساني المتواصل .. وباريس من هذا الإرتفاع تبتسم كاشفة عن فمها المكتنز بشهوة الحياة . وها هي الآن تغسل قدميها في المياه الخضراء المزبدة . وكانت الأشياء .. كل الأشياء .. تأتي في خطوطها العامة .. فالذاكرة لا تستطيع استرجاع الزمن كله دفعة واحدة . ولاحت القاهرة . الأهرام وأبو الهول .. ذاك الزمن الذي جمد وثبت .

وأمضى سليمان ليلة واحدة بفندق مطار القاهرة لم يذق فيها النوم . وبعد أربع ساعات أخرى حلقت طائرة سليمان فوق سماء الخرطوم .. وجدت الطائرة صعوبة في النزول بسبب الرياح الترابية .. فحلقت مدة من الزمن ثم هبطت . ومن مطار الخرطوم أخذ سليمان تاكسياً توجه إلي أم درمان عن طريق شارع الأربعين .

كان منزل أهل سليمان صغيراً يشغل مساحة ثلثمائة متر وهو من مباني أم درمان القديمة . تتوسط المنزل شجرتا نخيل . وعلى الحائط المواجه للشارع تتسلق شجرة جهنمي مشتعلة بالزهور الحمراء القرمزية. وبعد أن التقى سليمان بأمه وبأهل الحي واستدفأ بحرارة الوطن . وضع دولاراته في المخزن الذي تحتفظ فيه أمه الحاجة حليمة بالفحم وجوالات الذرة وحطاماً من الكراسي . ثم إتصل سليمان بالجهات المسئولة عن مشروع التنقيب البترولي . فكان المسئول العجوز ذو اللحية الحمراء المصبوغة بالحناء ينظر هو ومعاونوه لسليمان في دهشة مرتابة . وقالوا له .. «أي مشروع .. والجنوب نار موقدة بالحرب .. أمجنون أنت ! .. اطلعوا على العقد المبرم بينه وبين الشركة .. وقالوا .. «الظروف كلها تغيرت ..».

*

أشتري سليمان ورشة لتصليح السيارات وصيانتها .. وجهزها بقطع الغيار وزودها ببنشر لصيانة إطارات السيارات . وأتى بصبية مهرة في الميكانيكا . وشهدت حديقة منزله جلسات أنس مع صبية ورشته . حتي أصبحت حديقة المنزل مأخوراً حقيقياً .. تتضوع برائحة العرق والحشيش.. وقليلاً كفت الأمسيات عن هذا الطيش غير المحمود العواقب . وشغل سليمان نفسه بالعمل في الورشة .. ولكن السأم أدرك روحه . وكانت أرصدته في البنوك تتصاعد بارتفاع مدهش . ولكن السأم أخذ ينخر في عظام سليمان . إذ كانت روح سليمان الضخمة لا يستوعبها هذا النجاح السريع والسهل . فضاقت هذه الروح عندما لم تجد تحدياً للإرادة بشكل حقيقي . وعندما لم تجد هذه

الطاقة منفذاً لتطل منه إتجهت نحو نفسها . فأخذت تدمر روح سليمان. وفي الصباح ترك كل شيء وراءه . ركب سيارته وتوجه الي غرب أم درمان .

*

أختفى سليمان لمدة أسبوع كامل .

وأخذت الحاجة حليمة تبحث عنه . ولكن دون جدوى .

وفي منتصف الأسبوع كان الصبية العاملون بالورشة قد هربوا بعد إن سرقوا كل شيء .

.. وسألت أحدى الجارات الحاجة حليمة عن أمر أختفائه .

فقالت الحاجة حليمة .. ربما أرتابت السلطات في أمره .

قالت الجارة .. ربما ذهب لذاك المكان الذي جاء منه !.

قالت الأم .. من يدري يا أختي !.

*

وفي منتصف ليلة قمراء جاء سليمان . وفرحت الحاجة حليمة فرحاً صامتاً ، ولكنها فجأة أغتمت حينما رأت جحوظ عينيه وقد طال شعر ذقنه ولحيته . شيء ما ينخر في روح سليمان . ولكنها لا تدري كنه هذا الشيء . وبشعور الأم أدركت ان إبنها يذهب في طريق صعب لا رجعة منه.

وطوال هذه الغيبة .. طوال هذا الأسبوع كان سليمان يشعر أن ربح المال بهذه الطريقة السهلة .. هو نوع من خداع الذات . وانه قد فقد نور تلك الشمعة التي تضيء داخله أجمل الأشياء فيه . لقد أسأمته هذه النزعة الحسية .. فحتى الجسد يستخدم كأداة ويحول كل شيء يلامسه الي شيء . عالم كامل من الأستخدامات .. كان يريد أن يثبت

أن كل أفعال الجسد تعمل دلالتها في باطنها . فالجسد يكون وسيطاً واداة للتعبير وموضوعاً للشعور المعبر عنه .

فلا يمكن ان نعزل بين الفكر والجسد . وفي الفعل الجنسي .. عندما يكون المحبوب هو موضوع الإمتاع .. فأنه لا يكون شيئاً . ليس هو مجرد جسد . بل هو جسد أحياه الوعي . فالوعي يسكن الجسد . ولكن هؤلاء يقتلون الجسد (فكان من العبث محاولتي معهم) هكذا كان سليمان يحدث نفسه .. ودارت دورات اللاجدوى وحاصرت سليمان من جديد .

ام درمان خريف ١٩٩٦م

هبت الرياح الجنوبية الشرقية . فأثارت عواصف ترابية حمراء . فتعكرت سماء ام ردمان . وكان الخريف على البوابة الشرقية . فكان سليمان يقف بسيارته عند أحدى محطات الوقود . وهو قد بدأ عملاً جديداً . بعد خراب الورشة . وجرت السيارة ممتلئة بالوقود حتى التخمة . جرت السيارة في طريقها الي سوق الناقة أقصى الشمال عند أطراف أم درمان . حيث تتراص الرواكيب المبنية من الحصير والقش . في وسط السوق مطعم مفروش بالرمل المبلل بالماء . وداخل المطعم رصت اسرة خشبية واطئة . عليها مساند ومفارش ملونة . وكان أثرياء السوق الأسود والمضاربات المالية وبائعو الدولارات والبضائع المهربة عبر الصحراء الليبية يتخذون من هذا المكان مقراً لإدارة أعمالهم . لقد كان معظمهم شباباً تخطوا الأربعين بقليل. يلبسون جلاليب رهيفة من الحرير وأحذية من جلود النمور . لهم عمامات ضخمة يلفونها حول رؤوسهم بطريقة تعطيهم مظهرا أنثوياً .. وارواحهم تمتليء بالروح المغامرة . حينما كاد السأم الذي صاحب ثراءهم السريع يقتل أرواحهم. فكما لو كانوا يلعبون لعبة الروليت فهم يصنعون مخاطر يتحكمون في نتائجها . مما يملأ ارواحهم بفروسية مواجهة المجهول . فهم يقفون عند حافة الخطر عندما يجوبون الصحراء دون مرشد أو دليل.. سوى ذاك الشعور الداخلي الذي يلهم بمواصلة الحياة في بسالة .. أن يواجهوا الموت وجهاً لوجه وأن يهزموه كما لو كانوا يتدربون

تدريباً طويلاً مستمراً وشاقاً . وهو تدريب يمتص طاقة الخوف الفطري الكامن في الحياة ، ويجعل من ثم تخطي حاجر الخطر ممكناً بأقل قدر من الخوف الممكن . ولكن من الجهة الآخرى .. كان هذا الخطر مؤمناً عليه عند شركات التأمين على الحياة . فهم يغازلون هذه الصيرورة ويجعلون الحياة كلها امكاناً يتراقص بين المحتمل والمستحيل والممكن . يغازلون فتيات مطعم الناقة . يقيمون معهن علاقات جسدية بدافع ذات الروح التي تجعل الضياع .. الموت والحياة احتمالات متساويات الوقوع والحدوث . وقد انضم سليمان لهذه المجموعات مدعوماً بدولاراته التي أخرجها من مخبئها السري . ودخل بها في شراكة تجارية ما بين الكفرة وسوق ليبيا غرب ام درمان . أطمأنوا الي سليمان .. وكان السأم الذي لا دواء منه يربطهم برباطه الوثيق .. فاندفع سليمان في الخطر والمخاطرة حتي حدود الأفق السرابي . وشيئاً فشيئاً تعود عاداتهم.. أن يذهبوا كل فجر جمعة لصيد الغزلان عند تخوم الصحراء.

*

في ذاك الفجر انضمت سيارة سليمان لقافلة الصيد . تراصت سيارات اللاندكروزر وهي مجهزة بالماء والطعام والرصاص والبنادق . وكانت سيارة سليمان في مؤخرة القافلة . وجرت القافلة.

جرت السيارات في خط طويل مستقيم . خلفت السيارات امدرمان وراء ها . ودخلت في فضاء رملي على مد البصر . رمال ناعمة .. متموجة .. متبسطة .. انعكست عليها أشعة الشمس . سارت القافلة مدة ساعتين .. وعند منتصف النهـــار انفرط عقد القافلة، حينما

لاحت قطعان الغزلان تتهادى تحت الشمس .. بعيدة عند الأفق . وجرت السيارات .. تفرقت .. وصفرت البنادق يخترق رصاصها الصمت والصدى . تشتت القطعان .. قطيعاً قطيعاً .. ومع صفير الطلقات .. تبعثرت الغزلان فرادى .. وتبعثرت السيارات فرادى . ومثلما تطارد الشمس الظل .. طارد كل صياد فريسته . ورأي سليمان غزالاً أشقر .. خلفه تتوارى غزاله سمراء .. وشعر شعوراً مبهماً عميقاً أنه قد جاء من أجل هذه الطريدة .. كما جاءت الطريدة من أجله . وكان الهاجس يقيناً لا يقبل أي شك . وتحولت الغزالة السمراء بفعل قوة لا تري لإمرأة .. أمرأة يعرفها سليمان .. هي كاترين دو لامور بدمها ولحمها وبكل تاريخها الطويل . وجرت سيارة سليمان . ارتفعت من الأرض بمقدار بوصة . دارت دورة كاملة حول نفسها .. استقامت وواصلت جريها اللاهث .. اندفعت السيارة في سرعتها القصوى .. وجرت الغزالة بالسرعة الأقصى . وتجري الغزالة حتي تكاد تغيب في السراب والوهم والحلم والجنون والإستحالة.

كان الكون كله في فضائه المقوس الابيض والرملي يجري نحو الغياب والتلاشي .. وحقائق كثيرة تذوب في الأفق البعيد تحت الشمس .. لم تكن هي أكاذيب .. ولكنها حقائق ذات طبيعة مختلفة .. أهي الرؤيا اذاً !! .. وتحت هذا الوهج الساطع .. الذي يكسو الآفاق جاء الخيال البديع يطير في ثوبه الشفاف الابيض . يتموج بالأضواء الباريسية وبالعطور السرابية التي لا ترى .. وكان الزمان يجري بسرعة الأبدية حينما تصبح الحركة هي السكون .. والسكون هو الحركة ! ويصبح الزمان زماناً متوحداً والمكان مكاناً هو جوهر كل الأمكنة .. فالآن هو أمس المكان . وتتوقف الغزالة وهي تنظر

لظلها الذي انتشر تحت الشمس فشمل المكان بالليل الكثيف . تتوقف كاترين دو لامور .. وتقول .. وتعيد ما قد قالت يوماً .: «ففي مثل هذا الزمن العجيب علينا أن نتخطى الحاجز .. الممكن والمستحيل .. اتعب .. اتعب يا سليمان حتي النهاية» .. ها أنت قد كدت إن تصل..». وفجأة تستدير كاترين وتنتشر على إمتداد الأفق شمساً حارقة وفضاءاً صحراوياً لا مجدياً.

ويدور سليمان في اللاشيء .. يدور في دوامة الصمت والذهول وفي وسط هذا اللهيب الأصفر يدور في المتاهة . وابتسمت كاترين ابتسامتها الوضيئة .. وقالت .. «نحن نختار دائماً صورة واحدة من بين كل هاتيك الصور .. نحن نختار طريقة حياتنا ونختار طريقة موتنا ..» ويقول سليمان .. «هناك دائماً داخل كل لحظة عدد لا يحصى من اللحظات . ولكننا لا ننخرط إلاّ داخل تلك اللحظة التي نختارها. أما تلك اللحظات المبعدة .. فهي ما تزال تجري متوازية مع اللحظة التي انخرطنا وتورطنا بالعيش فيها..

.. وتقول كاترين «إننا نختار الصور على شاكلتنا .» .

وتفر كاترين .. تضيع .. وتخلو باريس من دفقها الحي .. ويصبح المكان ليس هو المكان ولا الزمان هو ذات الزمان .. تفر كاترين .. يتراقص السراب في ثوبه الأبيض المتموج . ويتطاير الشعر المنسدل على الكتفين .. وتدور السيارة .. تتوقف عندما ينفذ وقودها . ينزل سليمان .. يستلقى فوق الرمل الملتهب .. جسده منهوك .. وكله مسكون بالصمت والذهول . ويحرق وهج الشمس عينيه . ويصبح التنفس قاسياً .. ووسط الصمت والشمس والفراغ اللانهائي .. تقبض يده على حفنة رمل. وتتدفق شلالات الشمس .. ويسبح سليمان على

سطح أمواج نهر الضوء المتدفق . وتتحول الأمواج الي لهب .. وتجيء كاترين .. وتقول .. «ها هو كل شيء يبدأ . ها نحن نتلاقى على تخوم الحياة والموت ..» .

ويغيب سليمان بين شفتي كاترين حتى تصطك الأسنان بالأسنان .. يضمها الي صدره . ويدخل سليمان في كاترين كما تدخل السفينة الضالة في مرفئها.

وتأتي موجات الرمل .. موجات أثر موجات .. تتدافع الأمواج .. تتكاثر الموجات ناعمة وقاسية .. تدفن الصحراء سليمان .. وفي بطء .. وفي هدوء يسترخي سليمان ويدخل من بوابة الظلام اللانهائي.

*

وعند الشفق .. عندما اكتسى الأفق الغربي باللون الأحمر .. تجمعت القافلة .. افتقدت القافلة سليمان .. فهو لا محالة هالك .. وتقسمت القافلة العمل .. فاتجهت مجموعة جهة الغرب وأخرى الشمال وأخرى الجنوب .. اشتعلت مصابيح السيارات مثل ثقوب في ثوب الليل الأسود الحريري الناعم. وزأرت السيارات وهي تندفع بحس المواجهة الحقيقي لتتحدى هذا الخطر .. فلم يكن البحث عن سليمان .. ثم العثور عليه دافع تمليه عاطفة انسانية محضة .. ولكنه شيء كاللعب .. ذاك اللعب الممتع حينما يتحول الأنسان حيناً الي فريسة او الي صياد . أن يواجه الخطر . وأن يهزمه .. فكانت عاطفة غريبة تملأ صدور هؤلاء الرجال الذين يجوبون الليل البهيم والخطر الممتد حتى حدود الأفق .. ناعماً وشاحباً وغير محدد الملامح .. فكان ذاك الشيء اللامرئي يظهر ويختفي في قلب السكون والليل والخطر ..

فكان هذا الوجه الجميل ساحراً بشكل لا يقاوم .. غير مفهوم ...
ولكنه نوع من الوعى الانسانى ، وعى للذات والكون لا يوصف وهو
حس تارة... هو حي تارة .. وروحي صافٍ كالكرستال أو الثلج ..
هو أعلى نقطة تتماسك عندها الذرات بشكل كامل الأطلاق ..
ووقتذاك تتحقق الذات الإنسانية وتمتليء بحقيقتها كما تمتلئ البرتقالة
بأريجها ورحيقها . أو كما تبرق النجمة بصفاء سمائها.

*

كانت السيارات تزأر حتى منتصف الليل وكان الرجال يغنون
غناءاً يمتليء بالشجن حينما يلوح
في هذا الفراغ المظلم ذاك الوجه الجميل الذي لا يعرفون .
كانت السيارات تزأر .. ثم تغوص في الرمال .. تتوقف .. تواصل
الزئير .. والليل يمضي .. ويطلع الفجر .. وهناك تلوح سيارة سليمان
كجذع شجرة مقطوعة .. وما هي الاّ لحظات .. حتى تتجه القافلة
نحو سيارة سليمان .. ويشعر الرجال بأنهم قد هزموا الخطر داخلهم !.

سليمان في فوضى الزمان..

ما قبل البداية وبعد النهاية!

دخل سليمان في موته الخاص. كان يمشي بطيئاً في الطريق الوعر. وما بين الفوضي والنظام كان يتأرجح. كانت الروح والجسد فيه يتنازعانه .. فكان الحبل الذي يربط بين طرفي الموت والحياة هو زمن من الوصل والتفكك .. زمن عجيب التكوين .. فلم يكن هو زمن النسيان الكامل .. ولا هو بزمن الصحو الصافي. إذ أخذت الأشياء تتراقص صوراً شفافة مرئية حيناً وغير مرئية حيناً. وجنباً الي جنب تظهر تفاصيل الحياة ذات جلافة وغلظة وتفاهة .. كما تسمو وتصفو كما لو صنعت من الحليب أو الثلج. ووسط عراك الزمن المتناقض بالبداية والنهاية كان سليمان يكافح في بسالة معركته مع الموت.

وتزحف الريح الرملية موجة إثر موجة. ويختلط الوهج الصحراوي الناري بالسراب المتدفق وراء الأفق. وقليلاً قليلاً يطرز الوهم قوس قزح في سماء أم درمان الغربية.

وما بين الموت والحياة كان سليمان يضج كله مثل ساعة بايولوجية من العصب والعظم والدم والروح معلقة بسلسل من معدن اللا معقول الذهبي في فضاء الحقائق التي لا تفهم. فكان العمر يأتي

بالاصباح والليالي .. يأتي تفاصيل صغيرةً وخطوطاً صلبة من التجريد فكان التحديد يختلط بحدود اللا محدود واللامرئي . وكان جسد سليمان ينازع في الزمن القيامة والجحيم . فهو جسد خاطيء يمتليء بزمن الرزايا .. وروح بريء يومض مثل نجمة خضراء . وعند هذا الزمن السريالي الصوفي كان صدر سليمان يخفق منديلاً ذا صور حريرية .. ذا حواف من الشجن والتعب والأحزان .. وعبر هذه الأغنية التراجيدية .. كانت كاترين دو لامور تقرأ شعر بول أيلوار .. فعلى الذاكرة أن تنسى لتكسب الحياة نقاء ها .. ثم تحاول الذاكرة ان تتذكر لتستعيد ذاتها. فلماذا إذاً رفض سليمان حب كاترين .. ثم سعى اليها ؟ .. ولماذا سعت هي اليه ثم أجفلت فيما بعد ؟ .. لقد كانت كاترين تتخذ من علاقتها به .. ومن كل قصة الحب التي بينهما .. وسيطاً .. فما الذي بينهما الاّ مجال كهربائي .. فضاء روحاني إصطنعته كاترين .. لنكتشف روحها .. فلم يكن سليمان بغيتها .. ولم يكن الهدف .. وكانت هذه الحقيقة البسيطة الشديدة الوضوح ذات قوة ساطعة باهرة فاستطاعت ان تغيب معناها .. فلم يستطع سليمان وقتذاك أن يراها .. ولم يقتصر هذا العمى الوجداني على سليمان وحده بل إن فرانسواز لم تستطع بدورها أن تفهم هذا الشيء الغامض الذي يمثل نواة هذه العاطفة الغريبة التي تربط بين سليمان وكاترين.

.. فعندما قضيا أجازتهما ذاك الربيع في مدريد ذهبا معاً بالحاح من كاترين ليشاهدا مصارعة الثيران .. وقد راع سليمان هذا الإنفعال الصامت الذي يعتمر في صدر كاترين وهي تشاهد هذا العراك الدامي. كان هناك شيء غامض .. شيء يحوم فوق حلبة الصراع .. شيء له

جناحان ابيضان .. يرفرف فوق الرؤوس .. يشيع نوعاً من الخوف والرعب إلاّ أنه لذيذ وممتع .. هو شيء كاستعذاب الظمأ للماء .. وكتلاشي النور في الظلمة .. شئ عجيب حينما يدخل النقيض في النقيض . وحينما يتعرف النقيض على نفسه حينما يتعرف على الآخر الذي ينفيه .. ر.ں ثم يتعرف كل على الآخر .. فيثبت نفسه في النفى. وعندما إنغرست الحربة في قلب الثور إنتفض جسد كاترين في متعة لا توصف . وقد عرف سليمان .. ان هذا لم يكن استعذاب الأذي !.. ولكن كاترين كانت تعيد إكتشاف نفسها .. كانت تريد أن تعي روحها .. وأن تمسك بزمام حقيقتها الوجودية التي تفلت من أي تحديد أو توصيف . وفي فندق البلازا بذلت كاترين جهداً أنثوياً هائلاً حتي ينالها سليمان . وكانت تعلم أنها لن تنال إلا صداً ورفضاً وكان هذا الأذى يكفي .. ووقتذاك كانت الرماح تنوش هذا الجسد الهرم .. ويفلح من ثم هذا الأسى أن يصنع من كاترين نجمة خضراء .. أو بخاراً شفافاً .. فكانت في الحالين تنطلق متصاعدة الي السماء . وقبل البداية .. قبل أن يلتقيا كانت كاترين تحمل هذه الجرثومة في دمها .. وعندما التقيا تلك اللحظة عند قاعة المحاضرات بالسوربون .. كانت هذه البداية قد لونت القصة كلها بهذا الوجد القاسي .

.. وفيما بعد تبلور الأمر كله بينهما الي حب كاره . نوع من الحرب والقتال يجعل لهيب هذا الحب متوقداً .. وفي هذا اللقاء السريع والقصير دعته كاترين لنزهة عبر السين حتي حدائق التوليري .. وعندما أخذا يتمشيان عبر طرقات الحدائق المرصوفة ذات الحواشي المزهرة بزهور عباد الشمس الذي توقد بوهج شمس الضحى .. كانا صامتين .. وبين لحظة وأخرى كانا يكسران حاجز الصمت بكلمات

خرقاء غير ذات معنى .. كانت كاترين تقول .. «المكان هنا جميل» .. فكان سليمان .. يقول .. «نعم .. حقاً إنه جميل» .. وفي الصمت كان سليمان يتساءل .. ماذا تريد منه هذه المرأة العجوز تحديداً .!.. أتريد أن تستثمر فقره وعوزه .. وتجعله عشيقاً .. أن تستخدمه كشيء! ورغم أنه لم ترق له هذه الفكرة .. أن يتحول الي رق . وكانا قد وصلا الي مطعم يقدم أسماك السالمون المشوية .. وعندما امسكت كاترين بأحدي السمكات الصغيرة باصبعيها تعلقت السمكة ذات الذيل الأحمر في الهواء . وانقبض صدر سليمان وأحس كما لو أنه مرفوع من ذيله ومتأرجح في هذا الفضاء بلا معين .

*

إنتهيا من تناول طعام الغداء . نهضا . تمشيا تحت ظلال أشجار الكستناء . فكانت الظلال تتراقص على وجهيهما وهي تخفى انفعالات غامضة تضطرب . ولم يكونا ليعرفا طبيعة هذه المشاعر التي تعتمل في صدريهما . لقد أصبحا الآن داخل وضع عاطفي وانفعالي غريب وشديد الغموض . فهما غريبان .. مفصولان الواحد عن الآخر. ولكنهما قريبان جداً كل من الآخر .. فهما لا يملكان معلومات تكفي ليحدد كل منهما حدود شخصية الآخر ومن ثم يحدد وضعه بالنسبة للآخر . فليس بينهما تاريخ مشترك .. كما ليس بينهما تلك الأشياء الصغيرة التي تصنعها الحياة لتجعل من أنسان ما عزيزاً بشكل شخصي مؤثر بالنسبة للآخر وبالنسبة للحياة المشتركة هذه .. حينما يتبادل إنسان الحديث مع آخر .. وحينما يشاركه النزهة والأحزان والصمت . فكان الصمت الذي يحلق فوق رأسيهما وهما يمشيان تحت أشجار الكستناء والسرو والبتولا يرفرف مثل فراشات حيرى ..

فكانت الظلال والصمت وإرادة إختراق دائرة الآخر وتحطيم هذه القشرة التي تمثل حاجزاً منيعاً قد أضيفت بدورها لتجعل عبور كاترين نحو سليمان .. وبالمثل عبوره هو نحو كاترين شيئاً صعباً .. وهكذا أصبحت العوائق الإنسانية في تحقيق هذا الوصال شيئاً معذباً وعذباً.

وفيما بعد بمدة طويلة تلونت هذه العاطفة .. تلونت كل قصة الحب بهذا اللون الأحمر القاني.. إذ إختلط الألم بالفرح ومن هذا الخليط كان الحزن هو النغم الأساسي في هذه الأغنية العميقة الشجن . فكان هذا النغم الصداح قد إستمر منذ هذا الضحى لمدة الثلاث سنوات الأخيرة حتى موت كاترين . وها هو النغم يشدو كونشيرتو كاملاً مؤلفاً من خطوطه العريضة التي تتفرع الي فروع صغيرة مرحة ثم تشتد الأصوات عنفاً في جريانها نحو مركز الإيقاع العام لتألف لحن الموت والحياة . وتتردد الأغنية الآن وتلون إحتضار سليمان . فلم يكن سليمان ليدخل في حياة موته الزاحف دون هذه الأغنية التي هي كل مضمون ومعني عمره كله .. قبل كاترين وبعدها . فكان هذا الموت الصوفي الجميل هو كل الزمان السرمدي والآني معاً.

.. كان وجه كاترين .. وجه الموت والحياة .. وجه مرئي ولا مرئيّ .. كان وجهاً يسد الآفاق .. فظاً وبذيئاً وخشناً واقياً يومياً .. وبنفس المقدار كان حلماً ووهماً . فكانت هذه الساعات العشر التي هي عمر إحتضار سليمان حينما دخلت كل حياته في نفق الموت .. هي زمان لا ينتهي ابداً .. لم تكن عشر ساعات .. ولم تكن عشر سنوات .. ولكنها هي عمر الحياة كلها منذ بداية الخلق والتكوين .. هي قيامة الروح في الوجود والعدم .. فسما جسد سليمان لمراتب ملائكية نورانية السماوات . فأخذت حياته تجري تسرد قصتها تارة في

مسار الزمن الدائري .. وتارة في مسار الزمن حينما يتفكك بفعل النسيان .. حينما يختلط ترتيب العلة والمعلول وتتقدم النتائج على أسبابها . شأن كل عاطفة عميقة الإنجراف والجريان . وها هو سليمان يموت الآن في يوم كامل مقداره نصف قرن كامل هو كل عمره قبل كاترين وبعدها .

*

وفي سماء الظل والصمت .. شاع جو اسطوري .. فكان الجسدان يعبران عن نفسيهما بطبيعة طلاقتهما الخاصة .. وتحركت يد سليمان والتقت بيد كاترين في منتصف الزمان والمسافة . ومشيا نحو السين مشتبكي اليدين . وفي الأسابيع التالية انتقل سليمان لشقة كاترين . فتشابكت حياتيهما فازدادت الحياة تعقيداً طوال السنوات التالية .

*

والآن .. يري سليمان العجب العجاب .. حينما تدخل الحياة في الموت .. فهو في هذه اللحظات العجائبية .. ليس بالميت .. ولا هو بالحي .. إنه الآن وسط فوضى الزمان .. فتشرق الرؤيا بصورة مصنوعة من جوهر زمان ليس كمثل هذا الزمان .. تظهر الحياة كلها في كليتها بلا تحديد صوراً من الدخان او البخار والسراب .. شفافة .. غامضة كما لو كانت مرسومة بعروق الزجاج والثلج والحلم والشعر . فتأتي الصور صورة بعد أخرى في مجال من الإرسال الإلكتروني الكوني وتنطبع على شاشة الوعي البلوري في إبعاد المسافات اللانهائية . فلم يكن وعي سليمان هو وعي فردي .. بل هو نوع من رؤيا الإنسانية جمعاء .. حينما تواجه فرح الحياة أو رعب الموت . وقبضت

كف سليمان على حفنة رمل .. إعتصرت اليد الرمل .. واستجلبت الأحلام الظامئة ماء الإستحالة في بسالة نادرة . وكان سليمان يقاوم إحتضاره . وتجيء صور .. وتذهب صور .. يجيء زمان .. ويذهب زمان .. ومع الأمواج الزاحفة تتفكك صلة الوصل التي تربط هذا بذاك .. ومثلما يحمل الزمان صوره .. تحمل الريح ذرات الموت .. ذرة بعد ذرة . ويتدفق الزمان لحظة بعد لحظة .. يجري سلساً نحو الأمام .. ويتراجع للوراء .. يقفز ما بين هنا وهناك .

*

في الليلة الثلاثين قبل الليلة الألف . كانت شقة كاترين مضاءة .. وعند الشرفة المطلة على نهر السين جلسا يطلان على النهر الساكن المبرقش بالأضواء الملونة .. إلاّ من زوارق بخارية تنطلق هنا وهناك في الإتجاهين المتعاكسين .. وسماء الشتاء الرمادية منشورة مثل وشاح على كتفي فتاة تعاني من البرد والوحدة والحب . تحت ضوء أباجورة في لون غروب الشمس كانت كاترين تقرأ أشعار جاك بريفير .. مما جعل العاشقين يحسان كما لو أنهما بطلا هذه القصائد .. باريس والوحشة الأنسانية التي تبحث عن دفء المشاركة الإنسانية . وزحفت موجة رمل .. وكان سليمان أمام النفق المظلم واقفاً أمام البوابة الكبرى . وبعيداً عن ضوضاء مهرجان الموت .. تراجع سليمان الي الوراء .. فكان المشهد يتسع وتظهر الضفاف الجنوبية للنهر .. وعرف سليمان .. مثلما قد عرف كلاهما فيمابعد .. أن هذا الشيء الذي بينهما .. هو كل هذا الخليط العجيب المصنوع من مادة الحياة ومن مادة الموت . هو الذكري والنسيان معاً .. هو الفناء والخلود معاً .. لقد ركبا مركباً صعباً .. لقد وضعا روحيهما أمام مخاطرة كبرى . ضاقت الرؤيا .. إذ

كانا يريدان أن يريا كل المشاهد . أن يعرفا حقائق الأشياء الصغرى في مدى رؤيا للحقائق الكبرى .. وكانت مادتهما البشرية .. اللحم والعظم والحلم والوهم تحولان دون هذه الأشواق المستحيلة .

.. ووقتذاك كانت كاترين تمتليء برغبة الوصال .. فكانت تظن أن الجسد هو الطريقة الوحيدة الممكنة لاكتشاف العالم .. رغم أن سليمان قد ظن ان هذه العجوز .. هي عجينة الجنس والإبتذال والفضائحية .. إمرأة سوقية الحس وعمومية العاطفة . غمر سليمان هذا الشعور لحين . ولكنه تراجع مرة أخرى .. أمام صلابة موقف كاترين من الأشياء .. وكما لو كانت تقرأ أفكاره .. قالت وعلى فمها ابتسامة متهكمة .. «أني استعير ما قاله لويس بونويل.. لابد من البدء بفقدان الذاكرة لكي ننتبه الي أن الذاكرة هي التي تكون حياتنا..» !!.

.. نهضت كاترين .. التفتت الي داخل الصالة .. وأخذت تنادي .. مارسيل .. مارسيل !.. وعندما جاء مارسيل مرتدياً ثياب الخروج .. قالت لمارسيل .. هل لك أن تدعو سليمان لقضاء السهرة هذه الليلة معك .. شريطة .. أن تأخذه لأصدقائك القذرين أؤلئك .

.. قال مارسيل في غضب .. هم ليسوا قذرين . ولكن أسلوبهم في الحياة يختلف عن اسلوب البرجوازية الباريسية .

قالت كاترين .. انهم ضائعون .. لنقل اذاً !.

قال مارسيل .. كلنا ضائعون . والمسألة كلها تتوقف على المعيار !.

قالت كاترين تخاطب سليمان .. هيا . وسنلتقي غداً لنرى ما الأمر .

انطلقت سيارة مارسيل . دارت حول ميدان الكونكورد ثم دلفت عبر شارع فرعي متجهة نحو اطراف باريس القصية قاصدة تخوم غابات بولونيا . حيث تجمع جماعة البوهيميين الجدد وهم قوم من الشباب المتأثرين بثورة ماركوز الفكرية وبشيء من البوذية فكان الخليط الوجداني لهؤلاء الجماعات هو شعور السأم من الشكل المادي البحت لحضارة التكنولوجيا .. ولأنهم لم يستندوا على شيء من الروح المسيحية .. فقد تمخضت حركتهم عن شئ يتطابق مع حركة الهيبيز .. روح أقرب للفوضوية التي تعبر عن يأس العصر المرير الفاقد لليقين . كانت الجماعة مقسمة لمجموعات صغيرة .. كل جماعة لها معسكرها الخاص . ووسط الأوراق الذابلة أقيمت خيام صغيرة يشغلها أربعة أشخاص من الأولاد والبنات . فكانت الحياة هنا هي عودة للطبيعة كما نادى جان جاك روسو . فهم قذرون . شعورهم منسدلة حتي كتوفهم . وتطول لحاهم وأظافرهم الوسخة . ويتقاسمون الطعام والفراش.. وما يصطادونه من الأرانب البرية والطيور . أما النظام الذي يحكم مجتمعهم الصغير هذا .. فهو ألاّ يكون هناك نظام .. فهم اصلاً ضد الروابط الإنسانية كما أخترعها التاريخ الإنساني عبر كل حضاراته . فهم يرفضون الأفكار والمشاعر الرقيقة وكل أصول التهذيب ويعتبرون أن كل هذه المسلمات التي تعارف عليها الإنسان الحديث ، ما هي إلاّ كوابح .. فالحضارة كلها .. هذا الأختراع الهائل ما هو إلاّ حاجز وحائل يحول بين الأنسان والحقيقة الطازجة البريئة .

.. هذا مجمل ما قاله الأولاد لسليمان .. حينما جلسوا حول نار أشعلت .. احتفالاً بهذا الضيف الذي جاء به مارسيل . ودار الحديث في تدفق وكانت الأرانب تشوى على السفود .. وقد لاحظ

سليمان أن الأولاد يتناولون حبوب الهلوسة .. ويقولون أن هذه الجرعات تجعل الوعي نافذاً مما يمكنه من توسيع المشهد .. فتتعمق أبعاد الرؤيا.

*

وقبل منتصف الليل بقليل .. سمع السمار صرخة حادة . شقت الصرخة قلب الليل . وانتفضت الجماعات في رعب .. وجروا بأتجاه الصرخة .. وشل الرعب سليمان .. إذ كان فتي أحمر الشعر يمسك بسكين ويمزق بطن فتاة .. ثم يدخل يده في أحشائها .. ويسحب طفلاً كامل النمو .. يقطر دماً .. ماتت الفتاة والطفل في لحظة واحدة .. وغطيا ببطانية رثة . وكان الفتى القاتل .. يضحك حيناً ويبكي حيناً.

لقد هزّ هذا الحادث الجماعة كلها . وكانت الصدمة التي تولدت عنه قوية لدرجة بعثرت كل الأفكار .. وكل القناعات التي كانت تمثل قاعدة صلبة لتماسك هذه الحياة التي ظنوا أنهم قد صنعوها بشكل أجمل وأفضل . فكانت هذه الصدمة قاسية وضعتهم وجهاً لوجه أمام حقائق الحياة المغايرة.

.. كانوا مثل آنية زجاجية هشة كسرتها هذه الضربة فتناثرت قطعاً من الحزن والذهول .. فأصبحوا مثل قشة في مهب الريح .. أصبحوا أمام اللاجدوى وجهاً لوجه .. فماذا يجدي الرفض دون إمتلاك البديل !.

أحاطوا بالفتى .. وخرجوا من مخيماتهم وساروا نحو باريس السعيدة بتباريح هواها ومشاعرها الحضارية الرقيقة . وعندما التقوا بالشرطة .. تفرق الأولاد في شوارع باريس دون أن يودعوا بعضهم

البعض .. ذهبوا الي بيوتهم يطلبون الدفء والحياة الهادئة والحنان الأسري وهم يشعرون بأن شيئاً ما بداخلهم قد إنكسر ولن يندمل الي الأبد !.

*

.. وقال كاترين .. ألم أقل لك .. ليست الأمور هكذا . فلابد من أن يحل النظام محل الفوضى!.

.. قال مارسيل .. كيف يكون التغيير اذاً !.

.. قالت كاترين .. يكون هدماً وبناءاً !.

.. قال سليمان .. كل هذا لا يجدي ! .. العقل وحده لا يوصل لشيء . ولا القلب .

قالت كاترين .. ما الذي يجدي !.

قال سليمان .. العراك المستمر في بسالة !.

قال مارسيل .. ولكن كيف !.

قال سليمان .. الحب .. والحرب .. والسجن .. أشياء لا ينفع معها الحكي .. هي مواقف ننخرط فيها .. نخوضها حتي الموت !.

.. واطرقت كاترين .. وشمل مارسيل رعب بارد . وصمت سليمان صمتاً قاسيا !.

*

وتوالت الأحداث .. وكانت أيام سليمان ولياليه تدور كالمعتاد .. ولكنها الآن تأتي كما يتفق .. وتقبض يد سليمان على حفنة رمل . تعتصر اليد الرمل ويتدفق الرمل ذرة فذرة ، وتقبض اليد على الريح واللاشيء .. ويتفكك الزمان ، ويتبعثر سليمان في فضاءات الزمان والمكان ، فهو هنا الآن .. وهناك زمان .. ويدور سليمان .. يدور مع

الحياة والموت اللذين يشتبكان في صراع النقيض والنقيض . ويأخذ سليمان .. في زمان ما .. مترو الأنفاق المتجه نحو بوردو . بيت مدام تريزا .. وهو يتحدث مع خادمها العجوز .. لعل أسمه قد كان ماثيو .

*

كان العجوز الخادم ماثيو يجلس أمام سليمان .. عيناه جاحظتان .. يهز جسده كله ويستعين بعضلات وجهه في التأكيد على كلماته . ورغم الغضون التي تكسو الوجه كله إلاّ أن هناك نضارة من بقايا ماء الشباب .. كانت تتدفق بقوة حبه الشديد للحياة . ومن الواضح أن العجوز قد عاش حياة صعبة .. خشنة وقاسية . ولكنه كان دائماً يتقبل هذه الحياة في رضاء . مما أعطى روحه فتوة وحيوية . فلم يكن العجوز ليخلط بين الحقائق والأوهام . كان يتقبل حقائق الحياة كما تقدم له نفسها.. وكان في ذات الوقت يتقبل حقائقه هو الخاصة كما كان في ذات الوقت أيضاً يتقبل أوهامه ويحياها بوصفها ضرباً من التعبير عن حقيقته هو الخبيئة . فالحياة عند العجوز تحتاج للوهم الجميل الذي يجعلها جديرة بأن تعاش .

*

تنهد العجوز عميقاً ، وقال وهو ينظر عميقاً في عيني سليمان .. ان الوقت يا صديقي قصير جداً .. ولا وقت لدينا نحن البشر لنضيعه فيما لا طائل وراءه ... لقد كان هذا الذي أسرده عليك الآن قد حدث منذ عهد بعيد .. كان لي أخ توأم .. ولد قبلي بربع ساعة .. وقد أعطته هذه الربع ساعة مميزات وقدرات ميزته عني . لقد كان اكثر ذكاء وحكمة .. وكانت روحه ضخمة قادرة على الحلم والتوهم .. أما أنا فقد كنت حسياً .. أتعامل مع الأشياء بشكل مباشر فكانت

الحياة تعطيني نفسها في يسر وبلا تعقيد . لقد بادلت الحياة حباً بحب . فكانت كريمة معي ومخلصة في عشقها الحسي .. فلم تصبني الأرياك .. قط . فما كنت أرى لها الاّ وجهاً واحداً يشيخ ويكتهل بنفس مقدار الزمن الذي أشيخ فيه . أما توأمي .. سانتياجو فقد كان شاعراً وحكيما وكهلا . كان يستمع لصمت الغابات .. وكان يعرف مما تتألم العصافير والقطط . كان يقول لي دائماً .. «أن وراء هذا العالم عوالم أخرى» .. كنا أصدقاء .. نتبادل الحب والأسرار . وعندما بلغنا سن العشرين .. قررنا أن نتزوج في يوم واحد . ارتبطنا بفتاتين توأمين أيضاً . وبعد أن غنينا ورقصنا وشربنا شراب الموز المعتق والتهمنا أطباقاً من أفخاذ لحم الخراف .. وجدنا نحن الأربعة انفسنا في بيت الزوجية الذي تشاركناه جميعاً . ولكن سانتياجو بدأ يتغير منذ الليلة الأولى.. وقد استطعت أن أخمن الأمر . ولم أتأكد من ظنوني الاّ بعد موت سانتياجو بمدة طويلة .

لقد حدث خطأً ما .. لقد تبادلنا زوجتينا .. ولم يكن هذا كبير شأن بالنسبة لي . أما سانتياجو فقد كان يحب الأخت التي أصبحت من نصيبي بالخطأ . وكنت استخف بكل المسألة وأرى أن الأمر يمكن علاجه .. كأن يسترد الفتاة التي يريدها . ولكنه لم يعطني فرصة .. لقد منعني حتي عن الأشارة تلميحاً . فلم أجد أمامي إلاّ أن آخذ الأخت التي أحبها .. وأن أترك له زوجتي.

.. لست أدري .. كيف اكتشف سانتياجو المسألة متأخراً . بعد أن قضى معها ثلاث ليال .. وفي صباح الليلة الأخيرة علق نفسه بحبل فوق شجرة البرازيليا أمام البيت . ومازلت حتى الآن حزيناً رغم مرور كل هذه السنوات .. ورغم موت الأختين فيما بعد . لا تظن بي سوءاً

.. فلست حجراً .. بل أنني أحزن .. وأفرح .. بكل عمق الإنفعال اللازم .. فقط .. أنا أقبل ما تقدمه لي الحياة.. وأعرف أنني سأموت يوماً . وحتى هذه الحقيقة البسيطة والمؤكدة لا تفزعني ولا أقيم لها وزناً خاصاً . لعلك تظن أن علاقتي مع تريزا .. هي بسبب أنها تدفع لي . لا .. ليس الأمر هكذا .. هي إمرأة مسكينة .. تعاملني برقة ولطف .. رغم خشونة طبعها .. وأحياناً كثيرة توجه لي إهانات وعبارات جارحة .. ورغم أنني لست شاعراً ولا حكيماً .. إلاّ أني أعرف .. أنها تتعلق بي تعلق الغريق بالقشة .. ليس لها أحد تحتمى به من وحدتها وشيخوختها .. بشكل عاطفي أنثوي خاص .. أما الجنس فهو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن أشياء لا يمكن التعبير عنها إلاّ عبر الجسد . وهذا ما عرفه سانتياجو من قبل ..ان تلك التوأم ليست هي أمرأته ..

.. كنت طوال ربع قرن محتاراً في الطريقة التي أوصلت سنتياجو للحقيقة .. أنها معرفة الجسد .. وليس معرفة الروح . أنني عندما لا أعرف شيئاً أريد معرفته أعرف أن الروح هي التي تعاكس الجسد وتشوش عليه .. ولكن سنتياجو كان يعتقد ان الجسد هو الذي يشوش على الروح في أن ترى بشكل أعمق . وأظن لهذا السبب قتل سانتياجو نفسه .

*

صمت العجوز برهة .. ونظر في عيني عميقاً .. وقال بصوت حذر هامس .. كما لو كان عرافاً.. أنت مثل سانتياجو .. وأظنك ستقتل نفسك يوماً لذات الأسباب !.

إمتلأ كف سليمان رملاً .. زحفت الشمس وتسلقت كبد السماء . أشتد الهجير .. وصاعدت الصحراء درجات حرارتها القصوى .. وامتلأ صدر سليمان بالظمأ الجاف .. ترى تحققت نبوءة ماثيو ! .. لا .. لقد كان العجوز الخرف يهرطق .. لا غير .. أنني تائه وضائع وسط الصحراء.. ولست منتحراً .. كلما في الأمر أنني سلكت الطريق الخاطيء .. «أن وراء هذا العالم عوالم أخرى».. كنت مشدوداً ومدفوعاً بقوة أقدار خفية للبحث عن تلك العوالم الأخري .. ربما تكون هي هذه غلطتي القاتلة .. ولكن .. من أنا ؟ .. لأعرف الخطأ الأكبر أو الصواب الأكبر ..! .. لست إلاّ ذرة رمل في هذا المحيط المائج بالأسرار الكونية الدقيقة ! التي تحركها إرادة عليا فوق ارادات البشر!.

.. تسرب الرمل ذرة .. ذرة فذرة . واندفعت الريح تحمل فوق كتفها رمالاً مسحوقة كالدقيق.. وأخرى خشنة وحادة كالأبر . وكانت الصحراء تمتد في صمتها الأصفر الوهاج الحار حتي أمتداد الأفق . فكان سليمان يدخل بطيئاً في موته الخاص . فكان الوعي يتراجع للوراء ويعيش في الزمن الماضي حتي.يفك حصار زمن الموت الذي يضج في العصب والعظم والدم والذاكرة . لقد دأب سليمان على الهروب من حصار الزمن .. كان يختبيء حينما يكون محاصراً بالراهن .. وكان يعرف برهافة حسه الباطني أنه دائماً ما يهرب من أمام شيء ما .. وحينما يختبيء ويتوارى من أمام هذا الشيء الذي يطارده يجد نفسه بالمثل مُطارداً لشيء ما .. فالأشياء تبحث عنه حينما يختبيء .. وهو يبحث عنها عندما هي تختبيء بدورها .. ومن ثم يتحول الوضع كله حينما يصبح سليمان الصياد والفريسة . لقد

إكتشف سليمان في ذاك الوقت، ، حينما التقى براقية سليم في تجربة الحب الأولى.. هذه المطاردة .. وحينما اشتبكا في أفعال الغرام الجسدية خلف سور مدرسة بيت الأمانة الثانوية .. كان جسد سليمان

قد إحتفظ منذ ذلك الوقت بهذه الذكري .. كان جلده يمتليء من الرأس حتي ظفر القدم .. لقد كانت معرفة الجسد تحتفظ بجسد هذه المرأة العجوز الصبية نابضة حية وممتلئة بالرحيق مثل لحم برتقالة . وفوارة بالرغبة المتجددة المائجة في الياف جهازها العصبي حتي جلدها الذهبي ذي الأريج . وعندما إمتلأ سليمان بالصبية العجوز راقية سليم، فتشكلت المرأة بشكل وهيئة هذه الرغبة ذاتها .. أخذ سليمان يبحث عن راقية سليم .. جاب كل أحياء أم درمان العشوائية.. وهناك عند ديم كسلا .. شرق مدينة الحاج يوسف .. وجدها قابعة داخل قطية من القش .. تعاني من حمي الملاريا . كانت تغطي جسدها النحيل بخرق ملونة رثة كالحة . كانت تنظر في عينيّ دون أن يبدو عليها أنها تعرفني . ومن النسيان .. من الماضي انتشلت تلك اللحظة تلك اللؤلؤة البراقة .. دفعت بتلك اللحظة التي حدثت خلف سور المدرسة الي الحياة .. حركت اللحظة مثل إسطوانة .. ودارت اللحظة .. وأشتبكنا معاً .. أنا وراقية سليم في فعل الحب .. أغمضت عينيها فكان الحب الجسدي يختلط بالحمي وبالبرد النافذ حتي العظام وبارتجافات الدم المكسر في خلايا البلازما. ولم يكن الإصرار الإرادي مجدياً.. فقد تلاشت تلك اللحظة المنسية والتي أعيدت للحياة قسراً .. وخسر سليمان اللحظتين .. خسر تلك اللحظة الذكرى .. التي كانت وردة تنمو وتتبرعم في النسيان وتجدد نفسها باستمرار .. وهاهي الوردة تذبل ولا يبقى منها شيء .. لا الشكل ولا الأريج . وامتد الخسران فشمل حتي هذه

اللحظة التي أجهضتها محاولة إبتعاث الماضي .. ونهض سليمان .. الذي أضاع شيئاً كان عزيزاً فيما مضى .. لقد أفقده الطمع كل شيء .. فماتت راقية سليم ذاك الضحي الي الأبد . ولم تجد محاولات سليمان في البحث عن الزمن الضائع فقوة الأشياء تعمل ضد التكرار والإفتعال فقدرات نفي النفي لا تصنع إلاّ الجديد.

*

كانت الريح الرملية نشطة تهب أمواجاً أمواجاً .. وجسد سليمان تحت الصهد والهجير والتعب والموت يناضل مثل نبتة تجاهد جذورها وعروقها الرهيفة وتنغرس في لحم الأعماق الباطنية لتستمد شيئاً من الحياة .. ولكن الموت كان يمشي ظلاً أسود رطباً فوق ذاكرة سليمان .. ويمسح بأظافره المغنطيسية تلك الأحداث .. يزحف ليمحوها لحظة لحظة .. ولكن نور الحياة الذي لم ينطفيء بعد كان يدفع بالأحداث للحياة وللدوران فيمتلئ رأس سليمان حيناً وبالأصوات حيناً إلا أن مصير انبثاق الأحداث في الذاكرة قد كان مرتبطاً بأقدار التدوين التي سبقت هذه العاصفة التي محت كل أثر فوق الرمال . لقد كانت الموت المطلق المختبئ في الحياة منذ ميلاد سليمان يعمل في الخفاء .. فلم تكن الذاكرات لتدون كل شيء .. فالذاكرة لا تدون الاّ ما تهتم به .. فهي تختار الصور التي تريد تدوينها .. وتفعل تلك .. فهذا اللا تحدد هو طبيعة من طبيعة الوعي الإنساني .. وهكذا كانت الفجوات بين مسار الشيء والشيء .. وما هذه الفراغات .. هذا التفكك في جريان الأحداث في الحياة إلاّ الصراع بين هنا وهناك .. بين الأمس والآن!.

وداخل دائرة فوضي الزمان .. رأي سليمان وجه فرانسواز ..

كان يركب تاكسياً وعبر الزجاج رأي سليمان فرانسواز تقود سيارتها البيجو في تقاطع الشارع الذي يعبره التاكسي . لم يكن قد التقى بها منذ ذاك الضحي حيث نزهتهما عند قبر كاترين التي انتهت بفراقهما وانفصال حياتيهما. وطوال مدة طويلة .. كانت فرانسواز تبحث عن سليمان .. وكان سليمان مشغولاً باجراء ت عودته للخرطوم .

*

في ذاك الضحى .. ذهبت فرانسواز الي بيتها دون سليمان حيث انتهت الحياة المشتركة بينهما .. وعندما دخلت فرانسواز شقتها .. شعرت بوحدة قاسية .. فتريزا هناك في بيتها في بوردو . ومارسيل الذي قتل نفسه .. لم يترك لها إلاّ كومة أوراق .. ما كانت لتعرف طبيعتها .. أن كانت خطاباً .. أم مذكرات شخصية .. أم هي رواية أدبية خيالية ، أم رواية مشتقاة حوادثها من صميم حياته الشخصية !! .. فلم تجد هذه الأوراق من فرانسواز إلاّ الإهمال . كانت محاصرة بالوحدة حتى عظامها.. وهي تريد إن تعيد علاقتها بسليمان .. بشكل جديد وصورة جديدة . لقد كفت أن تكون إلاّ نفسها .. وبما أن علاقتها بسليمان .. تقوم الآن علي حاجتها اليه بوصفها كائناً متوحداً .. وأمرأة تحتاج لحماية رجل .. فستكون زوجة لسليمان دونما أي تعقيد . وها هي تجّد في محاولاتها .

ركبت فرانسواز سيارتها .. وأخذت تجوب باريس .. ذهبت الي بيته القديم في شارع فكتور هوجو .. ذهبت الي الحي اللاتيني .. ذهبت للسوربون .. وأخذت السيارة البيجو تلف وتدور حول الكونكورد والتوليري .. واللوفر ..!.. وضاعت فرانسواز في بحثها اللامجدي عن سليمان !.. وكانت البيجو البيضاء تأخذ شكل غيمة

من الحمائم عند شواطيء السين .. وشكل كتلة ثلجية عند قرى الشمال حتى تخوم غابات بولونيا . وعندما انطلقت السيارة على الأسفلت الريفي السريع كانت طائرة سليمان المتجهة نحو القاهرة تعلو .. والسيارة تجري على مسافة كيلومترات من مطار أورلي.

*

إستمر بحث فرانسواز طوال الشتاء والربيع والصيف .. وأزهرت أشواقها زهرة بنفسجية حزينة جداً .. ومن ثم شاع اللون الحزين المرح في كل باريس . فلم يكن شعور فرانسواز شعوراً مؤلماً .. بل كان ذاك الشعور الذي يلم بالمحبين الذين يجدون راحتهم العميقة في هذا الإنجذاب والوجد الذي يتألق فتيله بالاستحاله والفقدان . فكانت فرانسواز تبحث عنه في أشعار رامبو ومالارميه وبودلير وفي الروايات والكونشيرتات والسيمفونيات وفي لوحات بيكاسو ودالي وسيزان . كانت تبحث عنه في الظلال والأضواء وفي موج السين المتدفق وفي أمسيات باريس وفي النزهات . وفي الصمت والكلام.

وفي ذات الوقت .. كانت سيارات الرانجروفر عند تخوم أمدرمان الغربية تجأر وتجوب الصحراء بحثاً عن سليمان . كانت السيارات تلف وتدور .. تجري وتتراجع الي نفس مركز انطلاقها.. لقد فقدت السيارات الأثر حينما دفنت الرمال أي خيط يوصل الي سليمان . وعندما دخل الليل كانت مصابيح السيارات الكاشفة تمزق الظلمة والصمت .. علها تعيد الرجل الضائع للحياة مرة أخرى !.

في ذاك الفجر الذي وصل فيه سليمان للوطن كانت أم درمان مكسوة بغلالة من التراب الأحمر.. فكان الطقس أكثر ميلاً للسخونة .. فكانت وجوه الناس مغطاة بطبقة خفيفة من المسحوق الناعم الأحمر حتي رموش العيون أما شجرتا النخيل وشجرة زهور الجهنمي وشجرة التين الهندي فقد كانت مغطاة باللون الشاحب المنطفيء الخضرة . وعندما أحاط الأهل والمعارف بسليمان مهنئين بسلامة العودة .. كانت الوجوه تبدو مثل أقنعة من طين .. ويسيل العرق وتتشكل الوجوه بأشكال لا تكشف مكنونات أصحابها . فهم أصلاً ينفرون من إظهار مشاعرهم الحقيقية .. شئ قاهر وشديد القسوة كان يجعلهم يتخفون . أما حقائقهم العميقة فهي لا تظهر إلاّ مباغتة في هياج تصعب السيطرة عليه . فعندما يضحكون من القلب تجلجل الضحكات رقراقة صافية . وحينما يحبون يظهر الحب في بروق ضوء العيون الخاطف. فكانت أقصى درجات الشعور السعيد المرح .. هي تلك عندما تبلغ قدرة السيطرة وكبح المشاعر مداها . فكان تقدير الذات هو مطلبهم في الحياة . وفجأة رأى سليمان عيني رحيمة منصور .. كانت العينان تبرقان .. وتخاطبان سليمان .. وهما تقولان كل شيء بشكل عميق دقيق . إنفض الزائرون . وأخذ سليمان حماماً بارداً .. أنعش ذاكرته .. ولكنه رغم جهده الذي بذله لمعرفه الأهل والجيران .. لم يستطع ان يعرف هذه الفتاة التي حركت في صدره أشياء غامضة . وفي الوقت الذي أمضاه سليمان في حمامه .. كانت رحيمة منصور تقوم بمساعدة الحاجة حليمة عبيد في أعمال البيت . ورغم أن الحاجة حليمة عبيد قد كانت كفيفة البصر منذ مولدها .. فلم يكن هناك من يلاحظ هذا الأمر أبداً. فقد اعتاد إبنها منذ طفولته .. كما

إعتاد الآخرون على أن يتعاملوا معها باعتبارها مبصرة . فقد كانت طوال عمرها الستين تقوم بتدبير شئون البيت ورعاية زوجها عثمان. فكانت كل صباح تذهب الي سوق أم درمان الكبير وتشتري الخضر واللحوم وكل المؤن .. كانت تمشي شاخصة البصر .. مستقيمة القامة .. دون أن تستعين بعصاة .. ودون ان تمد يديها أمامها. كانت لها عين داخلية حادة البصيرة . هذا الي جانب ان لها حاسة شم نافذة وثاقبة . كان جسدها النحيل الجميل يسيطر سيطرة تامة على قدرته الذاتية في تحديد موقعه بين الأشياء .. فكانت حساسية البدن هي هذا الوعي الرآئي للعالم .. فبدنها النحيل يعرف الليل والضحى وغبشة الفجر ، يعرف لون الشجر وتعابير الوجوه .. وكانت هذه القدرة الباطنية الصوفية تعرف ما يقوله الصمت وما يسكت عنه الضجيج . فعندما كانت تقبع في حجرتها .. كانت تعرف ما يدور في مجلس زوجها عثمان .. حينما كان يجيئه الخواجة جون ماكنزي ، البريطاني. مدير النقل الميكانيكي ورئيس عثمان المباشر في العمل ، والشامي طوبياجرس، والمصري فاروق عودة والنوباوي دلدوم التوم .. كانوا يجلسون تحت شجرتي النخيل من أوائل العصر حتي الهجيع الأول من الليل . كانوا يشربون الجن بالليمونادة .. وينشدون أشعار وليم بليك وشكسبير والعباسي والمتنبئ وتوفيق صالح جبريل ويغنون أغاني حسن عطية .. ويتحدثون عن حرب فلسطين . فكانت حليمة عبيد في عمرها العشرين .. تقوم بشواء السمك العجل وبتحمير شرائح البطاطس والدجاج .. تعد صينية العشاء وتغطيها بالطبق المضفور من السعف .. وتذهب لغرفتها لتنام . وفي أحلامها كانت تصحو مرعوبة .. كانت تخاف أن ينالها أحدهم إذ أن عثمان زوجها كان ينام على

مقعده والرجال الأغراب يثرثرون . وتواصل نومها .. وحينما تشعر بحرارة الجسد الذي يلامسها .. كانت تخاف الاّ يكون عثمان . لقد عذبها هذا الشك طوال الأربعين سنة الماضية .. رغم أن هذه المجالس قد فضت بموت زوجها في أوائل الخمسينات .. فكان بدنها يفشل في الوصول الي صاحب الجسد الحار الذي يقض مضاجعها . وطوال هذه المدة لم تشر لهذا ابداً .. فكلما مرّ بها هذا الهاجس كانت تقرأ سورة (أعوذ برب الناس) .. وتصلي صلاة حارة . وتتعوذ من هذا الوسواس

كادت الحاجة حليمة عبيد أن تقطع أصبعها إذا سهت .. فانتبهت مستيقظة حينما أتاها صوت رحيمة منصور قائلة « .. سوف أذهب الآن للجامعة .. سوف أحضر في المساء ..» .. قالت الحاجة حليمة .. «بارك الله فيك» .. إنصرفت رحيمة منصور . وفي الوقت الذي كان سليمان والحاجة حليمة يتناولان أفطارهما .. قال سليمان .. لم أعرف هذه البنت .. من هي ؟ .. قالت الحاجة حليمة بنت عمك منصور .. هي من أقربائك لابيك .. أهي طالبة ؟ .. ضحكت الحاجة حليمة .. وقالت .. أتعجبك ؟ .. ثم اضافت هي استإذة بجامعة الخرطوم .. كانت صغيرة عندما سافرت أنت الي فرنسا . وطوال مدة غيابك كانت معي دائمة السؤال عنك ! .. إنها تحبك كثيراً !.

*

وبعد شهرين أخذت العلاقة بين سليمان ورحيمة تتوطد . فقد عرف سليمان أنها تدرس الأدب الفرنسي بجامعة الخرطوم .. وأنها الآن تعمل في رسالة الدكتوراة عن الأدب الفرانكفوني . كانت تحدثه عن رواية أندريا جيد (مزيفوا النقود) وعن الرواية (نقد الرواية) .. ووقتذاك يغمره إنفعال حار كذاك الإنفعال الذي يحسه عندما يكون

مع سالم البدري . وتري رحيمة الإرتعاش الخفيف في صوته فتغير مجري الحديث .. فتجيء ذكرى نجوم السينما .. بلومندو وباردو ويصمت سليمان .. فها هي أنوشكا تجيء بشعرها الناري وبحضورها الأولي والعفوي .. وتجيء كاترين وسونيا حين الحديث عن ارتباط الأدب بالأجتماع والسياسة . فكان سليمان يصمت . وكفت رحيمة عن مثل هذه الأحاديث.. وعرفت أن ذاكرة سليمان تعمل بآليات النسيان . أما سليمان فقد عرف أن رحيمة منصور هي خلاصة التجربة كلها .. فيها تجتمع كل نساء العالم .. وفيها تتركز كل المشاعر.. لقد عرف أنه أحبها .. الاّ أن هناك شيئاً غامضاً يقف بينه وبينها ! .. كان سليمان يخشى في ذات الوقت من ذاك التعقيد الذي طبع علاقته بكاترين .. ثم فرانسواز فيما بعد . كما أنه كان قد تعلم أنه لا جدوى من إعادة تكرار..؟ اللحظات التي كانت قد مضت ! لقد حزن كثيراً لضياع ذكرى حبه الصباحي .. عندما حاول بعد عشرين سنة أن يبعثه .. وحينما التقى براقية سليم بأطراف ديم كسلا كان قد فقدها الي الأبد .. !! .. فلماذا إذاً يجعل من رحيمة منصور الخلاصة والبديل !! لماذا يعيد سليمان مشاعره القديمة إذ يجعل من رحيمة وسيطاً ومن ثم فهو يلغيها بالكامل .. كما لو كان يجعل الحضور غياباً والغياب حضوراً .

.. طال الصمت .. فكسرت هذا السطح المتصلب رحيمة منصور .. إذ قالت .. أما عن رواية بروست (البحث عن الزمن المفقود) . فالروائي كلود سيمون .. يقول «البحث عن الزمن المفقود عنوان رائع من الوجهة الشعرية . لكنه خال من المعنى فما من أحد يستطيع أبداً العثور على الزمن ولا إنتاج الواقع من جديد . كل ما

يمكننا عمله هو إنتاج صور لها علاقة بالصور أو بالذكريات الأصيلة . لكنها تختلف عنها بقوة الأشياء .».

لم يهتم سليمان كثيراً بحديث رحيمة حول الأدب . ولكنه قد فهم من حديثها ضمناً .. أنها لا تريد ان تكون موضعاً لإسقاطات مشاعر ماضية .. ولهذا قال سليمان .. هذا مؤكد .. وسليم جداً. ولكننا لا نحدد للناس طرائق ومواضع مشاعرهم . فما الناس إلاّ تاريخهم .

قالت رحيمة .. ولكنهم قادرون على تجاوز انفسهم .

قال سليمان .. كل منا يختار صورته .

قالت رحيمة .. أن نختار الصورة الحقيقية .

قال سليمان .. أن الظروف قد تضطرنا أحياناً أن نختار الوهم الجميل .

قالت رحيمة .. هذا هو الإختلاف بين التأريخ والأدب .

ضحك سليمان .. ضحكاً كثيراً أثار حفيظة رحيمة .

قالت .. ما بك !.

قال .. لقد سمعت هذه الجملة بحذافيرها من صديقة يوماً ما . الاّ يكفي هذا لأدلل .. أننا إن لم نعد إنتاج الماضي .. فهو سيعيدنا لنفس النقطة التي تركناها خلف ظهرنا .

*

لم تشعر رحيمة باليأس أبداً . ولكن عليها أن تصبر قليلاً على هذا الرجل .. فذاكرته تعمل بشكل مضاد للحياة . ولأنها تشعر بحب عميق نحوه .. فهي سترافقه الطريق مهما كان شاقاً وطويلاً . ووطدت رحيمة نفسها على الصبر.

*

.. دخل سليمان غرفته .. وأتي بمظاريف تحوي أوراقاً . وضع سليمان الأوراق أمام رحيمة . وقال ..

.. أريدك أن تساعديني في أمر يهمني كثيراً .

.. قالت رحيمة .. هات ما عندك !.

.. قال سليمان .. هذه أوراق خاصة بي .. كنت ادون فيها آرائي والأحداث الحميمة التي خبزتها. ووضع سليمان مظروفاً ضخماً أمام رحيمة.

وقال .. أما هذه .. فهي مخطوطة رواية كتبها صديقي سالم البدري .. ولكنها كلها تزيفنا وتصورنا نحن أصدقائه بصورة غير حقيقية ..

ثم وضع سليمان مظروفاً ثالثاً .. وصمت .

قالت رحيمة .. وما هذه ! .

قال سليمان .. هذه مذكرات صديق .. اسمه مارسيل .. إنتحر بسبب الحب .

قالت رحيمة وهي تقلب الأوراق .. ماذا تريد بالضبط .

قال سليمان وعيناه مذهولتان .. أريدك ان تقومي بترجمة الأوراق من الفرنسية الي العربية..

قالت رحيمة في دهشة وحيرة .. ثم ماذا بعد ! .

قال سليمان .. أن تعيدي ترتيب هذه الأوراق .. وأن تعيدي صياغة الأحداث والأشخاص في صورها الحقيقية !! وسوف أعطيك كل المعلومات والوثائق .

.. ضحكت رحيمة .. وقالت أتريد أن تحولني الي كاتبة

روايات .. مثل صديقك سالم البدري ذاك ! .. وبعد صمت .

قالت رحيمة .. ولكن ما جدوى كل هذا .. فسالم البدري قد كتب روايته ونشرت وانتهي الأمر!.

قال سليمان .. ولكنها رواية غير حقيقية ! .

قالت رحيمة .. بمعنى ! .

قال سليمان .. إنها محض خيال ! .

قالت رحيمة .. ولكن الروائي ليس مؤرخاً .

قال سليمان .. ولكن الواقع أقوى من الخيال .

وبما أن رحيمة كانت قد قررت أن تلعب دورها حتي النهاية .. فقد وافقت على أن تنفذ لسليمان هذا الطلب .. الذي أصبح بالنسبة لرحيمة مادة تساعدها في تحضير رسالتها .. وهذه هي النقطة العملية والصلبة في لعبة سليمان الأدبية . ومنذ ذاك اليوم تفرغت رحيمة لهذه المهمة بحب شديد كان ذاك دافعاً يدفعها للعمل حتي ساعات متأخرة من الليل .

*

إنقضى شهران .. ولم يلتق سليمان ورحيمة .. كان كل منهما يتجاهل الآخر .. كانا ينكران أن بينهما حباً . رغم أن رحيمة لم تنقطع من الحضور لبيت الحاجة حليمة . كان كل منهما يتصنع بأنه مشغول .. فرحيمة تعمل في مراجعة وتحقيق تلك الأوراق .. فهي رغبة سليمان التي وجدت إستجابة .. وسليمان يتعب في العمل في الورشة الميكانيكية .. إذاً فلا خصام هناك البته .. وهذا ما كانا يقولانه في سرهما.

ولكن تغيراً عميقاً يشمل سليمان .. فقد طال شعر ذقنه ..

وجحظت عيناه . أصبح رث الثياب.. يمشي هائماً . ثم أخذ يتغيب عن الحضور الي البيت .. كان يغيب ليلتين أو ثلاثاً . ولم تتحدث رحيمة والحاجة حليمة حول هذا الغياب أبداً . كان يعود فجأة .. ينام قليلاً .. ثم يقضي الليل في الصلاة وقراءة القرآن . وعندما تدخل رحيمة في خلوته تجد سليمان منهمكاً وسط كتب ابن عربي والنفري والغزالي .. وهو يكاد لا يراها في البدء .. وطوال هذه السنوات التي أنضجت الرجل.. كان سليمان بارعاً جداً في العيش في العالمين .. عالم المرئي وعالم اللامرئي .. كان يدخل في حالة ويخرج من حالة .. كان مثل شاعر أتاه الشعر .. يتوتر .. يمتليء بالفيض حتي يضيق جسده عن إستيعاب روحه الضخمة المتفجرة .. ثم يهبط من ذاك البرزخ الي الدنيا في عاديتها .. وفي الحالتين كان مثل حجر ملموم ومصمت بسره الذي لا يقال .

*

وفي فجر الجمعة قاد سيارته .. وأخبر الحاجة حليمة بأنه خارج في رحلة صيد . وانتظرت المرأتان حضوره حتي منتصف الليل وفجر السبت .. وكانت الحاجة حليمة موقنة تكاد ترى رؤية العين أن هناك أمراً ما يحدث لابنها .. فكانت تخرج للشارع حاسرة الرأس .. ثم تعود فتقف عند باب الحوش .. كانت تروح وتجيء مثل بندول الساعة !! .. ترى أين ذهب ! .. أهو مات في حادث !.. وكانت رحيمة تعمل على تهدئة روعها .

*

أما فرانسواز .. فقد ذهبت لحي سان جيرمان .. التقت بسالم البدري وأنوشكا .. واتفقوا على أن يبحثوا كلهم عن سليمان .. وأن

ينطلق كل نحو جهة ما .

*

إنقلب حال فرانسواز رأساً علي عقب . فكانت في بحثها عن سليمان لا تعرف أن كانت هي حقاً تبحث عنه أم هي تبحث عن نفسها . فكان رأسها يمتلئ بشئ كالدوار والظلام .. فحجبت ظلال هواجسها الكثيفة كل الحقائق المتعلقة بها هي نفسها والتي تمثل في ذات الوقت الطريق الذي يوصلها الي سليمان . فوقعت في فخ المتاهة .. وأصبحت مثل طائر حبيس تبحث روحه الشقية عن المخرج الذي يطلقها في الفضاء ، فكانت في بحثها الدؤوب واللامجدي تدور في ذات الزمان والمكان . فكانت روحها تجوب الأزمنة المفقودة .. وكانت سيارتها الزرقاء تنطلق تجوب باريس كلها . فذهبت لقبر كاترين تحت السنديانة . وذهبت لماثيو في بوردو . وذهبت للمولان روج .. اللوفر .. مركز الدراسات العربية .. وكانت روحها الضالة قد ضللتها فلم تذهب لسفارة سليمان لتعرف . كانت تذهب الي الأماكن الخطأ. ثم أخذت سيارتها تقطع المسافة والمسافة ثم تكرر العودة والذهاب .. قدر ما كان قد حكم عليها بان تحمل الصخرة فوق ظهرها حتى أعلى الأمكنة وأقصى الأزمنة .. ثم تقع الصخرة من بين يديها المزرقتين بالمشقة .. وتسقط الصخرة الي الأسف .. فتعاود فرانسواز حمل المشقة ذهاباً وأياباً . ثم تركز نشاطها في الذهاب الي شقة عثمان في شارع فكتور هوجو . ثم العودة الي شقة كاترين .. كانت مثل أبطال صومئيل بيكيت .. الذين ينتظرون ما لا يأتي ابداً . وعندما كانت تسترخي فتستجم .. كانت تقلب اوراق مارسيل دونما اكتراث .. ولكنها عند الصفحة قبل الأخيرة قرأت .. «عندما يبلغ

الإنسان منا حافة اليأس .. فهو يتخلص من كل الورطة .. أما بالإنتحار وأما بالجنون ..» .. وكما لو جدت أشارة ومفتاحاً للمعضلة .. قفزت .. وانطلقت سيارتها باتجاه مستشفى الأمراض العقلية الحكومي .. أوقفت سيارتها أمام باب صغير أسود حوله أسوار رمادية عالية .. وفوق الأسوار اسلاك شائكة مثل غصون جفت وفقدت الحياة الي الأبد ! .. نزلت من سيارتها .. وكانت ترى أمامها طريقين .. عليها أن تختار أحدهما .. أن ترجع فتتراجع للحياة هناك على الضفة الأخرى .. حيث الأشياء هي الأشياء .. أن تعيش اليوم وأن تواجه نواميس الواقع .. او أن تغامر حيث الأشياء ليست هي الأشياء .. عليها أن تختار المرئي .. أو اللامرئي .. المحسوس والمجرد .. واندفعت .. ومن الباب الصغير الأسود دخلت في عالم الليل البهيم .

*

.. في الثامنة مساء .. جلست أنوشكا وأخذت تلعب على البيانو .. وكان سالم البدري يكتب روايته .. إندفعت النغمات رقيقة حذرة تتلمس طريقها لتندغم في اللحن العام .. ثم هاجت واصطخبت .. تصاعدت في عنف .. عصفت فأهتزت ستائر الجوخ الأخضر الثقيلة . وملأ الخوف أنوشكا وسالم في وقت واحد .

.. كانت العاصفة تدمدم .. وتعوي .. وكان سالم ينظر باتجاه أنوشكا وهي تنظر جهته .

.. قال سالم .. لم تتصل بنا فرانسواز .

.. قالت أنوشكا .. لن تتصل ابداً .

.. قال سالم .. لماذا !.

قالت أنوشكا .. كنت أخالك تعرف ! .

.. قال سالم .. أعرف ماذا ؟

.. قالت أنوشكا .. لا شيء .

.. قال سالم .. ماذا .. ماهو ذاك اللاشيء تحديداً ! .

.. قال أنوشكا .. رأي .. انك تعرف ما أعني .. أنني ببساطة أعني .. أنني أحب أن أحيا هذه الحياة كما تعطي لي .. أن أمارس حيويتي كما لو كنت شجرة تنمو . فأنا لا أذهب بعيداً مثلك و مثل الآخرين . قل لي .. هه .. هه .. ما هو ذاك الحب الذي تكتبون عنه .. روايات .. سينما .. شعر .. هو في النهاية .. هذه الحياة البائسة الواقعية .. العرق ، الغبار الغيرة.. الفلوس. الشعور بأهمية الأنا.. وفي النهاية .. لا شيء البته .

.. قال سالم .. هذه هي أنت ! .

.. قالت أنوشكا .. كلنا سواء .. أنتم تخدعون أنفسكم . فأنت مثلاً .. تتأرجح مثل من يمشي فوق حبل .. لم تستطع أن تحيا الواقع .. ودفعت بنفسك نحو ذاك الشيء .. الفن .. !! وتدعي أنك تكتب الواقع .. قل لي .. ما هو هذا الواقعي فيما تكتب . أنت تكتب أساطير .. لا تعرف لها تفسيرا أنت نفسك .. أنك ببساطة تلهو . وكل الذين يدعون تذوق الفنون يلهون .

.. قال سالم .. إذاً لماذا تخافين ! .

وضربت أنوشكا على المفتاح .. وصعدت نغمة حادة واحدة .. ومثل سكين قطعت حبل تواصل الحديث .

*

وعندما أطفأت أنوشكا النور .. اندسا تحت الغطاء .. وأخذت يد كل منهما تبحث عن يد الأخر . تشابكت اليدان.. واستطاعا بهذا

التضامن أن يواجها هذا الخوف البارد كحد السكين . وكان كل منهما يتحدث لنفسه في صمت .. كانت أنوشكا تقول .. «أعرف أن سليمان ليس في باريس .. فلا جدوي من البحث عنه» ..

.. «سوف ابحث عن فرانسوز منذ الغد .» .

.. اما سالم فكان يحدث نفسه .. «كيف اكتب إذاً !!» .

وقالت أنوشكا تحدث سالم .. كل أبطال رواياتك يهربون ويتركونك وحيداً .

.. قال سالم ساخراً .. ما عدا أنت !! وضغط سالم على يدها .

*

دخلت فرانسواز عبر الباب الصغير الأسود . وفي أطراف الساحة زرعت اشجار عالية .. وراءها كانت مبان متلاصقة .. صفراء فاقعة .. ذات نوافذ مسورة بالحديد الأسود في شكل قضبان صليبية .. وكان الصمت عميقاً .. يتقطع حيناً بانبثاق همهمات وتأوهات مفاجئة تصدر من فراغ الصمت والرعب . وامتلأت فرانسواز بالخوف .. فكان الصمت والفراغ يولدان إحتمالات لا حصر لها.. كأن تجد سليمان فاقداً رشده يهزي .. أو كأن لا تجده الي الأبد . أو كأن تشملها هي ذاتها الشكوك والريب . فتحولت فرانسواز بكل تاريخها .. بهويتها الممتلئة بالحياة .. الملموسة والمؤكدة .. تحولت الي فكرة .. تحولت الي المجرد المحتمل الذي يتحول الي ملموس .. كأن يظنون أنها مجنونة.. حينما يتبدل الرقم برقم آخر .. وفي ذات اللحظة التي كانت ترى فيها فرانسواز هذا التجريد .. تناثر صمت المكان .. وتدفق صمت الجنون بالصخب العنيف .. فكانت الممرضات يهرولن جاريات نحو مريضة تحاول الهرب !!.. وتصرخ الممرضات ..

أمسكوا بالرقم (٤) .. فهي تحاول الهرب .. الرقم (٤) .. الرقم (٤) .
.. وعندما دخلت فرانسواز عبر الباب الأسود الصغير .. كانت تندفع في ذات اللحظة فتاة سمراء في ثوب أسود عبر فتحة الباب .. إذ دفعت الحارس دفعة قوية وقع من أثرها على قفاه .. وعم الهرج والمرج المستشفى. وإذ بفرانسواز تجد نفسها محاطة بالحراس وبالممرضات .. يلقون عليها ثوباً ابيض فضفاضاً .. تصرخ فرانسواز .. ويحقنوها بمخدر .. ويحملونها رخوة مثل وسادة.. وداخل حجرة مظلمة ذات قضبان يرقدونها على سرير تلك المريضة التي تحمل الرقم (٤). فتحولت فرانسواز الي رقم بين الأرقام .

*

وانطلقت السيارة اللوموزين الخضراء تجوب أنحاء باريس شارعاً فشارعاً . وكان سالم البدري يقول لأنوشكا .. ها هي ذي ! .. وتتوقف اللوموزين .. ينزل سالم وأنوشكا ويجريان خلف فتاة توليهما ظهرها .. ويصيحان .. فرانسواز .. فرانسواز . ويلحقان بالفتاة ..! .. وعندما يواجهانها وجهاً لوجه كانت الفتاة تظن أنهما مجنونان .. او لصان يطاردانها . أما الفتيات الأخريات فقد كن يتفهمن هذا الإلتباس .. أمام اعتذار سالم وأنوشكا . وعندما أصابهما الأعياء واليأس .. ذهبا الي مقهي صغير وسألا أحد الرواد فأشار عليهما بان يذهبا الي بنسيون مسيو أرتين. فشكرا الرجل وتوجها للبنسيون . كان بنسيون المسيو آرتين يقع عند الزاوية المقابلة للمقهى. وهو فيلا من طابق واحد . مطلية بلون برتقالي ذات سقف بنفسجي . قرعا جرس الباب واطلت إمرأة
طويلة وناحلة ذات أسنان مثلومة .. تبعها رجل ضخم .. مستدير الوجه وكان بياض وجهه مبقع ببقع حمراء . وبين أسنانه مبسم

كدوس ضخم يتصاعد منه الدخان .. أفسحت المرأة الطريق للزائرين .

.. وقالت وهما يهمان بالجلوس على كراسى الأنتريه .. المكان هنا هادىء .. وبسبب الصيف.. فالبنسيون خال تماماً . ماعدا شاب أفريقي وفتاة .

قال سالم .. أتينا لمقابلة المسيو ارتين .

.. جلس الرجل الضخم ذو الكدوس .. وقال .. أهلاً . ها أنا ذا!.

قالت أنوشكا .. نبحث عن صديقة نزيلة عندكم .

قال .. مسيو آرتين .. آه .. تلك الفتاة .

قال سالم .. ما اسمها ! .

قال آرتين .. لا اعرف .

قالت المرأة .. نحن هنا نتعامل مع النزلاء بأرقام الغرف . فهي الرقم(٤) .

قال مسيو آرتين لا أحد يدي . فليس لها مواعيد حضور محددة .

قال سالم .. منذ متي وهي هنا .

قالت المرأة النحيلة .. منذ ثلاثة أشهر .

قالت أنوشكا وهي تخاطب سالم .. أنها هي فرانسواز بالتأكيد.

وطوال هذا الشهر كان سالم وأنوشكا يحضران للبنسيون .. ويجدانها قد خرجت للتو . فيرابضان في المقهي المواجه لمدخل البنسيون . فكانت جلساتهما تطول وهما يتحدثان أو يتناولان مشروباً .. وفجأة يلمحان ثوبها المورد وهي تضع على عينيها نظارات سوداء

ضخمة تخفي نصف وجهها .. وفي عجلة ولهوجه يجريان ولكن الفتاة تختفي فجأة كأنها لم تكن موجودة اصلاً . كانت مثل الخيال أو الوهم . وفي الشهر الثاني قل حماس أنوشكا .. بل إمتلأ صدرها بضغينة مزدوجة نحو سالم من جهة ونحو فرانسواز من جهة أخرى . فأخذ سالم المسألة على عاتقه . وطوال الأيام التالية كانت علاقة أنوشكا تزداد سوءاً . فكانت أنوشكا تذهب لتصور أفلامها في الصباح الباكر وتعود مع طلوع الفجر اليوم التالي . وكان سالم قلقاً مكتئباً .. كان مبعثراً لا يقوي على التركيز الذهني اللازم الذي يمكنه من العمل في روايته .. كان يشعر بأنه يضيع شيئا كان موجوداً .. حتى الآن .. وأنه في ذات الوقت سيعثر على شيء كان ضائعاً طوال الوقت وفوق هذه الأرجوحة كان عقل سالم يضج بالصخب .. ووسط هذا الطقس نمت الكراهية ونما الحب في وجهتين متعاكستين . ومثلما كانت أنوشكا تخرج من طلوع الفجر وتأتي مع طلوع .. كان سالم يجلس في المقهي من طلوع الفجر حتي طلوع الفجر .. يشرب زجاجة خمر كاملة .

*

وذات ضحى وقفت الليموزين أمام المقهى . ونزلت أنوشكا . اتجهت مباشرة نحو سالم . شقت طريقها وسط دخان التبغ الكثيف المنعقد فوق رؤوس الرواد .. وسط صخب المعالق والصحون والضحكات .. جذبت مقعداً وجلست في مواجهة سالم . كان وجهه ذابلاً متهدل الجفون .. عيناه حمراويين .. كان سالم ينظر في وجه أنوشكا كما لو لم يرها في حياته أصلاً .

قالت انوشكا وصوتها يمتلئ بحزن عميق ...بون جون سالم.

.. قال سالم .. بون جور .

.. أخرجت أنوشكا تذاكر سفر خطوط البان أمريكان .. والجواز .. وقالت .. أتيت لأودعك .

.. قال سالم .. تسافرين الي أين !.

.. قالت أنوشكا .. هوليود .. عندي عقود تصوير لزم الإيفاء بها .

قال سالم .. متي تسافرين !.

قالت أنوشكا .. الآن .. نظرت لساعتها .. بعد نصف ساعة . لقد إنتهى كل شيء .. وامتلأت عيناها بماء ضبابي . ونهضت .. وهي تجري نحو الليموزين . وعندما انطلقت سيارتها.. كان سالم يبكي بكاءاً صامتاً .

*

لم يأت سالم الي المقهي .. وفي اليومين الأولين .. كان يشعر بالمرض فلزم سريره .. وعندما تحسنت صحته قليلاً أخذ يعمل في كتابة الفصل الذي يحمل عنوان «دوران الفصول الهادي» .. كان سالم يعرف ان صدره يمتليء بحب ضخم .. طاقة هائلة .. كان يحب كل من حوله .. وكان يكتب رواياته ليعرف هذا الحب .. ليعرف هذه الطاقة .. ليعرف في ذات الوقت نفسه كمحب والآخرين الذين يحبهم . ولكن كان هناك شيء يشوش عليه الأمر ويربك الكتابة .. وكان لوقت طويل يستمع لآراء نقاد رواياته عله يعرف هذا الشيء .. ولكنهم ما كانوا هم بدورهم ليعرفوه .

.. ومثلما يشعر الإنسان بتفاوت درجات الحرارة وخفوت

درجات الضوء في أعقاب تتالي دوران الفصول الهادي .. كان سالم يشعر بشكل غامض مبهم .. بحب شديد نحو أنوشكا عندما تكون أنوشكا متعلقة ببطل أفلامهما بلوموندو .. أما حينما تتعلق أنوشكا بسالم .. فكان سالم يحب كاترين .. وهاهي الدورة تبعد نفسها فعندما تعلقت به أنوشكا الآن كان هو يتعلق بفرانسواز التي تعلقت بسليمان بشكل بطولي لا يصدق.. كانت هذه الإستحالات هي التي تحرك سالم .. ومن ثم كانت هي الدافع الخفي الذي يمثل قانوناً غير مرئي يحرك أبطال رواياته في ذات الوقت . وطلعت صحافة باريس كلها تتحدث عن هجران أنوشكا لسالم ومطالبتها بالطلاق.

وقد نشرت صحف المساء أقوالها حول علاقتها بسالم .. فكانت تقول أن سالم .. «فقد منابع إلهامه الفني .. وذلك لخلل ما . هو أنه قد عجز عن السيطرة الفنية في ادارة الشخصيات ..» .. ورغم اتهامات أنوشكا التي تمتليء بروح الضغينة إلا أن سالم لسبب ما كان يعمل بنشاط في روايته في جزئها الثاني .. ويذهب الي المقهى منتظراً ظهور فرانسواز الذي كان يتأكد كل يوم في صدر سالم .

*

يشرف مقعد سالم على زاوية الشارع بشكل يمكنه من رؤية الشوارع الثلاثة التي يمثل المقهى ملتقى لها . كان يركز النظر على شكل الجسد .. ثم النظارة .. ثم يتذكر تفاصيل دقيقة تحيط بهيئة فرانسواز .. فكان في وضعه هذا متحفزاً كتحفز الصياد الذي سيهجم على الفريسة وينقض عليها بكل أظافر الظفر .. وفي مثل هذا الوقت كانت الحاجة حليمة عبيد وربيبتها الصديقة رحيمة منصور يطلان من باب الحوش عل سليمان يظهر فجأة ، ثم تخرج المرأتان وتقفان عند

محطة سنادة في شارع الأربعين ، وهي على بعد خطوات من بيت الحاجة حليمة . تراقبان سيارات الرانجرروف البيضاء .. وتمر السيارات واحدة وبعد عشر سيارات تمر ثانية .. ولا يظهر سليمان . وتعود المرأتان للبيت الموحش مع هبوط الليل . تصلي الحاجة حليمة مافاتها .. وتعمل رحيمة في تلك الأوراق التي أعطاها لها سليمان في صبر لا حد له .. فالأوراق هي عبارة عن مسودات مخربشة الخطوط وينضاف لهذا تعقيد آخر . هو أن كل هذه الأكوام غير مرقمة الصفحات .. فكان عمل رحيمة يزداد مشقة كما لو كانت تمشي في الظلام ..

كانت رحيمة تضع الورقة جنب الورقة .. وتحاول أن تجد ذلك التسلسل السلس بين جريان الأزمنة والأمكنة .. كانت تتفادى قدر ما يمكن هذا الإنقطاع .. وكانت موهبتها ودراستها وحبها العميق يمدانها بهذه الطاقة الفعالة . هذا الي جانب طبعها المفطور الصبور الذي لا يعرف اليأس .. لقد وعدت نفسها أن تنال هذا الرجل في النهاية .. وليس هناك طريق سوي هذا الطريق الشاق .. أن تعثر داخل كل هذه الأكوام من الأزمنة والأمكنة الجارية متقاطعة ومتوازية ومتداخلة على النقطة المركزية التي تمثل حقيقة هذا الرجل الذي أحبته . كانت الحاجة حليمة كثيرة الصلاة .. وكانت رحيمة كثيرة الصبر .. جاهدة تعمل ورأسها مدسوس بين أكوام الأوراق .

*

كانت فرانسواز في الأيام الأولى تعيش داخل اغماءة متقطعة .. وكانت الحقن قد أعيتها .. وكان هذا الطبيب يملأ قلبها باضطراب عظيم .. كأن يداويها .. ويحيها في صمت .. كانت تقول له أنها

ليست مريضة .. كلما في الأمر أنها تبحث عن صديق .. عن رجل أحبته بعد فوات الوقت .. وهي قد جاءت الي هنا للبحث عنه . ولكن الطبيب كان يعلم .. وأن كانت هذه الوقائع المرئية حقيقية إلاّ أن معني هذه الحقائق اللامرئي يدل بالتأكيد على حالة ضياع كامل تحياها هذه الفتاة .. فكان بدافع حبه الشخصي لها يسعي لمعاونتها . وهذا ما بدأ في علاقة الفتى الطبيب من جهة وفي علاقة مريضة رقم (٤) من الجهة الأخرى . وهكذا نما في صدر فرانسواز الأمل .. فالعمر يتكون من الأيام فعليها ألا تموت .. فعادت ثقتها بالمستقبل .. وكان الفتى يمسك

بيديها بين راحتيه ويهمس وعيناه تبرقان .. «الذي لا يثق بالآتي .. بمستقبله الشخص يضيع .. أن فقدان الشعور بالمستقبل بفقد محور ارتكازه الروحي» .. فكانت فرانسواز تتذكر تلك الجمل التي قرأتها ذات مرة في مذكرات مارسيل .. «التعلق الشديد بالحياة بدون إرتكاز على الحياة الروحية يقود للإنتحار.» .. وكانت فرانسواز تقول لطبيبها الفتى .. «ولكن من يثق في المستقبل يكون له ما ينتظره» .. ويقول الفتى .. أن ضاع ذاك .. أصنعي آخر أكثر بهاءاً وجمالاً . أحلمى .. أحلمي . كان يردد الكلمة ويضغط على يد فرانسواز حتي يخفق قلبها ويحمر وجهها .

واحضر لها الطبيب في المساء كتاباً يحمل عنوان «الألعاب التي يلعب بها الناس الذين يلعبون بالألعاب» فضحكت فرانسواز من غرابة العنوان .. فتركا الكتاب جانباً وأخذا يتحدثان في شئون صغيرة متفرقة

وفي منتصف الليل عندما داهم فرانسواز الأرق .. قرأت .. «الزمن بحر وعلى الناس تجاوزه ..» .. وقليلاً قليلاً وجدت فرانسواز نفسها كما لو كانت تركب قارباً صغيراً فأجتازت الخطوة .. إجتازت بحر

اللامرئي .. وحصلت روحها على الهدوء ووحدة الزمن والمسافة .. وعرفت أن وحدة الزمن والمكان هي اليوم .. هي الآن . فانطلقت فرانسواز تعمل في المستشفى تنظف وتمرّض وتمد يد العون لمن يطلب عوناً . فكان العمل هو بدافع تفاعلات روحها الجديدة التي تعلو على آلامها. وعرفت ان هناك كثيرين يتوهمون أنهم أحرار في الحياة ولكن وجودنا وسط الموت هو الذي يعطينا الحرية . وإذ كان هناك من يضل ويظن أن الخلاص في الإنتحار فهناك من يصل عبر الموت الي الحياة الروحية التي لن نبلغها الاّ بالألم . فعرفت في منتصف تلك الليلة لماذا ماتت كاترين ولماذا مات مارسيل ؟.

*

رضيت فرانسواز بحياتها الجديدة . أعلن المستشفى شفاءها .. وعيّنوها ممرضة هنا .. توطدت علاقتها بأتول .. الطبيب الفتى .. وتزوجا في هدوء .. وكان أتول فتى من نيجيريا .. هو ذات الفتى الذي يسكن معها في بنسيون مسيو آرتين . ولأنها قطعت كل علاقاتها بذاك العالم .. فقد باعت عقاراتها ووضعت مالها في بنك الكريديه .. ومن بين خططها أن تنشيء مستشفى خاصاً بها وبأتول .. وكانت في عطلاتها تذهب هي وأتول الي بوردو ليزورا جدتها تريزا الذي إشتد المرض عليها .

*

كان سالم البدري يواظب على المجيء .. الي جانب عمله في كتابة الجزء الثاني . وعندما يئس من الأنتظار . داهم بنسيون مسيو آرتين وفي غضب هائج .. وأصر على دخول الغرفة رقم (٤) .. وكانوا يقولون له .. أن الفتى والفتاة قد غادرا الآن فقط .

وفيما بعد إزداد حال سالم البدري سوءاً .. أصبح مدمناً على شراب الكحول .. وكتبت مقالات نقدية تهاجم فنه .. وأن موهبته قد نضبت بعد أن حطمته أنوشكا بهجرتها الي هوليود.. فلم يتمكن سالم من إكمال روايته . ومات بعد ذلك . ولم يعثروا على مسودة الجزء الثاني من روايته الآن وأمس المكان . والنسخة الوحيدة هي التي تشمل فصل «دوران الفصول الهادي» تعمل فيها رحيمة منصور بصبر لا حد له .

توقفت السيارات الثلاث التي انفصلت عن القافلة في بحثها عن سليمان . توقفت قرب سيارة سليمان . توقفت بشكل عنيف فتصاعد الغبار وانعقدت سحابات كثيفة فوقها . وقفز الرجال وجروا نحو سليمان الذي دفنته الرمال . فلم يظهر من جسده شيء سوى وجهه وطرفا حذائيه . ازالوا طبقة الرمل الكثيف الذي كاد يدفنه .. وسحبوه من قدميه . وانحى أحدهم فوقه .. كان زفير وشهيق خافت يأتي من بين فمه وفتحتي الأنف متقطعاً .. أما النبض فقد كان يدق واهناً عند الرسغ . حملوه ووضعوه على المقعد الخلفي. وانطلقت السيارات نحو المستشفى . ووضع سليمان في غرفة العناية المركزة. وجاءت أمه حليمة عبيد وصديقتها رحيمة منصور ثم جاء أهله واقرباؤه والجيران. وكان الطبيب يقول لهم انه لم يتجاوز مرحلة الخطر بعد ! ومن النافذة الزجاجية كانت حليمة عبيد تراقب ابنها بقلب مضطرب .. كانت تراه غيمة بيضاء تتراقص بها الرياح هنا وهناك . كانت تعرف ببصيرتها حينما أفلحت حليمة عبيد في أن تدخل روحها في دائرة روح ابنها .. أن ترى تحت هذا التضامن الروحاني المشترك .. فهي تعرف أنه لا يتألم ألماً عضوياً .. ولكنه ذاك الألم النازف من جراحات الروح . كانت

تعلم أن هناك عطباً قد أصاب شيئاً فيه . فأصبح هذا الجزء المحطم زجاجاً منثوراً لا يمكن أن يعاود الي هيئته وتكوينه الأصلي . فشعرت بالقلق والراحة معاً !.

أما رحيمة منصور فقد اتصلت بمجموعة الأطباء المتابعين للحالة!! .. فطلبوا منها أن تنتظر كبير الأطباء الذي يرأس هذا (الكونسولتو) !! .. وفي هذا الأثناء كان سليمان هادئاً .. تدق نبضات القلب عند الرسغ في إنتظام. وفوق الساعد كانت أمبوبة الدرب تعمل نقطة .. نقطة في انتظام هاديء .

قالت رحيمة للطبيب .. ماذا به !.

قال الطبيب .. فقدان ذاكرة كامل . وشلل نصفي في الجهة اليمنى . بسبب ارتفاع في ضغط الدم .

قالت رحيمة .. أفي الأمر خطورة ؟.

قال الطبيب .. يمكن أن تنقلوه الي البيت . وأضاف الطبيب .. هل أنت شقيقته ؟ .. قالت رحيمة .. لا أنا .. قريبته . فهو ابن عمي . قال الطبيب أذاً يمكنني الأعتماد عليك في متابعة علاجه بالبيت . وأن تتصلي بي ان جد في الأمر جديد ! .. وعندما تشابكت اليدان كانت العيون تبرق .. والدم يجري حاملاً فيروس الخطر .. فكان الدوار الهاديء يشملهما الإثنين كما قد وقعا في الحب.. فارتعش الطبيب وارتعشت رحيمة .

*

طوال هذا الأسبوع .. كان سليمان صامتاً .. وقد لاحظت رحيمة زوغان نظراته .. وصمته المطبق .. كان ذاهلاً .. فلم يكن غائباً تماماً ولم يكن حاضراً .. لقد دمرت ذاكرته كما لو قد عرفت

رحيمة من الطبيب .. إذ قال .. لك أن تتصوري الأمر .. كما لو كان الوعي هو شريط تسجيل .. يحتوي على كل الأحداث السابقة في حياة سليمان .. وأن هذا الشريط قد تعرض للمحو . فأصبح الآن وعياً بريئاً .. سطحاً شفافاً تنطبع عليه الأحداث التي وقعت وستقع بعد هذا الحادث الذي تعرض له . أما الماضي .. تلك الفترة السابقة للحادث فقد دمرت . ما عدا حدث أو حدثين .

قالت رحيمة .. أهناك أمل !.

قال الطبيب .. لو استطيع معرفة هذين الحديثين .. أو على الأقل الحدث المركزي .. لاستطعت ترتيب ذاكرته حتي يعود لها إنتظامها .

قالت رحيمة .. سأعاونك . فأطلعك على ما أستشفه .

قال الطبيب .. الأجدى .. أن تطلعيني على كل تفصيل .. مهما كان صغيراً.

*

كان سليمان يباشر تمارين الحركة وفق تعليمات الطبيب يمشي وهو يتأبط عكازتين .. ورحيمة تعاونه على المشي .. يتجولان تحت ظلال أشجار حديقة المنزل في الضحى والظهيرة .. وحينما تستطيل ظلال ما بعد الظهيرة .. ويختفي البريق عن ضوء الشمس .. وينتشر ذاك اللون الضوئي ما بين الليل والنهار .. تقرأ رحيمة لسليمان .. أشعار باللغة الفرنسية .. وتروي وقائع باريسية أخذتها من مسودة رواية سالم البدري .. فلم يبد على وجه سليمان شيء من الأنفعال .. كان كما لو لم يعرف هذه اللغة أصلاً .. وسرعان ما ضجر سليمان من رحيمة .. وطلب منها أن تحدثه بلغة مفهومة وعن أشياء مفهومة . ثم يغضب غضباً عاصفاً .. حتي كاد ان يصفعها على وجهها ذات

مرة.

*

في ظهيرة أمس .. أشتد القرع على باب الحوش .. حينما كان سليمان ورحيمة يتمشيان تحت ظلال النخلتين وشجرة التين .. إستدار وتوجها معاً نحو باب الحوش . فتحت رحيمة الباب .. فكانا الأثنان معاً يواجهان إمرأة وصبياً . يبدوان كمتسولين .. ولاحظت رحيمة اضطراب سليمان حينما وقعت عكازتاه على الأرض بشكل مفاجيء .. أما المرأة فقد كان وجهها العجوز مصعوقا بالدهشة .. فكان جسدها النحيل يضطرب من قمة رأسها حتي قدميها .. فكادت تسقط ارضاً لو لا أن الصبي كان قد أمسك بها . وأخذت كل من رحيمة والصبي ينظران الي الإنثين الآخرين في اضطرابهما المفاجيء ..!!.

.. كان الصبي في الثامنة عشرة من عمره .. جميلاً ..سحر لا يوصف .. عينان سوادوان .. وشعر ليلي بهيم .. أسمر .. هو نسخة أكثر بهاءاً من سليمان .. فكانت عينا رحيمة تنتقلان بين الرجل والصبي وهي لا تكاد تصدق . أما المرأة العجوز فقد كانت في منتصف الخمسين او مقتبل الستين من العمر .. هكذا كانت تبدو .. وكانا الأثنان الصبي والمرأة العجوز يحملان جوالاً ممتلئاً بالملابس القديمة .. وآخر به صناديق من الكرتون تحتوي على أطباق وكؤوس من الزجاج والخزف الصيني . فهما يتجولان في أحياء المدينة ليبدلا الأواني بالملابس القديمة .. ثم يبيعا الملابس فيما بعد في سوق ليبيا غرب المدينة .

*

كانت رحيمة تحدث نفسها .. إذاً .. ها هو حدث .. لعله مثل

مركزاً أو محوراً روحياً داخلياً في هذه الذاكرة المعطوبة !! .. وطالت هذه اللحظة جداً .. فكانت عينا سليمان تتعلقان بهذه المرأة العجوز .. وكانت المرأة بدورها ذاهلة تنظر في عيني حلمها الأبدي .. وهي لا تعرف اليقين الذي شع وسط فوضى أقاليم التصور ما بين الجنون والتعقل . أما الصبي فقد كان يجذب كم ثوب أمه .. كما لو كان يريد أن يفر ويهرب من كل هذا. واستيقظت رحيمة من ذهولها .. وادخلت المرأة العجوز وابنها الي المنزل .

أعدت رحيمة للضيفين طعاماً .. فكانت العجوز والصبي يأكلان بنهم .. وكانت العجوز تملأ فمها بالطعام وتنظر في عيني سليمان .. فكان حسها الآن بالأشياء حاراً .. الطعام والحب .. الجسد والروح .. كانت النقائض تتداخل لتصنع شيئاً من الرؤيا لا يمكن فهمه بالمعايير العادية.. فكانت رحيمة ترى العجب العجاب .

.. وقالت العجوز .. وهي تخاطب سليمان .. أعطني شيئاً قديماً .. أعطيك أشياء جديدة .. وكانت تشير لجوال الأواني الزجاجية ..

قال سليمان .. شيئاً مثل ماذا ؟

قالت العجوز .. ثوباً قديماً . حذاء .. حقيبة ..

قال سليمان .. ماذا .. لو عملت عندي .. أنت والصبي ! .

قالت العجوز .. هذا .. إن قبل ياسر .. وكانت تشير للفتي المنهمك في الأكل .

.. أومى الفتى برأسه موافقاً .

قال سليمان .. أين ابوه .. وأشار للفتى .

قالت العجوز .. هو مثلي .. كلانا لأب له ..

أعدت الحاجة حليمة عبيد ورحيمة مكاناً لإقامة العجوز وأبنها . وكانت الحاجة حليمة ورحيمة تستغربان من الأمر كله . ولكنهما لم تريدا أن ترفضا لسليمان شيئاً قد يسبب له ألماً يعوق تقدم شفائه . وقد وجدت رحيمة في إقامة العجوز هنا أملاً في أن تحصل على شيء من الأسرار المتعلقة بحياة سليمان الماضية يمكن الطبيب من مداواته كما اتفقت مع الطبيب . فأخذت تلاحظ هذا الغرام المشبوب بين سليمان والعجوز .. وهو غرام صامت يعبرعن نفسه في الصمت والذهول . وعندما تجتهد رحيمة في جعل العجوز تتكلم لتكشف عن نفسها كان صوت العجوز الخشن يأتي من مكان بعيد داخلها .. كانت تتكلم مثل راديو خرب .. يخشخش .. وتتقطع أنفاسه .. وينخفض الصوت ثم يعلو .. يرتفع كالصياح .. ثم يخفت كالهمس .

*

قالت العجوز .. إن الناس ينادونها باسم راقية سليم . وإنهم يظنون بها الجنون .. وهي لا تنفي هذه التهمة عنها .. لأنها لا تعرف ما العقل وما الجنون . كانوا يقولون أن أفعالها وأقوالهاعلى درجة من الشذوذ .. ولقد بدأت الشكوك تحيط بها لتدعم هذا الجنون .. منذ أن كان عمرها في السابعة عشرة .. عندما كانت طالبة في كلية الصحة .. فكانت لها صديقة تدرس معها في نفس الصف تدعي بتول الطاهر .. فتاة صغيرة في مثل سنها .. حيةً خجولة .. عاطفية جداً .. أصيب صدرها بداء الرئة .. فكانت تكتب كلاماً حلواً .. تكتبه في وريقات صغيرة .. مطوية ، كانت تدسها في عجلة خجولة في كف راقية سليم .. كانتا تلتقيان مصادفة عند الخروج من الصف الدراسي أو حين نهاية اليوم الدراسي . فكان شيء رقيق حزين ينمو بين الفتاتين مثل قصة

حب سرية تتأرجح بين الطهرانية والخطيئة . ولكن بتول الطاهر ماتت والغرام مشتعل . فلم تمت هذه القصة . وفيما بعد .. جلست راقية سليم في البيت ومنعها أهلوها من الخروج مطلقاً .. وكانت النيران تشتعل داخلها .. لقد عرفت أن القلب يمكن أن يعرف قلباً آخر .. وهذه المعرفة هي نوع من الحياة شديدة الجمال والحيوية . فأحبت العصافير والأغاني والناس الذين يتوهجون بالجمال . فكان تفتح باب الحوش وتطل علها ترى هذا الجمال السريع الخاطف !! وذات صباح سمعت راقية طرقاً على الباب .. فتحت الباب .. فدخلت فتاة في عمرها الواحد والعشرين .. كان من الصعب أن تتبين أنها فتاة .. كانت تلبس شورتاً أبيض .. وقميصاً رجالياً ابيض .. وعلى الكتفين شرايطين أحمرين .. وقبعة من القماش الأبيض .. وتقود بسكليتاً .. كان مظهر الفتاة رجولياً .. صوتها خشناً .. كانت تراقب البيت مراقبة صحية .. فهي موظفة في صحة البيئة ..

.. أخرجت الفتاة دفتراً ووقعت غرامة مالية على البيت حينما كانت هناك بركة ماء حول (حنفية الماء) .

.. كانت راقية تراقب هذه الفتاة الجسورة وشيء في صدرها تؤججه أشعار ووريقات بتول الطاهر .. وعندما همت زهرة بهاء بالإنصراف .. وامتطت البسكليت .. وكان جرس البسكليت يرن بموسيقى صداحة .. تملأ صدر راقية سليم .. واستمرت هذه الحكاية .. كل أسبوع .. ونما الحب السري بين الفتاتين .. وشاعت أغاني مجهولة المؤلف .. غناها كبار المطربين .. ولم تتزوج الفتاتين أبداً . وأفترقتا وهما في عمرهما الأربعين .. وفيما بعد إمتلأ عقل راقية بهذه الأهازيج .. وأشاعت بأنها ترملت .. وأحيانا تقول ان زوجها قد

هجرها .. وعندما حبلت بآبنها ياسر .. كانت تقول أن الأب قد هاجر الي بلد أجنبي .. وهو يشبه هذا الولد الذي هو صورة طبق الأصل من أبيه . ومنذ ذاك اليوم لم تتكلم راقية سليم أبداً مع رحيمة .. بل أن هناك تغييراً عميقاً أخذ يسري في روحها . أصبحت أكثر نحولاً وذهولاً .. أما رحيمة منصور فقد وضعت يدها علي محور من محاور روح سليمان التي تدور كحجر الرحى فتسحق جسد سليمان سحقاً .

*

أخذت راقية سليم تدور داخل ذاكرة سليمان .. فتعرف عليها .. فعرف شيئا .. إذ دخل ضوء خافت مثل خيط .. مثل عود ثقاب وأضاء أجزاء من هذه الغرفة المظلمة الممتلئة بالماضي .. وفجأة ينطفيء عود الثقاب.

*

وفي منتصف تلك الليلة .. هب سليمان .. يمشي بلا عكازتين نحو فراش راقية سليم .. وعندما جلس سليمان على طرف الفراش .. أخذت يداه تبحثان في الظلام .. فلم تجدا إلاّ الفراغ .. وهناك كان الفتى ياسر يطوي جسده النحيل وينام . وفي الصباح .. كانوا قد عرفوا أن راقية سليم قد إختفت بلا عودة ! .

*

انكفأت ذاكرة سليمان على ذاتها .. أظلمت الذاكرة مجدداً .. وعلمت رحيمة من الطبيب إلاّ رجاء مطلقاً .. إلاّ ان أعضاء سليمان قد شفيت من ذاك الشلل . أصبح سليمان يمشي في يسر وأعضاؤه كلها تتحرك بالحيوية المطلوبة .. أما ذاكرته فهي لا تعرف إلاّ ما يجري أمامها الآن . وكل الذي جاء من تأثير لقائه براقية سليم .. فهو أنه

تعرف على عمره الثامنة عشرة .. ومن ثم تعرف على ياسر .. فهو ابنه .. هو الذي سينسج حياة سليمان ويستنسخها بشكل مغاير .. فالولد .. بلا ماض .. وسليمان بلا ماض .. ولكن سليمان لا يستطيع فعل شيء .. أما ياسر فيستطيع .. وفي صباح ذات اليوم الذي هربت فيه راقية سليم .. أخذ سليمان يتعهد ابنه ياسر بالرعاية .. فأدخله مدرسة خاصة وأحضر له أساتذة ومعلمين ليعوضوا الفترات السابقة .. وهكذا قطع ياسر أشواطاً كثيرة في مقررات المراحل التعليمية .. وكان يتقدم الصفوف في المدرسة بشكل كبير . وأخذ يمتليء بالزهو .

*

بعد مضي ساعة من بداية إستيقاظ الزوجين السعيدين من نومهما هذا الصباح .. كانت حقيبة السفر جاهزة للرحيل .. فأخذت فرانسواز تنادي أتول .. وفي التو حملا الحقيبة وتوجها الي محطة مترو الأنفاق متوجهين الي بوردو . اتخذا لهما مقعدين متجاورين .. انطلق مترو النفق .. وكانت فرانسواز تشعر بشئ من القلق .. فقد هاتفها ماثيو ظهر أمس .. وعرفت أن جدتها تريزا تمر بأزمة صحية .. كان أتول ينظر الي وجه فرانسواز الذي تبدل الي اللون الأبيض الشاحب .. وجاء طيف كاترين .. ثم جاء طيف سليمان ..

.. وشيء بارد كرأس الأبر أخذ يخز قلبها .. فهي أحبت سليمان ذات يوم .. ولكن ذاك أمر قد مضي ولا فائدة ترجي منه . وها هي بصحبة زوجها الذي تحبه في إخلاص عميق .. وانتفضت فرانسواز كما لو كانت تطرد هذه الطيوف التي يؤلم استرجاعها .

.. ابتسم أتول .. وقال في حنو متفهم .. ماذا !.

.. قالت فرانسواز .. لا شيء ! .

قال أتول .. أتحبينه .. ما تزالين ! .

قالت فرانسواز .. نعم أحبه .. كحقيقة من حقائق عمري . وأحبك أنت الآن .

قال أتول .. كيف .. إما أن تحبيه هو ! .. وإما أنا .

قالت فرانسواز .. سأحبه ما حييت .. وأنا أعلم أنني لن التقي به ثانية قط .

قال أتول .. أنا .. إذاً البديل .

قالت فرانسواز .. كل الناس لا يستطيعون فهم هذا الأمر بالشكل الصحيح .

قال أتول .. وماهو هذا الشكل الصحيح ؟

قالت فرانسواز .. هذا أمر يصعب توضيحه بشكل كامل . ولكن دعني أقول لك .. هناك أناس يعبرون حياتنا ويتركون فيها أثراً عميقاً .. حتي ليصبحوا هم مركز حياتنا الروحية كلها .. وفي كثير من الأحيان نتوهم أننا نسيناهم .. وذلك لأنهم لا يشاركوننا حياتنا اليومية المباشرة .. فنحن ننطلق في الحياة بدونهم .. نحب نمتليء بالحياة .. نصنع حياة كاملة بدونهم .. تمتليء حياتنا بالتفاصيل بدونهم .. ولكنهم يظلون دائماً هم من يعطينا الدافع والحيوية لأن نصنع حياة ثانية من دون مشاركتهم .. فحين نحب فذاك لأننا نستمد الطاقة الخلاقة والمبدعة للحياة منهم .

قال أتول .. هذا هو الحب ذاته !.

قالت .. نعم هو الحب . ولكنه الدائرة الأولى التي انطلق منها للدائرة الثانية .. اليك أنت . فلو لا هذا الشعور الجوهر المركز .. لولا هذه القدرة علي أن أحب لما أحببتك ! .. الاّ ترى الأمر .

قال أتول .. ما يهمني هو أن تحبيني !.

قالت فرانسواز لو لا سليمان لما أحببتك . ولو لا تربع الملكة على العرش .. لما صنعت الخلية عسلاً .

*

عندما هاتف ماثيو فرانسواز .. كان ماثيو خائفاً جداً من أن تموت تريزا . إذ قدر أن حالتها الصحية تنذر بالخطر .. وكان الرعب يكاد يقتله .. إذ كيف يمكن ان يحيا بعدها . إذ كان محتماً أن تموت .. فلماذا لا يموت قبلها حتي يتفادى الحزن والشيخوخة والوحدة .. أما تريزا فقد ساءت حالتها بالفعل .. إذ كانت تصرفاتها في الآونة الأخيرة وهي على فراش المرض تثير في عقل ماثيو الرعب . وكان يحدث نفسه فيقول «.. أنه جنون الموت الذي يصيب الأرواح غير المطمئنة..» .. كانت تريزا قد أمرته بأن يغلق كل نوافذ البيت .. وأن يظلم حجرتها والاّ يضيئها ليلاً قط . فكانت تنام مفتوحة العينين .. ضخمة تسبح وسط سريرها.. مثل سمكة القرش الطافية فوق مياه المارتنيك . وكان الظلام والليل يتدفقان في الحجرة ماءاً أزرق شديد الحلكة .. وتريزا تطفو .. وهناك في قلب المحيط تتكون موجة .. موجة كبيرة .. تنقسم علي نفسها وتطارد الموجة الموجة .. في تموج لا نهائي.. وتنتهي هذه الدورة عند رمال الشاطيء فتناثر زبداً وماء متطايراً . وكانت تريزا تنتظر مع بقية المسافرين الباخرة المتجهة نحو هافانا .. وعندما رست الباخرة .. شقت تريزا طريقها بين أفواج المسافرين .. وطلعت سلماً حلزونياً أوصلها الي القاعة الكبرى للباخرة .. حيث رصت المقاعد والموائد أمام المطبخ .. وهناك في خلف القاعة كانت مائدة ضخمة وضعت فوقها أصناف من الحلوى المخلوطة

بالكاكاو وجوز الهند وسلال من الأنناس والموز .. وفوق السقف كانت المراوح تدور في ضجيج وصرير . جلست تريزا حول إحدي الموائد .. وعندما رشفت رشفتها الأولى من شراب الكاكاو الساخن .. توقفت فجأة عن ارتشاف السائل الداكن السمرة .. إذ أطل سيد يرتدي بذلة بيضاء وقبعة من السعف .. ويضع على عروة البذلة وردة زرقاء .. ورابطة عنق حمراء .. وحذاء من الجلد المصقول اللامع .. ويحمل بين يديه قطة سيامية مبرقعة بالألوان الصفراء والبنية والبيضاء .. وكانت القطة تلتصق بصورة سعيدة بالحنو الدافئ.. أما عنقها فقد كان يتحلى بعقد من الذهب الخالص يلتف حول العنق في شكل طوق. وهمست تريزا «يا للسيد الجميل! .. ويا لقطته السعيدة».. وغمرها شعور أن تحل محل هذه القطة .. فالسيد بلا شك يعاني من الترف والوحدة .. وتبددت ظنونها عندما رأت سيدة في مقتبل العمر لها شعر أسود ينسدل خلف ظهرها .. وهمست ..«هاهي زوجته إذاً».. ولكن السيدة إتجهت الي مائدة يجلس حولها أطفال ورجال .. أما السيد فقد إتجه مباشرة للمائدة التي تجلس عندها تريزا .. جذب مقعداً .. وقال وهو ينحني انحناءة صغيرة .. «أتسمح لي السيدة .. أن أشاركها الجلوس ؟.»..

ابتسمت تريزا وقالت في صوت متلجلج .. «هذا شرف لي يا سيدي» .. وبعد لحظات كانت مائدة تريزا تضم فاكهة وحلوى ومشروبات مثلجة .. وجرى بينهما الحديث بلا وجهة محددة . كان الحديث يتصاعد ملامساً موقفاً محدداً .. ثم يهبط .. وكانت الباخرة تعلو وتهبط .. تحملها أمواج ضخام .. ثم تهوي الي أسفل حينما تنحسر الأمواج .. وكانت الثريا والمقاعد تتأرجح لتأرجح حركة

الباخرة . وأخيراً وصل بهما الحديث لأن تكون تريزا ضيفة على السيد روجيه فيدال .. وبعد مضي ساعتين .. رست الباخرة .. عند ضاحية .. حيث يعمل السيد روجيه خبيراً لحقل السكر في الضاحية .. وفي اليوم الثاني .. كانت تريزا وروجيه يسبحان في مياه الخليج الخضراء .. ويتعشيان في مطعم روزانا وسط الضاحية .. ثم يرجعان في منتصف الليل الي فيلا روجيه حيث يقيمان . وبعد مضي شهر .. كانت تريزا تحب روجيه لدرجة الجنون .. وولد في صدرها خوفاً وهلعاً قض مضجعها .. فقد رأت نظرات العداء في عيون الذين حول روجيه .، وسمعتهم يتهامسون .. بأن روجيه ما هو إلا برجوازي منحط .. وهو يسرق عرق المزارعين وينفق المال العام على النساء اللائي يلتقطهن من الشوارع والحانات . وهو عميل إمريكي مدسوس علي الدولة الإشتراكية . وتحت الحاح مخاوف تريزا تزوجا .. فتوقفت حملات العداء ضد روجيه .. ولكن سرعان ما اشتد الهجوم على أعوان إمريكا السريين بعد أزمة بحر الخنازير وتحت سحب الحرب الكونية الباردة .. هربا الأثنان معاً .. روجيه وتريزا وعادا الي بورتريكو . ووضعت تريزا إبنتها كاترين .. وطوال هذه المدة .. لم يشيخ او يكتهل روجيه .. لم يكن مسار الزمن ليؤثر فيه .. كان شاباً جميلاً نضراً يستهوي الفتيات ويواصل معهن سيرته الاولى قبل زواجه من تريزا . مما أوغر عليه أعداء جدد في بورتريكو . ورغم أهماله لتريزا إلاّ أن هذا الصد كان يزيد لواعج غرامها ، فكانت تبكي كثيراً حتي تمنت لو مات روجيه برصاصة أحد أعدائه علها تنساه . كانت السنون تمر وكان روجيه فيدل يزداد بهاءاً ونضارة.. فكان وجهه مثل لوحة فنيه عظيمة الإبداع يتألق بالجمال مع مرور شموس الأيام في دورانها ليلاً ونهاراً . أما

روحه فلم ينلها العطب والفساد إذ كانت تسعى نحو اللانهائي والمطلق. كان روجيه في الستين من عمره عندما أغرم غراماً عاصفاً بإمرأة متزوجة . تعمل ساقية في أحد المشارب التي تقدم لحم الخنزير المشوي وشراب الموز . وعند الثامنة مساء إرتدى روجيه بذلته البيضاء واعتمر قبعته وحمل عصاه .. ونشر المظلة الواقية من المطر فوق رأسه .. وخرج متوجهاً لمشرب الموز !! لم يتوقف المطر .. كانت السماء تمطر بلا إنقطاع .. والسحب السوداء الإستوائية ترعد وتبرق.

وصل روجيه المشرب ، دفع الباب الزجاجي بعصاه .. وجلس عند مائدة موضوعة في الركن الغربي من قاعة المشرب . كان المكان خالياً من الرواد .. ماعدا رجل عجوز يدخن سجائره وهو ساهي . وكانت قطرات المطر الإستوائي تتساقط في سرعة كبيرة .. ثم تتفرق بسبب الهواء المصاحب للمطر . وتنزل القطرات فتضرب زجاج النوافذ وتتحرك الستائر الشفافة بفعل عاصفة المطر . وتهرع المرأة حاملة إناءً فخارياً ممتلئاً بشراب الموز .. ويدها الأخري تحمل لحم الخنزير المشوي .. وتضع الطعام فوق مائدة روجيه .. ثم تنحني وتقبله فوق شاربه الكث .. وينفتح الباب الزجاجي فجأة وتدخل عاصفة الهواء والمطر .. ويقف رجل طويل .. يخر الماء من ثيابه .. شعره مشعث مبلل بالماء .. فيسيل الماء فيغمر وجهه .. كانت نظراته غائمة .. ثم أخرج من جيب بنطلونه طبنجة ذات مقبض خشبي .. وصوب نحو روجيه .. أنكفأ روجيه على وجهه فوق المائدة .. وعلى صدره تشكلت وردة حمراء من الدم والمطر والحب . واندفعت المرأة تجري خارج المشرب .. وانتبه الرجل بعد لحين للمرأة .. وجرى خلفها .. كانت المرأة تجري تحت المطر والرجل شاهراً طبنجته يجري خلفها ..

كانا يجريان بمحاذاة شاطيء البحر .. أخذ يجريان حتي غابا تحت وابل المطر والظلام.

*

أخذ حزن تريزا يغوص عميقاً داخلها مع الأيام التالية لموت روجيه . فلم يكن الشعور الذي يغوص في صدر تريزا هو النسيان . بل هو ذكرى تتبلور مثل دمعة كبيرة لا تنضب .. ثم يتحول الي لؤلؤة براقة هي خلاصة أحزان قلبية تحولت من المحسوس الي المجرد .. ومن المرئي الي اللامرئي . وطوال السنوات التي أعقبت الحادث كانت تريزا تزور قبر روجيه بلا إنقطاع.

*

وفي منتصف تلك الليلة التي أعقبت رحيل الأسرة من بورتوريكو الي باريس .. إستطاعت تريزا أن تنقل الصندوق الخشبي الذي يحوي جثمان روجيه . لقد إستطاعت أن تنبش القبر وتخرج الصندوق .. فتحمله بمعاونة حارس المقبرة الذي رشته بالدراهم الذهبية حتي السيارة التي تقف عند باب المقبرة .. واستطاعت بمشقة فيها كثير من الحيل أن تتفادى دوريات منع التجول التي أعلنت عقب الأنقلاب العسكري الذي وقع في الجزيرة في مطلع الأسبوع . لقد تسترت الأسرة على أمر هروبها.. وفي منتصف الليلة التالية كانت تريزا وكاترين وفكتور ومارسيل وفرانسوز على ظهر سفينة متجهة نحو باريس . أما ذاك الصندوق الخشبي فقد كان داخله صندوق آخرهو نعش روجيه .. فقد كان شكله الخارجي عبارة عن قطعة موبيليا تشبه خزينة الملابس . وفي حجرتها في بوردو خبأت تريزا سرها القلبي الدفين . وضعته قرب سريرها واسدلت عليه ستراً كثية . وبين حين

وحين كانت تفوح من حجرة تريزا روائح ذات عفونة.

*

وفي ليال كثيرة .. كانت تنبعث من حجرة تريزا أصوات ، همسات ، ومداعبات وبكاء .. تثير دهشة ماثيو الذي كان يعزيها لغرابة أطوار تريزا .

*

كانت غرفة تريزا مغلقة .. والستائر مسدلة .. والظلام يتدفق .. يسيل ماءاً أزرق . وتتكون وسط بحر الظلام موجة كبيرة .. تنقسم على نفسها .. فتتولد موجة تطاردها موجة .. وتريزا تنثر شعرها .. وكيانها يهتز بالأشواق والكوابيس .. وتبكي في نشيج ، ويقف ماثيو وأتول وفرانسواز .. خلف الباب المغلق .. يضربون على الباب .. ثم يكسرونه .. ويدخلون .. أما تريزا فقد انحنت فوق صندوقها السري .. وفتحته .. وفي وله عاشق .. أخرجت روجيه من مخبئة .. وفي حرص وحنو شديدين .. أوقفت الجثة على قدميها .. وكان روجيه في كامل بهائه وتريزا تمنعه من السقوط .. كانت تتشبث بفكرة يقينية .. أنه بعد قليل سيمشي على قدميه .. وربما أشرع ذراعيه ليضمها لصدره .. فأرتجف جسدها كله بحلمها الحار .

*

وفتح الباب .. ووقف أتول وفرانسواز وماثيو .. وكادوا يصعقون .. وفجأة فرقع الرجل كما لو كان اكذوبة .. وامتلأ الظلام بغبار أبيض لامع أخذ يومض وسط الظلمة كالفسفور .. وركعت تريزا .. أشرعت ذراعيها وهي تجاهد أن تلم غبار حلمها الفسفوري .. ضمت ذراعيها الي صدرها .. واجهشت بالبكاء .

ثم نهضت .. وأخذت ترقص مشرعة ذراعيها وهي تدور حول نفسها مثل مروحة كهربائية .. وأخذت في الصياح .. «غبار .. ورق .. نمور من ورق .. كلنا .. كلنا ..» .. ثم وقعت على الأرض في اغماءة كاملة . واسرعت فرانسواز ، وفتحت النوافذ ، وهرع ماثيو وحمل تريزا وأرقدها على سريرها . وحقنها أتول بحقنة مهدئة . كانت تريزا تنام ويجلس على جانبها ماثيو مخذولاً .. كان كل هذه المدة يتوهم بأن تريزا كانت تحبه .. وها هي تكشف كل شيء .. فهو لا شيء .. لا شيء البتة . وشعر ماثيو بأنه خاو ومجوف كصدفة أُنتزعت منها لؤلؤتها الوهاجهّ .

*

أما فرانسواز فقد أصابها شعور بالقرف .. وأمتلأ صدرها بالضيق من تريزا .. ومن المكان . إلاّ أنها لم تدع هذا الشعور يقف أمام إصلاح الأمور .. فاتفقا هي وأتول علي رعاية تريزا . وبمقدار ما كانت حالة الجدة تريزا مصدر قلق بالنسبة لفرانسواز .. كانت حالة التغير التي المت بأتول تزيد من متاعبها . ومن جديد أخذت فرانسواز تواجه حياتها كلها .. تواجه زمانها الخاص الذي يجري في خيوط معقدة . فمنذ لياليها الحالكات في مستشفى الأمراض العقلية كانت قد أهتدت الي الطريق الصعب حيث عرفت أن الإنسان يولد دائماً في جريان ماء الزمان فهو إما أن يصل الي القاع فيضيع وأما أن يسبح نحو الشاطيء . فتضيء روحه لتهدي الآتين من بعده. لقد رفضت روح فرانسواز ان تحبس في الماضي .. لذا عليها أن تعمل .. فالعمل هو الوظيفة الأساسية للحياة .. فكانت تري روح أتول وماثيو وتريزا محاصرة بالأسلاك الشائكة داخل معتقل يحاصرها . لقد سحق الألم

هذه الأرواح .. فعليها إذاً أن تجعل أجسادهم تعمل حتى الرهق والتعب حتى يعود النظام لبيت هذه الأرواح .

وفي الأيام التالية .. دفعت بأتول وماثيو للعمل .. فحولا فيلا تريزا الي مستوصف لرعاية العجزة.. زرعوا وروداً وغرسوا أشجاراً ورتبوا المكان .. فأمتلأ بالشيوخ والكهول الذين تعبت أجسادهم وتخربت فاضطربت ذاكراتهم وأخذت تعمل للوراء .. تدور في الأتجاه المعاكس للزمن .. أما ماثيو وأتول اللذان كانا يعانيان من ماضي خبيبتيهما .. تريزا وفرانسواز .. فلم يعودا لهذا الزمن المفقود.. بل إندفعا يعملان .. فكان التعب والنسيان يتفتحان ابتسامة طيبة تضيء وجهيهما الطيبين . ولهذا واجهت فرانسواز الوجه المرئي .. عاشت اليومي في تلك الإبتسامة التي تشرق في وجوه العجزة والشيوخ عندما تحقنهم بالحقن المنومة .. أو عندما تعطيهم كوب لبن ساخن .. أو عندما تلامس كفها أجسادهم حينما تلاطفهم كما تلاطف الأم أطفالها .

وفي المساء يجلس أتول وفرانسواز تحت أشجار الأكاسيا والاضاليا .. ويثرثران .. فكان أتول يقول .. كم أشتاق لأن أسمعك تتحدثين عن الأشياء.

وتقول فرانسواز .. أية أشياء !.

ويقول أتول .. الأشياء . لست أدري ما أقول تماماً .

وتقول فرانسواز ..و هي تنظر الي خضرة الأشجار العميقة ولألوان اكمام الورد النضرة .. وللون الغروب البرتقالي .. والي الحياة كلها وهي مغلفة بهذا الغلاف الشفاف .. وكانت تفكر في الإختلاف بين رؤية المنظر الطبيعي والمنظر الجغرافي .. وترتعش فرانسواز إذ

كانت تخشي أن يكون كل هذا الذي حولها مجرد إنطباعات .. وأن تتحول الحباة الي لوحة كتلك التي يرسمها سيزان .

قال أتول .. عندما لاحظ شرود فرانسواز وصمتها . ما يزيد أضطرابي .. ذاك الفرق بين أن نعرف وأن تحس ! .. عفوك .. حقاً أننا نتفلسف . ولكنها أشياء يهمني الحديث حولها !.

.. قالت فرانسواز .. الأشياء موجودة .. وحينما نتحدث عنها فإننا نتعرف عليها . ولكن تحديدها هو ضرب من التجريد .. كما تجرد الجغرافيا المنظر الطبيعي . وحينما نمزج بين الاحساسات والأشياء بوصفها ملموسات فإننا نحصل على صورة العالم . ولهذا يمكن أن نقول أن هناك ساعة كونية كبيرة .. وفي ذات الوقت هناك تواريخ محلية .. وهذه التواريخ تأخذ تحت رؤيتنا شكلاً . ويتلمس الكوني المحلي كما يتلمس المحلي الكوني .. أو هذا هو الإتصال المتلمس ما بين المحسوس والمجرد .. بين المرئي واللامرئي .

.. ثم صمت الإثنان .. وفجأة طلب أتول من فرانسواز أن يذهبا في جولة حول الريف .. إذ أن أتول لقد اكتشفت كوخاً وسط مزرعة .. حوله غدير وأشجار .. فالمكان لطيف جداً . وافقت فرانسواز .. وصلا الي المكان .. وكانت أقدامهما تطأ الأوراق الجافة المتساقطة من الأشجار العالية .. ودخلا الكوخ .. أشعلا شموعاً .. ووضعا سلة

الطعام فوق منضدة تتوسط الكوخ .. ومثل طفلين بريئين واصلا تأملهما المتفلسف ودمهما يجري في العروق بالملموس .. فكان التجريد يتجسد في حركات العضلات والخلايا ويدق في القلب بعنف صاخب .. وعرفا أن هذا الجسد لم يعط لهما الاّ ليريا الوجه اللامرئي الجميل .. فكانا يحبان بعضهما حباً جميلاً مرئياً ولا مرئياً ..

وفوق هذه المراجيح كانا يذهبان ويجيئان .. وعيونهما يداعبها الوسن .. ونسمات لطيفة تتسرب وشقشقت عصافير .. وعوت كلاب .. وأصوات أقدام تسمع في البعيد .. وصوصة صراصير تخربش خشب الكوخ بخياشيمها.

وكانت الحياة تسمع في حنو تأوهاتهما النشوى .. وخفقات قلبيهما .. بمثلما كان يسمعان خفقات قلب الحياة الكبير الذي يدق كساعة الميدان .. وعندما ناما غطتهم الحياة بغطاء الإطمئنان والدفء.

*

وفي ذات الليلة .. كانت راقية سليم .. تجمع صناديق الكرتون .. والخرق .. وعيدان الحطب .. وتبني كوخاً صغيراً لا يتسع لغيرها . لقد أخذت راقية سليم في بناء الكوخ وقتاً طويلاً .. فكانت كلما أكملت العمل تجيء الريح وتخرب جهدها .. وأخيراً أفلحت راقية سليم .. في أن تدخل تحت سقف بيتها المهدد بالزوال . وفي الصباح تذهب راقية لسوق المدينة وتجمع الثمار والفاكهة التالفة .. وبقايا الخبز .. تجمعها في صرة تربطها حول وسطها .. وتقف وسط الصينية عند تقاطع شارع الأربعين والعرضة .. وهي تغني بصوتها الخشن تلك الأهازيج التي تحكي قصة حب قديمة نشأت ذات ضحي داخل فصل لمدرسة البنات .. ثم تبدلت لقصة أخري استمدت درامتها من القصة الأولى .. ويمتليء عقل راقية سليم بصخب جرس البسكليت .. وينبهم الصوت الخشن .. «وين يا حنينة بت أمي .. أموت نشفانة من دمي .. الريد يا طيبة الأخلاق ..» .. ومثلما يمتليء عقل راقية سليم .. تمتليء المدينة والشوارع بهذا الحزن البارد كحد شفرة الموس .. ويحلق هذا الوجه اللامرئي ويختلط بالغبار والمطر .. وفي المساء تذهب راقية

الي مكان آخر من المدينة وتبني كوخها .. تبني بيتها الذي تخربه الريح .. فمثلما كان عقلها ينتقل في الزمان والمكان .. كان بيتها لا يعرف تحديداً ولا موضوعاً .. فكانت راقية سليم تبدو كما لو كانت غير موجودة أصلاً .. وعندما يمر بها إبنها ياسر كان يراها .. ولا يراها .. كانت داخله أسي عميقاً .. من الصعب أن تواجهه ومن الصعب أن تتجاهله فكان وجهها المرئي واللامرئي .. حزناً جميلاً .. وخوفاً مرعباً .

*

أما رحيمة منصور فقد إنتهت من الصياغة النهائية للرواية .. فكان العنوان الجديد المحرف .. هو «صباح الخير أيها الوجه اللامرئي الجميل ..» .. ورغم نشوة إنتصارها بانجازها لهذا العمل الشاق .. إلاّ أنها كانت تخاف .. من وقوع الرواية في خلل ما . إذ كانت تشعر شعوراً صادقاً بأنها لم تكن مخلصة للوقائع التاريخية .. فقد تدخلت مشاعرها ورؤيتها الذاتية في العمل .. هذا الي جانب أن الأوراق التي استنسخت منها الرواية كانت على فوضي عظيمة .. فاختلطت كتابة سليم بكتابة مارسيل وبكتابة سليمان. فأصبح من المؤكد ان هذه الرواية هي من ابداع رحيمة منصور . ومن ثم شعرت بأنها قد فقدت

الصلة الوحيدة بسليمان .. تلك الصلة التي هي أساس حبها له . فسليمان هنا لا يوجد إلاّ باعتباره ماضياً .. فأنحرفت عواطف رحيمة منصور الي الطبيب الذي كان يعالج سليمان . فأنقلبت عواطفها نحو سليمان الي صداقة هادئة كتلك العواطف التي تنشأ بين ذوي الميول المشتركة .

مثلما تكرر الأشياء ذاتها .. فتتنكر حيناً بخدعها العارضة ..
كان الشتاء يأتي ويذهب .. وتعيد كل الفصول دورانها الهاديء ..
ومثلما الشمس تغرب وتشرق من جديد .. كانت الأنهار تجري دائماً
من المنبع الي المصب . فكان هناك .. إذاً شيء في الحياة يعيد نفسه
فيجددها . هو ذات الشيء .. ولكنه ليس ذات الشيء .. فلم يكن
غريباً تحت صرامة هذا القانون أن تجيء أفعال ياسر كما جاءت أفعال
أبيه . لم يكن .. حقاً .. ليعيد التاريخ نفسه .. ولا أن تعيد الحكايا
إيقاع سردها .. ولكن شيئاً ما .. كان فى نسيج الحياة ذاتها يختبيء ..
ويظهر .. فكأنما الحياة تريد أن تتطهر من الألم القديم .. أن يداوي
التكرار الجرح .. ينظفه ويعرضه للهواء والشمس . ولم ينزعج سليمان
مثلماانزعجت الجدة حليمة عبيد . عندما جاءها في المساء جارها
الشيخ غاضباً يشكو فساد تصرفات إبنها ياسر . فالولد كالشيطان
شديد الغواية .. إذ بدل حياة ابنته الصغرى فجعلها باكية لا تنام ..
يوقعهافى غرامه وينصرف عنها لغيرها طائراً من غصن الي غصن ..
وفي الصباح التالي جاءت إمرأة نحيلة وقالت ما قاله الشيخ . ثم جات
إمرأة سوداء ذات مزاج حاد والفاظ سوقية خشنة فهددت وتوعدت .
فكانت حليمة عبيد تكظم غيظها . وسليمان لا يدري مإذا يفعل وكان
شعوره بأنه يفقد إبنه .. أو هو قد فقده بالفعل يضاعف من حيرته
واضطرابه !.

*

كان ياسر قد قابل هذه العاصفة بلا مبالاة .. وبصمت . فلم
يستجب لغضب الجدة حليمة . ولم يكترث لتلميحات سليمان . كان
ياسر يشعر ازاء هذا كله بوحدة قاسية .. وحدة كان منبعها شعور

قوي بالذات .. لقد كان ينمو مثل نبتة وكان النمو يشعل مشاعر تأكيد الذات .. وقد أشاع هذا التحول المستمر ما بين الطفولة والرجولة إضطراباً عظيماً في روح ياسر .. هذا الي جانب يقينه بألاّ أحداً يفهمه . وأمام هذه الصعوبات كان ياسر يتهرب من التفكير في هذا الموضوع المعقد .. فيحول نفسه بقوة تناقضات مشاعره الي شيء .. يتكور حول نفسه مثل قنفذ وبالشوك يحمي نفسه حينما يختبيء . فكان يقول عندما يجد نفسه مطالباً بتحديد موقفه .. عندما كانت تسأله تلك البنت النحيلة البراقة العينين الخافقة الصدر .. «أتحبني ؟» .. كان يضم راحتيها بين راحتيه .. وينظر في عينيها المشعتين .. وتضيف البنت .. «الي أين يقودنا .. كل هذا !!؟؟» . فكان يقول .. «لا أعرف .. إنني حقاً لا أعرف !!» . وتسأل البنت مجدداً .. «أتحبني !» .. فيقول ساهماً .. «لا أعرف؟».

.. لم يكن ياسر مهتما بمعرفة طبيعة مشاعره .. كان يمتليء بالمشاعر المتناقضة وكفى . وان كان يهمه أن يكون محبوباً .. فهو دون أن يقصد بفعل وعي قصدي الوصول الي غاية ما . كان يمتليء بالمرح عندما يجد نفسه محبوباً ! .. ولم يسأل نفسه قط إن كان هو يحب هذه البنت النحيلة البراقة العينين الخافقة الصدر . وفي ذاك العصر .. ذهب ياسر الي بيت جارهم في غيابه .. وكانت البنت تشتغل في المطبخ .. تغسل الأطباق والأواني .. خافت البنت .. وقفت صامتة ترتجف .. جففت يديها فوق ثوبها .. ووقفت جامدة بالخوف .. وكانت عينا ياسر تبرقان .. حاولت البنت أن تصرخ .. ولكن قوة ما كانت تشلها .. كان جسدها يرتجف .. دنت منه .. وشفتاها ترتعشان .. وقفت ويداها من خلفها معقودتان .. تمسكان بمدية

تناولتها خفية .. ! ووسط الخوف والصمت والحب .. انطلق الصوت الحبيس جريحاً مرتجفاً مرتعباً ..

قالت .. أتحبني !.

قال .. لا أعرف !

*

ودنا وجه ياسر من وجه البنت .. أطبق على فمها .. جذبها الي صدره .. وفجأة رفعت البنت سكين المطبخ التي كانت تخبئها خلف ظهرها وضربته تحت بطنه .

وهمس ياسر .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .

أجهشت البنت بالبكاء .. وهمست .. لا أعرف ! .. لا أعرف!.

*

أسعف ياسر .. أجريت له عملية جراحية عند منتصف الليل .. وتكتمت الأسرتان على تفاصيل الأمر .. وبعد أسبوعين كان ياسر قد تماثل للشفاء .

*

بعد هذا الحادث جاءت الجدة حليمة بقفص عصافير ملونة . ورحيمة منصور جاءت بروايات ودواوين شعر . وأخذت حياة البنت تدور في هذا المحور . ولم يكن ياسر حزيناً . كان يفهم بطريقة غامضة هذه الأشياء التي تحدث له . لقد كان أقرب للسهو واللامبالاة .. فكان يتقبل ما تأتي به الحياة كشئ لا مفر منه . فقد كان يتقبل الحياة لأنه كان يتقبل نفسه في فورانها العميق الدافيء .. فكان يجلس أمام قفص العصافير يسقيها ويطعمها الحبوب . وفي ذات صباح كان منزعجاً

عندما رأى عصفوراً صغيراً يكاد يموت من البرد . ففتح باب القفص ووضع العصفور الصغير في راحة كفه وأخذ ينفخ بفمه هواءاً دافئاً . وعندما دبت الحياة في العصفور أطلقه في الفضاء . وحلق العصفور حيناً حول القفص .. ثم إرتفع فوق البيت . ثم انطلق كالسهم في الفضاء !.

*

كان المارة يتوقفون حينما كانوا يرون غيمة من العصافير ، تحلق فوق رأس تلك المرأة العجوز. وتحت ظل تلك الأجنحة المفردة كانت راقية سليم تغني أهازيجها وهي تقف وسط صينية شارع الأربعين عند تقاطعه بشارع العرضة . ثم تنزل العصافير الصغيرة الملونة فوق كتف العجوز.. وفوق رأسها . فتبدو العجوز للمارة مثل شجرة غردة بالطيور المشقشقة . وعندما تترك راقية المكان كانت العصافير ترفرف أجنحتها .. وتطير في فضاءات راقية سليم الزرقاء والممتدة حتي الأفق .. أما ذاك العصفور الصغير الذي أطلقه ياسر فقد كان ينطلق ليلحق بسرب الغناء الفضائي الأزرق .

*

في الوقت الذي انطلق فيه العصفور من القفص .. وإرتفع عالياً .. ثم غاب . إستدار ياسر على عقبيه .. وعندما دخل المطبخ رأي الجدة حليمة تبكي بدموع كبيرة .. تنزل حتي صدرها . لقد انطلقت أحزان الجدة حليمة من أعماقها البعيدة .. لم يكن هو عثمان .. ذاك الذي كان ينام الي جانبها .. لم تكن حرارة الجسد هي ذات الحرارة .. ولم يكن الإرتعاش هو ذات الأرتعاش . كان الشعر خشناً .. والقدمان غليظتين .. والصدر أعرض وأقوى .. ورائحة العرق حادة نفإذة ..

كانت تعرف أنه ليس عثمان . ولكنها بدون ان تعرف ما يحدث تماماً .. كانت تصدق تحت ضغط قوي خفية أنه عثمان !! .. وجرت الدموع .. وانبهم صوت مكظوم وإختلط بالدمع . لقد تفجر الحزن القديم .. منذ مساء البارحة .. حينما صارحتها ربيبتها رحيمة منصور بخشيتها من عدم إتمام زواجها بالطبيب . فالعريس بات يشك فيها شكاً قاتلاً !.

.. وقالت رحيمة منصور .. كيف الخروج من المأزق ! .. فالعرس غداً .. وبطاقات الدعوة وزعت!.

قالت حليمة عبيد .. ولكن ما هو السبب في تملصه من الأمر برمته ؟.

قالت رحيمة منصور .. أردت أن اكون صادقة معه فأخبرته بذلك الحادث القديم الذي وقع!.

قالت حليمة عبيد .. لقد زرعت الشك في قلبه . والحب لا يعيش مع الشك ! .

قالت رحيمة .. وما العمل الآن ! .. أنني أخشي من الفضيحة!.

قالت حليمة .. لا عليك .. سأتدبر الأمر .

*

جاء ياسر . وجلس قرب جدته . مسح دموعها .

قال .. لماذا تبكين ؟.

قالت .. لا شيء .

قال .. لا شيء وأنت تبكين . أهو أبي ؟

قالت .. عرس رحيمة معرض للإنهيار .

قال .. ولماذا .

قالت .. العريس لن يأتي .. مما يعرضها لفضيحة داوية ! .
قال .. الاّ يمكن علاج الأمر بطريقة ما ! .
قالت .. كيف ؟ .
قال .. كأن يتزوجها أبي !
قالت .. كيف ؟
قال .. إنهما يحبان بعضهما الاخر .. حب صامت .. يبدو كالنسيان والحلم .. فلنوقظ أحلامهما .
.. صمتت حليمة عبيد وأومأت برأسها .. ومسحت على رأس حفيدها في حب عميق .

*

في ليلة الخميس .. نصبت خيمة العرس . تلألات الأضواء الملونة . صدحت الموسيقى .. وجاء المدعوون .. التفت الفتيات حول العروس .. ساد قلق كسحابة فوق رأس رحيمة منصور .. وحاولت رحيمة الاّ يظهر هذا القلق .. وشاع همس الفتيات وبلغ مسامع الحضور .. «سليمان إختطف العروس من عريسها .. في اللحظة الأخيرة .. في البدء كان متردداً .. ولكنه حسم الأمر في رعونة..» .. «ياله من مراهق كبير .. أليس الأجدر به أن يبدأ الأمر كله بداية صحيحة ..!!» فوق الكرسي المحلي بالأزهار والأضواء الملونة جلست رحيمة . جاء المأذون .. وظهر سليمان في بذلته الزرقاء . تعلقت به العيون . مشى والهمسات تحيط به . وجلس الي جانب عروسه . أمسك سليمان براحتها . والبس أصبعها خاتماً بعد أن خلع خاتم العريس الغائب . وضجت الحفلة بالزغاريد . وأمسك ياسر بالمايكريفون معلناً بداية الغناء.

بعد العرس بشهرين .. أشاعت رحيمة في البيت دفئاً . فهي تعطي سليمان الدواء في انتظام وتقرأ له الكتب والصحف . وتحاول خلال هذا أن تحيي خلايا ذاكرته . وقد أضافت الي أعبائها الاسرية عبء الإستذكار مع ياسر . إذ قدمت أوراقه لإمتحان الشهادة السودانية للطلبة الممتحنين من منازلهم . وبمثل ما كانت تنعش ذاكرة سليمان .. كانت تغذي عقل ياسر وتثقفه .. فأتسع الأفق أمامه بشكل فسيح .. فوضعته أمام المشهد الكبير .. أمام الحياة .. فأمتلأ بذاك الحماس الروحي العميق .. حينما تشتعل رغبة الحياة وتشتبك مع الأفكار والرؤي . وفي هذا الوقت كانت رحيمة تقرأ رواية «صباح الخير .. أيها الوجه اللامرئي الجميل ..» بعد أن خلصت من إعدادها .. فأعطتها لياسر وكانت تتحرق لأن تسمع رأيه . قلب ياسر الصفحات .. ثم أعاد القراءة .

.. وقال .. الحياة ليست هكذا ! .. هي أبسط من هذا بكثير !.

قالت رحيمة .. كيف ! .

قال .. ان هذه الحيوات تنطلق في تعقيدات لا نهائية .. فهي مثل الكسر الدائري . والأمر غير ذلك تماماً ! فهنا حكاية تبدأ .. وتتولد حكاية .. ثم تتولد حكاية أخرى .

قالت رحيمة .. إنها جدلية السرد .

قال .. دعك من الألفاظ الكبيرة . فأنا أحب تلك البنت .. أنساها .. أحب أخرى .. أنساها.. فالحب مشروع مفتوح على إمكانات بلا أفاق محددة . وليس هناك شرط ما يربط بين هذه الحكاية وتلك ! .

قالت رحيمة .. كأنك تريد أن تقول أن الحياة هي تفكيك دونما

صلة وصل تربط بين هذا وذاك!.

قال ياسر .. بالضبط !.

قالت رحيمة .. هذا ما تبدو عليه الأشياء .. من خلال نظرة عجلى .. تبدو مفككة .. ولكنك أنت الذي تعطيها هذا الإتصال .. هذا الجريان .. فأنت مركز الدائرة التي تلم هذا الشتات .

قال ياسر .. إذاً كيف تعود لسليمان هويته .. (أناه) وأصالته !! .. لا أظن ان هذا الورق يستطيع فعل شيء . وفي هذا الإفتراض خطأ ما !.

قالت رحيمة .. ما هو الخطأ ! .

قال ياسر .. ان الحقائق داخلنا .. وليست خارجنا . إننا نمتليء بحقائقنا !.

قالت رحيمة .. لكي نشفى أنفسنا فنحن نكرر التجارب ذاتها التي كانت مصدر ألمنا !.. لكي نسير على هذا الألم ونتحكم فيه .

قال ياسر .. أنني اكرر تجاربي .. لأنها أكثر عذوبة .. وجمالاً .. فأنا لا أريد أن أفتقدها !.

*

لقد بدأ حب سليمان لرحيمة يزهر .. حينما أزهرت الأوقات بقربها الدافيء .. فتعود سليمان على الدواء والحنو الذي فاض . فشمل حب رحيمة لسليمان حليمة عبيد وياسراً . فأخذت حياة سليمان تنحصر في هذا النطاق الضيق الذي يشمله وسط أسرته الصغيرة . وداخل هذه الدائرة .. داخل هذا الوجه المرئي اليومي كانت حياة سليمان تدور هادئة . تتعاقب فيها ذات الأفكار وذات المشاعر . فكان العالم شديد التماسك لا يعاني من صدع أو كسر .. عالم مألوف لا

يثير شكاً أو سؤالاً !.

*

أما حليمة عبيد فقد كانت متوترة منذ أوائل المساء حتي هذا الصباح. فلم يغمض لها جفن. إذ أوشكت رحيمة أن تضع مولودها . وقد عرفت حليمة عبيد ببصيرة من يحب .. أن حالة رحيمة خطيرة لا تدعو للرجاء . إذ توجعت رحيمة وجعاً قاسياً . فكانت تكتم صرخاتها حينما يأتيها الطلق موجة إثر موجة .. إنقباضات في العضل تكاد تعصر روحها . وأتوا بالداية التي حقنتها بالحقن الشرجية . وعندما طلع الصباح حملوها لمستشفي الولادة . وفي المستشفى تم قياس ضغط الدم وضغط الجنين .. والسكر والدم .. وكان التقرير الطبي متفائلاً . أدخلت رحيمة حجرة العمليات . ولم تمض سبع دقائق الاّ وكانت رحيمة ذهبت في غيبوبة كاملة .. فكان كيس الماء داخل الرحم قد إنفجر . وجرى السائل المائي ووصل الي جريان الدورة الدموية . ومن ثم طلع في الدماغ . فصدمت أجهزة الدماغ . فماتت رحيمة وانطفأت كشعلة في مهب الريح .

*

بموت رحيمة .. كان سليمان قد ضرب ضربة صاعقة ومفاجئة. فتحركت خلايا الذاكرة بفعل الألم . فكان صامتاً . يرتعش جسده من الرأس حتي القدم . وجاءت كل الأزمنة ودارت مثل كسر جبري رياضي دائري !! .

*

وبعد أسبوع من دفن رحيمة .. ذهب سليمان سراً الي قبرها المستظل بشجرة السنط ذات الزهور الصفراء . وجاء زمن كاترين ..

السنديانة والخراف ذات الاجراس .. ورائحة الزنابق .. وطنين الهوام المحلقة في الهواء .. وفرانسواز نائمة في نعاس الضحى .. تغطي وجهها بقبعتها السعف. وكاترين ومتاهي الحب والشعر .. وسونيا .. الثورة والشعر والأقنعة . وافتقد سليمان رحيمة خلاصة نساء العالم .. ذاك الفهم الإنساني العميق .. وذلك عندما يحب الإنسان حباً حقيقياً.

ووسط الظلام كان هناك شبح يراقب سليمان .. إنهار سليمان وانكفأ فوق القبر .. وأخذ ينشج . كان سليمان يركب جواد الزمان اللامرئي .. يمتليء بالأشياء .. لم ينس تفصيلاً . وكانت راقية سليم مركز الذاكرة .. هي النواة .. التي أنبتت فروعاً في شجرة الحب .. لقد عرف سليمان أنه يستمد طاقة الحب من راقية سليم .. فهو لا يحبها لذاتها .. ولكنها هي أصل هذه النار المقدسة التي تضيء داخله وتقوده الي الأنثي الرمز والإشارة . لقد جاء لراقية سليم في الزمن الخطأ . لقد كان هواها معاكساً لهواه .. لقد دخلا في تيار الهوى المتعاكس . فعندما كان هو يحبها .. كانت هي مازالت متعلقة بزمنها الضائع .. بالبنت صاحبة البسكليت الصداح الأجراس .

وشعر في غمار ذالك بيد تمسح على رأسه .. فأجفل . ودنا ياسر من أبيه فضمه الي صدره .. وانهضه . ثم قاده في الطرقات الموحشة الظلمة . وصلا الي البيت .. طرقا الباب .. وجاءت حليمة عبيد وضمتهما معاً الي صدرها .

*

جثم غياب رحيمة منصور على البيت . فشحب لون أوراق الشجر . عم البيت والحديقة صمت حزين .. وكانت كل محاولة يبذلها سليمان وحليمة وياسر للنسيان تشعل ذكري رحيمة وتجعل

غيابها حضوراً . وكان لابد من الخروج من هذه الدائرة . فدفعت حليمة عبيد بولديها بعيداً من هذا الحزن . فكانت في حديثها اليهما تلمح عن ضيق موارد العيش . وأنها سوف تذهب بنفسها لإدارة الورشة الميكانيكية . فلم يأخذا تلميحاتها مأخذاً جاداً . وعندما ذهبت حليمة للورشة في الصباح الباكر . إضطر سليمان وياسر ان يلحقا بها .. وأن يرجعاها للبيت . وهكذا دارت عجلات العمل في الورشة . ووسط هذا العمل العنيف اليومي .. كف سليمان عن رؤية ذاك الوجه اللامرئي . فإنخرط في الحياة اليومية وغاص فيها . ومن ثم عاود سيرة أبيه عثمان . فعمرت الحديقة مجدداً بالأحاديث القديمة . وبإنشاد الشعر وقصص الحب القديمة . وكان سليمان يروي للسمار بعضاً من أحداث رواية «صباح الخير أيها الوجه اللامرئي الجميل ..» .

*

دارت عجلة العمل في الورشة . تدفق المال .. وتوسعت الورشة . إذ أضيفت لها روافد للصيانة وبيع قطع الغيار . كما ضمت عدداً كبيراً من العمال المهرة . فكانت طاقة سليمان قد إستعادت قدرتها . فلم يجد ياسر له في الورشة عملاً يستوعب طاقته . خاصة وأن مشروعه للدراسة بالجامعة قد توقف . فأشتري له سليمان سيارة كريسيدا حولها الي تاكسي . فانطلق ياسر في المدينة كما لو كان يبحث عن شيء مفقود . فتارة كان يبحث عن راقية سليم .. ثم تختلط الأمور فيبدو الشعور مبهماً غامضاً .. لا مرئيا .. ولا يسأل نفسه (تري هل سيجد هذا الشى المفقود خارج نفسه ذاتها .. !!) وحينما كانت السيارة تنطلق في شوارع المدينة وتدخل إزقتها وساحاتها .. كان مسجل السيارة يصدح بالأغاني . ويطلع راكب

وينزل راكب . وفي ذاك الضحى .. عندما كان ماراً في شارع المسالمة امام الكنيسة .. أشارت له إمرأة بالتوقف . توقفت السيارة بشكل مفاجيء حتي صرّت عجلات السيارة صريراً حاداً . ركبت المرأة وطلبت منه أن يحملها ذهاباً وإياباً .. الي مقابر أحمد شرفي . دارت السيارة وتوجهت الي مقابر أحمد شرفي . نزلت المرأة .. واتجهت الي قبر يعده البناؤون . وفوق القبر مظلة .. وعلى جانبيه لافتة مكتوب عليها بخط رقعة .. «هنا ترقد المرحومة عائشة مرسال المعروفة سابقاً بسوزي دفيد ..» وكان العمال والبناؤون يخاطبون المرأة تارة باسم عائشة مرسال وتارة باسم سوزي دفيد . وكانت عائشة مرسال او سوزي دفيد تسقي شجرة نيم صغيرة .. وأشجار ورد إنجليزي .. كانت قد زرعتها قبل ستة أشهر منذ أن إزدحم صدرها بكابوس الموت. اعطت البنائين مالاً .. وطلبت منهم أن يطلوا القبر باللون الأخضر العميق الإيناع . ركبت عائشة مرسال قرب ياسر . تحركت السيارة .. وكان ياسر قد عرف من الحديث الذي دار بين عائشة والبنائين غرابة أطوار هذه المرأة . فهي كمن يضع رجلاً فوق القبر ورجلاً خارج القبر .. تتأرجح بين فكرتي الموت والحياة . ويزداد التناقض عندما تفوح رائحة أزهار التوت من عائشة . وعندما تصلصل الأسورة الذهب من الرسغ حتي منتصف الذراع . شعرها مصبوغ بالحناء .. ووجهها مجعد يلتمع ببقايا جمال . أما جسدها الملفوف بالثوب التوتال المورد ، والذي يهتز فيغطي منتصف رأسها . ومع إهتزازات السيارة فقد كان جسدها يترحرج مكتنزاً مرهلاً في إسترخاء الإستسلام المرح . وكانت عيناها تبرقان بريقاً حاداً كما لو كانت ترى شيئاً غير مرئي في الأصل . أهو الموت أم الحياة .. أم هو الشيئان معاً

حينما يجمعهما هذا النزوع المحب . وكان الإحتمالان واردان في حساباتها الذهنية والوجدانية . فهي قد تموت الآن . أو قد تموت غداً .. أو هي قد تعيش ردحاً من الزمان .. من يدري ! وفي مسافات الترجيح بين الإمكان والإمكان .. داهمتها مشاعر شديدة الإضطراب والخلط . لقد هجرها رجلها منذ شهر . فعاشت الوحدة والهجر والمخاوف والرغبات الجسدية المؤجلة . وها هي نار الحياة تسري في جسدها كما تسري العصارة في جزع شجرة آيلة للسقوط . . وها هي الأغصان تتبرعم بعد موات . فكانت زهور التوت تنشر أريجها

وتمتليء خياشيم ياسر بعطر غريب له دفء الحماس الروحي الذي يدفع القلب لان ينبض في إيقاع حي من وزن مع اللحن الأساسي للحياة في نسق غرائزها المتفجرة بالإيناع والنمو والوصل والتواصل .

*

دخلت السيارة في شارع جانبي . وأمام فيلا صغيرة من طابق واحد توقفت السيارة . نزلت عائشة . أعطت ياسر أجرته . واتجهت نحو مدخل الفيلا . أحكم ياسر اغلاق سيارته . ومشى خلف عائشة . دخلت عائشة غرفتها .. دخل ياسر وراءها .. ووقف في منتصف الغرفة .. وكانت عائشة تغير ثيابها . لم تنظر اليه . ولم تقل شيئاً . كانت هادئة . جلس الي جانبها. احتضن راحة يدها بين راحتيه . ومن الشرفة كانت الببغاوات داخل قفصها تمرح .. ترفرف الأجنحة وتصطفق .. لقد تفجر في كيان الطيور حماس للحياة عجيب .. فكانت أجسادها المغطاة بالريش الملون .. ترتجف حتي مخالبها بمعرفتها الباطنية لهذا السر الذي تستطبنه العروق والعظام والقلب .

كانت عائشة مرسال .. أو سوزي دفيد .. مثل الطيور .. لا تملك إلاّ ذاكرة بايولوجية .. وكل الذي إستطاعت ذاكرتها أن تدونه .. هو بعض الوقائع .. وحينما تسترجع عائشة هذه الوقائع الآن.. فهي تبدو غائمة كما لو كانت تستحضرها من غرف مغلقة ومظلمة . ففي الغرفة الأولى .. أقنعة أفريقية معلقة على الحوائط . وتوتم مكسو بجلد ثعلب له عينان صفراوان . أما الغرفة الثانية فقد علقت على حائطها الغربي صورة العذراء مريم . وايقونات وشموع . وفي الغرفة الأخيرة .. مسبحة ومصلاة . فكانت ذاكرة عائشة تنتقل بين الأمكنة الثلاث

وتدور مع زمان حاد الزوايا . فعندما كانت في السادسة عشر ، لم تكن تعرف مكنونات روحها المتناثرة في المشارق الروحية البعيدة . لقد كانت تعيش اليومي في إرتعاشه وتموجه الحار . وفي ذات العمر تقريباً .. تم تعميدها كمسيحية في كنسية القرية بأعلى الجبل. وجاءت الي أم درمان. فتعلمت بمدارس الإرسالية الكاثولوكية .. وعملت معلمة بمدارس الراهبات. واستخدمت مجاهد آدم .. وهو من أبناء

جلدتها .. أحد أبناء جبال النوبة . كان يطبخ ويقوم بأعباء خدمة البيت. وفي بطء نشأت بينهما علاقة قلبية أملتها مشاعر الوحدة عند (سوزي دفيد) .. وأملتها روح السيطرة عند مجاهد آدم . ومع الأيام سيطر مجاهد على مقاليد أمور (سوزي دفيد) .. فهو الذي يعتمد البنك إمضاءه .. وهو الذي يستلم إيجارات الدكاكين والبيوت في كل آخر شهر . وامتدت هذه السلطات وقويت كنوع من القهر الذي وصل الي حد ضربها . لقد صبرت طويلاً .. وبعد السنة السادسة قاومت القهر .. وسرقة أموالها .. فما كان مجاهد إلاّ أن ضربها بظهر يده المرصعة بالخواتم . فثلم فمها .. حتي تساقطت أسنانها الأمامية .

ومثل قطة متوحشة أهاجها الحصار نهشت باسنانها ظهر يده ومزقتها . ومنذ ذاك الصباح فرّ مجاهد آدم بجلده . أطلق عصافير الكناريات من أقفاصها .. وسمم قطتها المدللة وسحق ورد الحديقة .. وذهب يضمر الضغينة .

*

واجهت سوزي دفيد وحدتها . ولم يكن ممكناً أن تجمع بين الفائدتين معاً . فهي قد لا تحتمل الوحدة ولكنها في ذات الوقت لا تحتمل الرفقة الفظة. فزهدت في الرفقة .. فصرفت وقتها في انماء وأزهار وأشجار حديقتها . ووضعت أقفاصها للعصافير في كل أركان الحديقة . وجلبت قططاً ذات فراء ناعم كالمخمل.

فأستأنست بوحدتها الأليفة . وفي صباح الأحاد كانت تذهب الي الكنيسة . وشيئاً فشيئاً كانت أم درمان تؤثر فيها . فاختلطت أم درمان وجرت في دمها بعمق . وفي الآونة الأخيرة دفعتها الكهولة والوحدة الي التفكير في الموت . فكان الهاجس يدور . وبسبب كل هذا إشترت كفنها وخاطته .. مكاناً واسعاً كفضاء .. وكانت فكرة مجنونة تسيطر عليها .. أن ينام الي جوارها في الموت أحد يقاسمها الموت . كما لو كان الموت إستمراراً للحياة .. نوم عميق يلحقه صحو مشرق .. لقد أعدت مقبرتها صندوقاً من خشب الصندل . ورغم هذه الشجاعة التي لا تخلو من الخور والتصنع والتي مبعثها خوف وجدوي .. هو حماس روحي عميق .. فالنوم .. أو الموت .. زمن تجري الأحداث فيه كما تجري النقط في خط الدائرة . نقطة وراء نقطة .. وتنغلق الدائرة .. إذ تبدأ من حيث تنتهى .. وتنتهي من حيث تبدأ .

لقد كان مثل هذا التفكير يجعل سوزي دفيد متقلبة المزاج ..

متناقضة الأطوار .. فأخذ وجه الحياة المرئي يتداخل ويتقاطع .. أو يتوازي مع ذاك الوجه الذي لا يرى . ومثل المراجيح أخذت تروح وتجيء أفعالها بين المعقول واللامعقول .. بين رجاحة العقل حيناً وبين الجنون حيناً ! . ففي كل مساء كانت تبترد .. وتتعطر بروائح الموت النفاذة .. تلبس كفنها .. هذا الثوب الكوني الأبيض المتسع الأفاق .. تغمض عينيها وتنام . وتقول لنفسها وهي تلعب بلعبة الموت «.. ها أنا أموت .. فليس في الأمر كبير عناء .. ولا مأساة..» .. وتنخرط في أشياء الحياة البسيطة .. تلعب مع حيواناتها الأنيسة . وتسقي براعم الورد الآخذ في الطلوع . ويدق قلبها مثل طبل عندما تجيء صورة الولد ياسر .. ويشملها حزن . فهناك بينهما أشياء كثيرة .. لم تفعل بعد .. إمكانات لم تتحقق بعد .. حياة بكاملها بينهما لابد أن تعاش . حياة بسيطة يشتركان فيها .. بسيطة كحركة مناقير العصافير وهي تلتقط الحبوب . أو القطط وهي تموء بالرغبة .. وتمط أجسادها بالكسل والنعاس .. شيء كطنين النحل فوق أكمام الرحيق المنشور بين الأغصان . وتصحو سوزي دفيد من نومها . وتبدل ثيابها .. تتزين .. وتسمع فوق ممرات الحديقة وقع خطا ياسر . فتمتليء سوزي بالحياة كما يمتليء الصباح بالشمس .

*

استقبلت سوزي ياسراً في الحديقة . كانت ترتدي ثوباً قطنياًموردا بسيطاً . ورغم اكتهالها الاّ أن وجهها كان يكتسي بجمال خاص . كانت تتحاشى أن تبتسم . فكانت عيناها تبسمان في وميض عميق .. وكانت تلثغ في الكلام .. ورغم بساطتها المحببة .. الاّ أنها كانت إذ أحبت أحبت بكل كيانها.. وإذ كرهت أحداً فقد كانت

تنساه كما لو كان غير موجود يوماً في حياتها . فلم تكن ذاكرتها تتراجع الي الوراء أبداً . ولهذا فهي الآن تمتليء بهذه اللحظة من قمة رأسها حتي قدميها .. فلم تسأل نفسهاأبداً .. مإذا يريد منها هذا الولد ! .. ولا مإذا تريد منه هي ! .. لم تسأل .. ولم ترتب في شأن هذا اللقاء .. ان كان مصادفة حقاً .. أم أن كان تدبيراً متعمداً .. هي لم تنكر أنها حينما رأته في حي العرب أكثر من مرة كأن مرآه قد نفذ الي أعماقها . فهي قد تعمدت ان تركب معه ! .. ولكنه كان يدير الأمر.. فلم تكن مصادفة من مصادفات الحياة ! .

*

كانت العصافير تشقشق .. وكانت القطط تموء تحت المائدة . فترمي لها سوزي بقطع صغيرة من الجاتوه والتورتة .. فعندما كانت تنحني لترمي بالفتات للقطط .. كان ذراعها الممتليء المترهل يظهر عريه من فتحة الذراع . وعندما صبت الشاي في قدح ياسر .. تنهدت وهي تشعر بمرح عميق. ولم يكن بها رغبة في الكلام . كانت تعرف الناس من إنفعالاتهم وإرتعاشات أجسادهم وبريق عيونهم .. وما كانت لتصدق ما يقولون مطلقاً . كانت تعتمد على الوصال المبني على الدفء الإنساني الذي يرسله اليها الآخر . مما أعطى ياسر انطباعاً خاطئاً عن عائشة . فكاد لا يعرفها .. وحينما كان يقارن بينها وبين رحيمة منصور ذاك العقل الثاقب واللسان المفصح .. كانت عائشة عنده سطحية العقل عييه اللسان .. فكان ياسر يظهر نفسه لعائشة في صورة مرسومة بدقة . كان يتحكم في تجربته معها ويديرها الوجهة التي يريد . فكان هذا التآمر يجعل شعوره بالذنب عميقاً . فكاد بالخديعة يختنق .

وفي ليلة البارحة .. لم ينم ياسر كان مصباحه مضاءاً حتي الفجر بقليل . كان رأسه يدور .. وتجثم على صدره كتلة صلدة من المشاعر المتنوعة التناقض . إذ لم يجد ياسر خيطاً واحداً ينظم هذه المشاعر ويرجعها الي مسبباتها . فكانت الأشياء تبدو حتمية تارة .. وتارة تبدو محض مصادفات . ولكن يمتليء بمرارات ضد سليمان . لماذا كانت مصائره مرتبطة براقية سليم هذا العقل المذهول .. لقد جرجرته وراء ها في مسافات اللازمان واللامكان . فلم يعرف لنفسه هوية .. فكان التشرد الذي يتجول في الفراغ وسليمان هو حلقة الوصل التي تربط بين الشيء واللاشيء!!.

*

لقد تشكل ياسر بهذا الشكل الذي لا يعرف إستقراراً . وبسبب هذا كله ملأت رحيمة منصور هذا العقل الغض بالأفكار الكبيرة والمشاعر المعقدة. لقد سلبه سليمان هويته .. ولم يتح له حتي فرصة واحدة لأن يجرب تجربته .

لقد كانت الأبوة عبئاً ثقيلاً يحمله ياسر فوق ظهره . فياسر يصبح ظلاً لسليمان وتارة يصبح سليمان ظلاً لياسر .

*

لقد دار بينهما نقاش حاد صباح أمس . إذ غضب سليمان من التناقص المستمر في الإيراد اليومي الذي يدره التاكسي .

قال سليمان .. أنت تكذب ! .

قال ياسر .. أنني أقول الصدق ! .

قال سليمان .. أنك تنفق المال على تلك المرأة ! .

قال ياسر .. كيف عرفت ! .

قال سليمان .. كل أم درمان تعرف . فهي أمرأة سيئة السمعة . وشهرتها تنتشر من حي العرب حتى بانت والفتيحاب .

قال ياسر .. ثم مإذا بعد ! .

قال سليمان .. زد على ذلك .. أنها في عمر أمك ! .

قال ياسر .. لست وحدي .. كثيرون مثلي ! .

*

كانت القطط تموء .. تمط أذيالها .. وتطويها . وتتعلق بساقي عائشة مرسال . والعصافير تهدل هديلاً متواصلاً كما لو كانت ترتل نشيداً .

كان ياسر في هذه اللحظة يتحكم في مشاعره المتناقضة ويوجهها الوجهة التي دبرها كما لو كان يدبر مؤامرة . فكانت حماسته تخفف من حدة شعوره بالذنب .

قال ياسر .. لماذا تحملين اسمين ؟ .. عائشة مرسال .. وسوزي دفيد!

قالت .. وما أهمية ذلك .. فكلا الاسمين هما أنا !.

كان ياسر يريد ان يتولد الحديث بينهما الي أبعد من ذلك . وعرف ياسر ان سوزي دفيد إمرأة مختلفة .. فهي ترفض فكرة الكلام أصلاً .. وتعتبر ان الكلام أكثر أنواع الإتصال تضليلاً .. فالتعبير دوماً ناقص .. ورغم ثقافتها ومعرفتها التامة للانجليزية وآدابها وتعلقها بالغناء والشعر والموسيقى .. الاّ أنها لم تكن لتعزل بين المشاعر والأفكار والحياة . كانت تجعل نفسها دائماً في مهب تيارات الحياة .. ومن هنا كانت عفويتها !! . فلم تأخذ من أسباب التمدين إلاّ بالعنصر الذي تتجلى فيه حيوية الحياة .

كانت السماء داكنة .. تأخذ في الإنخفاض كما لو كانت تريد ان تنطبق .. والسحب السوداء تزحف موجات من الرمل الرمادي والأزرق والأسود .. تتخلله فراغات صغيرة بيضاء .. والريح تهب.. في تيارات منخفضة ، فتتلاطم أسلاك الكهرباء فتصدر شرراً وبرقاً . أما جهة الشرق فقد تفجرت ببروق دخانية وهاجة .. كانت تتشكل في شكل شجرة كهربائية خضراء . كانت قوانين الطبيعة كلها تضطرب .. فعمت لحظة كثيفة منفلتة عن النظام .. ودارت عواصف الفوضى وإنهمر المطر حبات دقيقة كالخرز وهي تميل بزاوية حادة .

وتحت دوافع إنسانية كثيرة التعقيد .. إرتمي ياسر في صدر سوزي دفيد . ومثلما كانت السحب تتصادم كيفما شاءت تصادم فما ياسر وسوزي دفيد . إنهمر المطر فوقهما . وانكمشت أجنحة العصافير في أقفاصها . وعندما إنفصلا .. انتفضت الأجنحة ناثرة حبات المطر من ريشها . وجرت سوزي دفيد في إندفاع خجل الي داخل البيت .. ووقف ياسر وسط هذه الطبيعة الهائجة ، مثل تمثال . ورجعت سوزي دفيد مبللة بالمطر ومستدفئة بحبها الجياش . وكان المطر يغسل ياسراً . قادته الي الداخل وجففته بالبشكير في حنو أنثوي أمومي . وصنعت له شاياً ساخناً . كانا صامتين.. مشمولين بفوضي لحظة مشحونة بالحماس الروحي . ذاك النوع من الأنفعال الصوفي حينما تعمل حيوية الحياة في تحريك الروح بأتجاه الآفاق البعيدة فيما وراء خط الأفق .. فكان الزمان قوس قزح ضوءاً أحتراق الزجاج الروح فتناثرت اللحظة الواناً شديدة البهاء ولا معقولة . كان الشعر ذاته .. حينما شملهما إنفعال الحياة الصافي .. فكانا تمثالين من الكرستال النقي . لقد حلقا فوق مستوى التعقيدات التي تمثل شروط علاقتهما على صعيد المنطق

والمعايير .. فلا التفاوت في عمريهما .. ولا الخوف .. كانا بقادرين على أن يصنعا حاجزاً لإنطلاقتهما الفوضوية .

*

وبسبب هذا كله .. إنبعثت لحظات قديمة واشتبكت مع اللحظة الحاضرة . ودار الزمان كتلة واحدة حية مثل خلايا تدور كلها لتنبض بالحاضر الكثيف . فتناولت سوزي دفيد كتاب أشعار إبن زيدون وعند الصفحة الستين .. كان هناك موشح وهناك وردة ذابلة مغطاة بالغبار .. وتحت الوردة والغبار كان الموشح يغني .. «يا زمان الوصل بالأندلس .. لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى .. أو خلسة المختلس..»!! .

ووضعت سوزي الوردة الذابلة في منديل حرير .. وأعطت ياسراً تذكاراتها الذابلة وحبها الندي !.

*

تحت المطر .. والبرق والعاصفة .. تحت المرح الطفولي .. والحزن الناضج .. تحت ثقل وطأة تلك اللحظة الحية الذابلة .. جاءت طيوف .. وذهبت طيوف .. كان الشوف باطنياً محضاً .. كأن ترى ولا ترى .. أو كأن تخترق البصيرة جسم الأشياء .. فتصبح الأشياء هي الأشياء .. وليس هي الأشياء في ذات اللحظة . وفي وسط هذا الإنجذاب الوجودي قاد ياسر سيارته وانطلق في شوارع المدينة .

كانت مساحات المطر فوق الزجاج الأمامي تعمل جيئة وذهاباً .. وتئز مثل دبور طنان . وكانت أم درمان تمر مشاهداً عبر زجاج السيارة .. هي ذات المدينة .. وليست هي ذات المدينة .. البيوت الترابية الحمراء .. النوافذ الزرقاء .. الطلاءات الصفراء .. الأشجار ..

الجلابيب البيض والعمائم المغبرة .. عجيزات النساء وهي تدور كدواليب .. والحزن والضحكات .. والمشاجرات في الأسواق ..

التفاوت الطبقي الحاد ما بين الريف العشوائي والبنايات التي تحت التشييد .. ومرق الفول المصري الي جانب الأعناب والتفاح الأحمر والأخضر .. وضجيج السوق الشعبي .. ورنين الدولارات في سعد قشرة . وازدحام الأجساد في البصات حتي تعب العصب الملتذ بالإرتعاشات السرية . فهو عالم يمر بتوافه الأمور .. وهو في ذات الوقت عالم شفاف نقي .. هذا ان أنت نظرت اليه من وراء زجاج متحرك في لحظة متحركة تجمع بين الواقع وماوراء الواقع .

.. فكان ياسر يرى بشكل واضح تلك العاطفة الغامضة التي كانت تربط سليمان براقية سليم.. فلم يمتلك إلأ أن يعطف على شقاء الإثنين معاً .. وان لم تعتريه عاطفة الإشفاق علي الذات فيما يخص علاقته بسوزي دفيد.

*

هدأت العاصفة . وجلست سوزي دفيد وسط سريرها . وفرشت ثوب موتها الأبيض . وكان الكتاب الذي تحتفظ فيه بالوردة مفتوحاً على ذات الصفحتين . اللتين كانتا تحتفظان بهذا الحب الذابل والمرجأ منذ ثلاثين سنة ماضية . كانت الوردة الذابلة .. نضرة قبل قطافها .. وكانت سوزي دفيد تنتظر كل تلك السنين . كانت تنتظر من تهديه هذه الوردة . وها هو الحب الذي إنتظرته قد جاء. ولكن الوردة ذبلت . ومثل وخز الإبر كان الأسى ينوش صدرها . فلبست ثوب موتها وتناومت. ووقتذاك كان شخص ما يقف قرب رأسها .. فأخذت تحلم تحت ضباب الوسن . وكان هذا الشخص يلبس ثوباً

شفافاً كالثلج .. وكان يذوب في بطء . كان يحمل ساعة رملية . الساعات تمر والثلج يذوب. وهي تنتظر الساعة الآتية . وينقضي اليوم فتنتظر .. وتنتظر الغد . فانصرف عمرها يوماً بعد يوم . والساعة الرملية تمتليء في نصفها الأسفل . وتنقلب الساعة ، فيمتليء نصفها الأعلى. ويتسرب الرمل الي النصف الأسفل . وتجري الساعات .. تجري .. تجري .. وها هو الحب يجيء في غير مواسمه .

*

عندما كان العمر ربيعاً .. والأحلام أغان .. وأم درمان مدينة .. في بدايات حماسها .. تمتد من أبي روف الي العباسية والموردة جنوباً . ومن الملازمين شرقاً والعرضة غرباً . فكانت الشوارع الترابية ترش بالماء لتمنع الغبار ومرض السحائي . ويفوح عبير النرجس في الحدائق. والليالي تزهر بالغناء والشعر .. ويتألق بيت عائشة مرسال بالأضواء والجمال والشباب . لقد صدح خليل فرح بعزة .. وطمبل أفاض في الحديث عن الحداثة . وسرد أدورد عطية الخطوط العامة لمسودة روايته الطليعي الأسود .

كانت عائشة مرسال ملكة على العرش . تتربع على القلوب .. وتلهم الخواطر وتلهب الخيال .. وكانت تمسك بالعود وتعزف وهي تغني « .. زمان الوصل بالأندلس» ..

لم تكن لتحب أحداً . فكانت تحتفظ بوردتها منذ ذاك الزمان لفارس يأتي . وقد جاء فارسها الآن مثل حلم .. الآن في هذا الضحى المظلم المطير.

*

ومن جديد أشتعل اوار الخصومة بين ياسر وسليمان . وحاولت

حليمة عبيد أن تصالحهما.. ولكن دون جدوى . فقد كان غضب سليمان لا يهدأ . فكان أقاربه يأتون اليه ويدفعونه دفعاً ليتخذ موقفاً حاسماً من علاقة ابنه بعائشة مرسال .

لا بد من إبعاد الفتي عن هذا الخطر . فالمرأة قدأحكمت خيوط شباكها حول ياسر .. وأن رجلها مجاهد آدم ينوي بها شراً مستطيراً . فهو مجرم عتيد . لا يتورع عن عمل شيء .

وتحت هذه التأثيرات قرر سليمان أن يذهب لعائشة مرسال لينهي هذه المسألة .

*

وفي المساء لبس سليمان أبهي ثيابه .. وسطع جماله مثل نجم . وقرع جرس باب عائشة مرسال. وفتحت المرأة بابها . ووقف سليمان أمام المرأة غاضباً .. وقليلاً قليلاً تحول الغضب الي دهشة .. أما عائشة مرسال فقد سرت في كيانها هزة كهربائية خفيفة مفاجئة . ثم تحول غضب سليمان الي ضعف رجولي أمام أنوثة ناضجة .

*

جلس سليمان على المقعد اللدن .. فغاص فيه . وشعر بتوتر كما لو كان وتراً مشدوداً .. وكانت الستائر المخمل البنية اللون مسدلة على طول وعرض حوائط الصالون .. وفوق سطح المكتبة الصغيرة ساعة رملية تسرب رمالها ذرة بعد ذرة . وفي الركن القصي ساعة مستديرة ذات ميناء أبيض وعقارب سوداء .. كانت تدقْ في نغم موسيقي .. فتأتي الدقات مثل سقوط قطرات كبيرة من الماء على سطح معدني رنان . وهنا وهناك تتناثر فوق الرفوف المثبتة على الحائط الشرقي رؤوس وعول وزرافات ونمور محنطة .. وتحت علبة سوداء مسطحة

ذات غطاء زجاجي .. ثبتت فراشات ذات أجنحة ملونة .. تخترق أجسادها دبابيس فتلصقها بأرضية العلبة .

.. جلست عائشة مرسال .. في المقعد المواجه لسليمان .. رفعت ذراعها فصلصلت الإسورة الذهبية .. ابتسمت في لطف .. وكصاحبة صالون في مدربة .. إنتظرت سليمان ليعلن عن غرض هذه الزيارة . ورغم أنه كان قد قدم لها نفسه بشكل غامض . إذ قال .. «أنا سليمان .. أرغب في زيارتك من مدة طويلة ..» ..

.. فقالت «أهلاً .. تفضل.» .. ورأت ألاّ تزيد على قولها شيئاً . لعله يوضح غرض زيارته فيما بعد .

قال سليمان .. أنا والد ياسر .

قالت عائشة .. أهلاً .

قال سليمان .. جئت لأتحدث في مسألة دقيقة . وأنا أطمح في أن افهم بدون التباس. جئت لأعرف طبيعة علاقتك بابني ياسر . إن لم يكون الحديث يسبب لك حرجاً !.

قطبت عائشة وجهها . وزمت فمها في إستياء وأضح . وقالت .. كونك والد ياسر هذا لا يعطيك حقاً في الحديث معي حول علاقاتي الشخصية .. مهما كانت علاقتك الشخصية بالذين تربطني بهم علاقة ما .

قال سليمان .. أنا أطلب مساعدتك في أمر يتعلق بي . لا بكس!.

قالت .. إذاً .. ماذا تطلب مني ! .

قال سليمان .. ان تتركي ياسراً .. دون أن يعرف أن هذا من أجلي !.

قالت عائشة .. لا أستطيع . فعليك أن تمنع ابنك عني بنفسك . وما يدهشني .. أنك تري ابنك طفلاً مع أنه رجل . له حياته وتجربته .. وخياراته. وما عرفته عنك أنك كنت أنت تعيش تجربتك دون وصاية أحد .

قال سليمان .. مإذا تنتظرين مني ! . ان أتفرج على هذه المسرحية !.

قالت عائشة .. أنت تتفرج دائماً على الحياة .. وتحسب عن عمد أنك تتفرج على مسرحية . فإن أنت لم تستطع ان تعيش الحياة .. فدع الآخرين يفعلون .

قال سليمان .. إنه إبني .. الا تفهمين !!.

قالت عائشة .. ولانه ابنك .. فدعه يكسب حياته !.

قال سليمان .. كيف وانت تفسدينه ! .

ضحكت عائشة مرسال .. حتى أغرورقت عيناها .

قال سليمان .. اتسخرين مني ! .

قال عائشة .. عفوك .. أنهم دائماً يعتذرون .. بأني السبب الأعظم . ولكن هي الحياة.. يا أستإذ سليمان .. أنها تلك الطاقة الخلاقة التي تشتعل .. فما أنا إلاّ الشمعة وابنك الفراشة التي يجذبها الضوء .

صمتت عائشة .. وبدأ الحزن سحابة شفافة على وجهها .. وقالت في صوت جاد لا تشوبه ضغينة ..

.. عفوك .. أستإذ سليمان .. ألم تحب في حياتك يوماً ! .. ألم تمر بمثل هذه التجربة ! .. أنا لا أعني الحب ذاك الذي يجيء في الروايات والأغاني ..بل الإنجذاب نحو إمرأة ما ! .. تكبرك سناً.. أو تصغرك .. لا يهم .. أنني حصراً أتحدث عن الإنجذاب . لا عمن

تنجذب نحوه !.

وكما لو كانت ذاكرة سليمان غرفة مظلمة ومهجورة ومكسوة بغبار النسيان . أزّت الذاكرة . وأمتلأت الغرفة بالضوء . وتدفق النور وشمل كل جنباتها . فجاءت راقية سليم .. كاترين دو لامور، أنوشكا، فرانسواز ورحيمة منصور . همس يحدث نفسه .. «هل حقيقة أنني كنت متفرجاً !! .. وكل تلك الحياة الحلوة والمرة .. والمتمازجة الطعمين ..» .. «يا للخسارة .. يا للخسارة ..».

وفي هذه اللحظة التي ساد فيها الصمت بين عائشة وسليمان .. ترددت في البهو وقع خطوات. وبعد دقائق كان ياسر يقف وسط غرفة الصالون .. ويكسر كتلة الصمت الصلدة . جلس ياسر .. وطال الصمت .

قال سليمان يخاطب ياسراً ..جئت لأعود بك للبيت !.

قال ياسر .. بهذا أنت تفقدني !

قال سليمان .. كيف أكسبك إذاً وأنت الآن تضيع نفسك !.

قال ياسر .. ارجوك الاّ تستلقي بجسدك فوق روحي . دعني أحيا .. أعطني حبك ولا تعطني تاريخك فأنا أصنع تاريخي . لقد قرأت سيرتك .. أخذت منها ما يضيء طريقي وما يبلور هدفي ..

قالت عائشة .. كل جيل يضيف .. ويصنع زمانه . الحب .. عطاء .. عطاء يا أستاذ سليمان! .

وقبل أن تكمل عائشة حديثها .. كانوا يشمون روائح حريق .. ثم أخذوا يسمعون صيحات تأتي من الشارع . فهرعوا نحو نوافذ الفيلا المطلة على الشارع . فرأوا جمهرة من الناس .. وهم يصيحون .. النار .. النار !.

*

وبعد قليل .. كانت النار تتسرب الي حجرة الصالون من الفتحة الضيقة اسفل الباب .. وتمسك في بطء بالموكيت المفروش على أرضية الصالون .. ثم انتشر الدخان كثيفاً حتي أصبح الثلاثة لا يرون بعضهم البعض .. وشملهم ، عائشة وسليمان وياسر ، ذعر كاد يشل حركتهم .. ثم انسلوا من سحابة الدخان ووقف ثلاثتهم قرب النافذة . وجاء ت سيارتا الاسعاف والأطفائية .. تزأران .. وتولولان في أصوات نافدة الصبر .. وجاءت الشرطة .. وقبضت على رجل غليظ أسود.. وقالت عائشة .. إنه مجاهد آدم .

.. اشتعلت الفيلا بالنار .. ورفعت الإطفائية سلماً حتي النافذة .. وتحت وهج النيران .. كان سليمان يري في وجه عائشة مرسال تعبيراً غريباً . لقد رأى تصميمها على أمر ما . واعتمر قلبه بالإشفاق عليها ..

.. وامسك بها ليخرجها من النيران .. ولكنها رفضت . دفعت بياسر .. ثم دفعت به علي ان تلحق بهما ..

*

هبط ياسر أولاً .. لحق به سليمان .. وأخذا يتطلعان الي أعلى . وأخذ المتجمهورون .. يصيحون .. «إنزلي .. إنزلي .. فالنار تأكل كل شيء ..» وهرع رجال الإطفائية .. وعندما وصلوا الي النافذة .. كانت النار قد أمسكت بكل شيء !! .. وكانت الجمهرة تصرخ «لقد خرجت من الجهة الأخرى».. وجرى الناس وأحاطوا بالفيلا .. ولكن النار كانت أسرع منهم فقد أحاطت بالفيلا من كل مكان . وكانت خراطيم الماء تضخ الماء حتي أغرقت الفيلا والحديقة حيث تفحم كل

شيء .. عصافير الكناريا .. والببغاوات والقطط .. وبحثوا عن عائشة مرسال ولم يعثروا لها على أثر .

*

وبعد أسبوع من الحادث وضع مجاهد آدم في السجن المؤبد . وبحث ياسر وسليمان عن عائشة مرسال في كل المستشفيات .. فلم يتلقيا رداً قاطعاً . ثم ذهبا وطافا على كل المستشفيات الخاصة ولم ينالا رداً قاطعاً . وعند إحدى المستشفيات .. جالت في ذهن ياسر خاطرة .

فشدّ سليمان من يده .. وقال .. «علينا ان نبحث عنها تحت اسم سوزي دفيد» . وإذاك قالت لهم إدارة المستشفى أن سوزي دفيد ماتت منذ أسبوع ودفنت بمقابر أحمد شرفي .

*

ذهب ياسر وسليمان .. للقبر .. حيث ألقت الأشجار بظلالها على القبر .. وحيث أينعت شجرة الورد الأنجليزي التي زرعتها سوزي .. فقطف ياسر وردة يانعة ووضعها على القبر . مسح سليمان دموع ياسر .. وضمه الي صدره . واعتمر ياسر بشعور قوي ببلوغه سن النضوج حيث كان حزنه دافئاً يشمل كل أسرار الحياة التي عرفها .. وتذوق طعومها الحلوة والمرة معاً !.

*

أن الألم العميق يسكننا حتي العظم .. فيأخذ شكل اللامبالاة . فلا المرح يجدي .. ولا الحزن.. ومن ثم تتجمد الحياة . وكان سليمان صامتاً .. يضع رأسه بين يديه .. فكان يهمس محدثاً نفسه «يا للخسارة .. يا للخسارة» . فالرحيل في الحياة .. الأسفار .. الوصول الي الأمكنة ومغادرتها .. كلها لا تجعلنا نرى ونعرف . فالالتصاق

بالمكان يجعلنا لا نرى إلا نقطة واحدة من بين كل النقاط التي تكون اللحظة . وكان سليمان محاصراً بالذكرى .. وتجيء ذكرى مثل موجة وتنضاف لموجة أخرى .. هو وسط خضم من فيض الذكريات . فكان كله مشمولاً بالرنين المضيء .

وأحس بتعب وبرغبة في أن يودع كل شيء . ويترافق هذا الحنين مع الأسف والندم .. ولكنه كان في نفس الوقت ينادي ماضيه .. ويتوق لان لو يرجع الزمان للوراء ..!! .. إذ لا أمل ان يتحرك الزمان الي الأمام . وفي الأسابيع التالية أخذت صحة سليمان تسوء .

وفي اللحظة الكبيرة .. إذْ دار الحوار الصامت في صدر سليمان بين الموت والحياة . فكانت عيناه المحتضرتان الطيبتان تقاومان الضوء . فلم يكن أمامه ، الاّ أن يواصل ياسر إكمال المشاريع التي بدأها .. وأن يعالج كلما كان قد فشل سليمان في تحقيقه بشكل صحيح . وفي صحوة من تلك الصحوات التي تتخلل إغماءات سليمان .. طلب من حليمة عبيد ومن ياسر أن يجلسا اليه . وبعد صمت .. تحدث سليمان اليهما وعيناه مغمضتان .. فقال .. مخاطباً ياسر «أرجو الا تقع في الأخطاء ذاتها .. كن نفسك .. ولكن واصل مابدأته ..!!».

قالت حليمة عبيد .. إذاً لنزوجه !.

قال سليمان .. هذا إن راق له الأمر .

*

ظل سليمان ممدداً على سرير المرض . فكانوا يدخلون عليه وهم حريصون على الهدوء .. وكان يهزي بين وقت وآخر .. يصمت وأفكاره تتدفق فيظنونه نائماً . كان سليمان يأفل وكان ملاكه الحارس يحوم فوق رأسه .

جاء المساء .. وفي النهار كانت ذاكرة سليمان تتراجع وتحيا في الماضي . كان يذكر موبنارناس والمولان روج وسان جيرمان .. يذكر باريس مكاناً مكاناً .. وأم درمان زماناً. فكل الأمكنة والأزمنة تبدو له سماوات سبع منطبقات .. ويفكر بكل ما رآه .. فما نحن سوى كل الذي رأيناه .. وكل الذي نحمله معنا من أمكنة . فكان سليمان بذا يحمل حياته داخله كما تحمل الثمرة ذات الرحيق بذرتها . وبذا كان يعيش في الماضي بلا مستقبل . فكان الماضي عديم الشفقة . لا يترك لسليمان أملاً أو رجاء .

فكانت تراجيديا الزمان والمكان تأخذ طابعاً واقعياً .. فإذا باللحظة التي تضطرب الآن في تناقضاتها ما بين النوستالجيا والحلم مرئية ومتجسدة مثل شجرة الجهنمي وشجرة النخيل مغروسة في تراب الواقع بشدة . وشعر سليمان بلفحة برد .. وطلب أن تغلق النافذة .. فارتجف فكاه رجفة خفيفة . وكان جسده يشعر بحلول المساء .

قال .. هل جاء المساء ؟.

قال ياسر .. منذ ساعة ! .

قال سليمان .. يوم آخر من الحياة ينصرم في غير رجعة . ينبغي ان نعد كل شيء للزواج!.

قالت حليمة .. نحن جاهزون وعلي ياسر أن يختار عروسه !.

*

وفي منتصف نهار اليوم .. عندما كان ياسر يستلم إيرادات الورشة ليوم أمس . جاء أحد المحامين من موثقي عقود الميراث. حيَّا ياسراً .. واخرج من المحفظة السمسونايت مظروفاً .. وأطلع ياسر علي

الأوراق التي جعلت منه وريثاً لعائشة مرسال إذ أنها كتبت له الفيلا والدكاكين وثلاثة بيوت باسمه إذ لا وريث لها . فحددا موعداً في المحكمة الشرعية المختصة . وفي المساء طلب من حليمة عبيد الاّ تذكر شيئاً في هذا الموضوع أمام سليمان .

قالت حليمة عبيد .. لماذا لا تريد له أن يعرف ؟ .. ألانك تري شيئاً فاسداً في المسألة !.

قال ياسر .. لا . عائشة تثق بي وسليمان يثق بي .. ولكنه لا يثق بها . وهذا ما يعقد أمر قبولي للورثة .

قالت حليمة .. لماذا قبلت اصلاً .

قال ياسر .. المسألة ليست مسألة مال . بل هي هذه الثقة . فعائشة تريدني ان أفعل أشياء جادة .. دون أن أتعرض لضغوط الحاجة.
قالت حليمة .. أشياء جادة .. مثل مإذا ؟.

قال ياسر .. كيف أوضح لك الأمر ! .. صمت .. تنهد وقال .. أن أكسب حياتي .

*

منذ شهر .. منذ أن فتحت الجامعات ابوابها .. كان ياسر يذهب في الضحى لبيت عبير منصور وهي الشقيقة الصغرى لرحيمة منصور . كان يأخذها للجامعة ثم يرجعها . وفي خلال هذا الشهر كان التقارب يتم بينهما في بطء . فعندما كان التاكسي الكريسيدا يعبر كبري النيل الابيض.. كان ياسر يتطلع اليها .. كان يحبها ذاك الحب الصامت الذي يثير الشك في العادة .. ولكن عبير منصور .. كانت تعرف بقوة حدس داخلي ناصع .. فكانت تعبر عن حبها بوضوح صامت. وفي هذا السكوت الجميل كانت تعرف الوجد

المؤلم الذي تسببه له .

كان السيارة تجري .. وتظهر السماء عبر زجاج السيارة سماء شاسعة ذات زرقة خفيفة تلتمع بضوء الضحى القوي النفإذ . ومن النوافذ تهب ريح هنية كأنها ابتسامات حيية . وتجري السيارة في المسافة التي لا تنتهي . فكانت عبير منصور سماء ممتلئة .. ذات عيون تبرق في سخاء. وكانا معاً يشعران بوحدة في الوجد متحدة بشكل مطلق . ويدور الشريط الكاسيت بالموسيقى البحتة .. فتصدح الموسيقي في إيقاع مبدأها الكبير .. متأرجحة بين النظام والفوضى إذ تسعي من خلال التكرار ان تجعل الفوضى نظاماً ونسقاً .. فكان ياسر يفكر في أمر التركة على ضوء النسق الذي يعطي الحياة نظاماً بعد أضطراب .. وقطعت عبير الصمت الممتد .. وقال .. «الموسيقى هي أصفي أنواع الفنون» .. وقال ياسر هل قرأتِ رواية «صباح الخير .. أيها الوجه اللامرئي الجميل!..».

قالت عبير .. قرأتها عدة مرات وتحدثنا حولها كثيراً مع رحيمة منصور . ولكنني بشكل عام أفضل الموسيقي على الأدب . إذ أن النظام فيها يصل أقصى درجات التجويد الإبداعي !.

قال ياسر .. هذا التجويد يظهر في الموسيقي بشكل صداح .. ولكن الموسيقي في الروايات الأدبية الجيدة تأتي خافتة ومهموسة .

قالت عبير .. لكن جمال التعبير .. هو في قوة البيان والكشف.

قال ياسر .. أنا أصدق ما قالته رحيمة منصور ذات يوم . فالجمال.. «اللامرئي لا يظهر في وسط الوضوح .. لا يظهر تحت النهار .. فالضوء يتركز على الظاهري .. ويخبيء اللامرئي .. ولهذا يكون الليل رقيقاً حينما «يتجلى عبره اللامرئي» .

قالت عبير .. لهذا يكون الموت في بعض الأحيان جميلاً .

قال ياسر .. عندما يكون الموت استشهاداً . حينما يقوم على فكرة . وحتي الموت الذي يأتي بسبب المرض فهو يقوم على فكرة القوة والضعف .. وبمقدار ما تكون الفكرة قوية يكون الموت جميلاً .

قال عبير .. لقد ماتت عائشة مرسال من أجل فكرة ما .

قال ياسر .. كانت تريد ان تواجه اللامرئي .

قالت عبير .. كانت تحبك .

قال ياسر .. كانت تحبني أنا الحلم .. وليس أنا الواقع ! .

قالت عبير .. غريبة .. تماماً مثل كاترين وسليمان . أليس غريباً أن تكرر الأشياء ذاتها .

قال ياسر .. كلنا نتأرجح في النظر للأشياء .. بين أن نبصرها .. وان نراها .. كلنا محاصرون بين الوجه المرئي والوجه اللامرئى !.

*

كان الماضي قاسياً وفظاً .. لم يترك في كتاب سليمان صفحة بيضاء واحدة ليكتب عليها يوماً آخر جديداً . لقد جف المداد ورفعت الصفحات إلاّ أسطر النهاية . فكان الإحتضار أكثر رحمة . إذ جعل روح الرجل تتطهر بالألم مثلما صقلت النار روح عائشة مرسال . ودارت الذاكرة دوراتها الراجعة .. وإذ بهذه الحجرة التي ينام فيها قد بنيت منذ دولة المهدي .. مرّ بها جنود الأنصار .. مرّ بها موظفون أتراك .. مرت بها رياح من الناس .. ومضوا ولم يتركوا من أنفسهم شيئاً .. سوي آثار وبصمات على مقابض النوافذ !! .. وأنت ماذا تركت يا سليمان ؟ .. لم تترك إلاّ حكايات خالية من المعني كقشور سلخت من ثمارها !.

.. أهي إذاً تراجيديا فردية .. تراجيديا لا تحكى عن الآخرين .. لا تتحدث عن أم درمان الوطن في كليتهما .. فهي تخلو من الحقيقة العميقة فتفتقر للجمال . فهي إذاً حياة تفتقر للتوحد . فالتوحد بين الحقيقة والجمال هو الذي يجعلنا نرى اللامرئي .. نري تلك المشيئة الإلهية .. التي تقول لشيء كن فيكون ! .

.. فأين أنت يا سليمان من الأماكن .. تلك المشيئة الربانية التي تندغم في مشيئتك فتجعل الصفحات البيضاء تكتب . فيتبدل زمان الفعل من صيغة الماضي الي صيغة المضارع !.

.. سبحان الله .. لقد كنت غافلاً يا سليمان . ولكن رحمة المولى واسعة . ومات سليمان .

*

شيع سليمان .. ودفن كما لو كان نصباً تذكارياً . دونت على جدران النصب حياة رجل من ذاك الزمان .. حياة يتداخل فيها الخاص والعام .. المرئي واللامرئي .. تضطرب بالرحيل في الأزمنة والأمكنة وتصل الي مداها المقرر في لوح سماوي مدون .

*

وكانت السيارة الكريسدا تواصل جريها في شوارع أم درمان .. وكانت الدروب المتعرجة تنتظر ياسراً وعبيراً وجيلهم كله أن يمشوا عليها .. وكانت الشوارع والساحات مثل صفحات بيضاء في كتاب الشعر والحقيقة .. فكانت الأماكن .. كان المستقبل هو الرؤيا الرائعة التي يراها الجيل بعد موت سليمان .

فلم تقع قصة الحب البسيطة بين ياسر وعبير في التعقيدات التراجيدية .. إذ كانت كلمات عبير ترن في حياة ياسر كما كانت

عبير تؤمن بمشاعر ياسر وتجد لها تفسيراً حين نشوب أزمة عاطفية عابرة . لم تبرد العاطفة بينهما يوماً .. ولم تلتهب بشكل مرضي قط . وكان النزاع حول الأفكار التي يطرحانها هادئاً متفهما رغم عمق الإختلاف المبدئي .

كانت عبير واقعية النزوع .. وكان ياسر صوفياً . ولكن في نقطة ما داخل هذا السياق الحي كان الإيمان يجعلهما يلتقيان عند وحدة الحقيقة والجمال .. فكانا يريان توحد الواحد الذي يشع نوره بالتنوع .. فكانت هذه الموسيقي تحمل طاقة مبدأ الوحدة العظيم الإنتظام فيتجلى النسق ما بين الوحدة والتعدد . فكان اللامرئي يظهر نفسه في السماوات الشاسعة المتجردة من الزرقة واللاّتحدد . وكانت الدروب تمتد دون ان تنتهى . وهكذا كان المستقبل يفتح نوافذه أمامهما !

*

كان الحياة تنفتح على الممكن .. فهي بسيطة تبدو تارة .. كما تبدو معقدة في ذات الوقت . وهذا يتوقف على طريقتنا في الحياة .. (مإذانطلب منها تحديداً) وهذا ما جعل العلاقة بين ياسر وعبير تتجاوز بسلطتها .. وتجري بينهما في مسار التعقيد . إذ انكسر ذاك السطح الّجليدي بينهما . واندفعت عبير بكل عفويتها للتعبير عن نفسها . إذ كانت لا ترى الاّ السآمة في هذه الأوقات التي تجمعها بياسر .. فهو عاطفي ، خيالي له نزوع روحي يحوم في آفاق بعيدة .. ويكره ان يستجيب لنداءات الجسد الحميمة والحارة . واشتد النزاع بينهما بين إحترام الجسد وتحقيره . وفي ذاك الضحى .. عندما عبرت الكريسدا كبري النيل الأبيض في طريقهما الي الجامعة . كانت عبير هذه الكائن

اللطيف قد امتلأت بالشر . إذ كانت تمتلىء برغبة ان تغير طريقة ياسر في النظر للمسألة .. لعلها تريد ان تسيطر عليه ! .. او لعلها تريد ان تمتلكه مثل شيء قابل للإستخدام . او لعل نسيجها العاطفي كله قد تكون من مادة هذا النزاع . مثلها مثل جميع الناس حينما يتأرجحون بين برد الروح ونار الجسد !! .. فتدفعهم رغبات العقل في الإنخراط فيما دبروه وخططوا له .. وكانت عبير تنصب افخاخها .. وطال الصمت بينهما .. وشاعت روح الخصام . وكان ياسر لا يريد ان يفقدها فدفعه شعور بريء وقوي .. بان يدافع للإحتفاظ بها .. وأن يقتلعها من ذاتها التي تسعي لتدمير ما بينهما . فقال .. أنا أبذل كل طاقتي .. لكي أحبك اكثر وأقوي . وان ينفتح حبي هذا على مسافات الاماكن كلها.

قالت عبير .. المستقبل ليس ملكنا لنتكلم عنه بكل هذا الوثوق!.

قال ياسر .. أننا قابلان للتغيير ولكن داخل هذا الإطار المبدئي .

قالت عبير .. ليس لنا إلاّ اللحظة التي نحن فيها .

قال ياسر .. ولكننا مطالبون بان نصنع حياتينا ! .

قالت عبير .. الزمن يفسد الأحلام . فلا تحلم كثيراً . نحن بازاء واقع محدد .. تطالبنا فيه الحياة بمواقف محددة .. ولكنك تخلط الصوفي والحسي ! فبت لا أعرف إن كنت أختاً أو زوجة في المستقبل!.

وشعر ياسر بأن مدية حادة تطعنه تحت بطنه . وبصوت كبرياء رجولي مطعون قال سأجيئك اليوم انتظريني منتصف هذه الليلة .

*

في منتصف الليل .. وقفت الكريسيدا عند مدخل الزقاق ..

وجاء ت عبير في ثوب أسود حالك . ركبت وأنطلقت الكريسيدا الي جهة لا يعرفها إلاّ ياسر .

كان الليل حالكاً .. وكانت الأضواء البعيدة مثل نجوم صيفية تخترقه بإشعاعاتها المشتتة . وتهب نسمات هينة فيتموج الليل مثل غابة .. وتهسهس الأوراق والأغصان .. ويمسي الكون سراً رقيقاً غامضاً . وتبلل حبات العرق جبين ياسر .

هبطا .. غلفهما الظلام . جلسا ساهيين .. شاردي اللب على أرض هشة .. مرتفعة قليلاً مثل تل من الرمل . واصدرت الضفادع نقيقاً . وصرير الجنادب يجرح الصمت . وكانت السماء بعيدة جداً معتكرة بليلها الذي غبشته الأضواء والنجوم .. فكان الفراغ الشاسع يتصاعد الي أعلى مثل غبار . وشملهما صمت . واصطخبت الرغبة الخائفة والمراحة في وسط هذا الخلاء الليلي الصامت الكثير النجوم . دنوا .. التصقا في شعور خائف . ورفعت عبير راحة ياسر الي فمها وقبلتها .. إختلجا معاً . وكانت هذه الحركة البسيطة المتلاشية في الخلاء والليل والتي عراها الصمت من سرها .. ترن .. رنيناً جليلاً رهيباً .

واشتدت حلكة الليل .. وغابت كل التفاصيل المتعلقة بهذين الكائنين .. العمر والاسم .. وكل الحكايات .. وأصبحا جزءاً من هذا المدى الشاسع الذي يمسهما في الصميم . وكانت عيناهما تلمعان لكأنهما تبكيان .. وقد سطعتا بألق الحب والخوف معاً . لقد انبعثا في قلب الليل بصفاء النور كله كما كانا زهرتين للحلم تتفتحان في الواقع. وخلعت عبير ثوبها .. وكانت هذه الحركة هي كل ما تستطيع فعله في مثل هذا الموقف . لقد قفزت قفزة واحدة الي الجهة الأخرى

المخيفة والمجهولة في بسالة نادرة . وانساب الثوب الي قدميها في حفيف .. فظهر بياضها وطلعت كما يطلع النهار من الليل . والقت اليدان . فوضع ياسر أصبعه فوق فمها .. وفعلت هي المثل .. فكان الأصبعان يتحسسان وردة الوصال التي تفتحت في غصنها الليلي الآخذ في التبرعم . وكانا في قمة فرحهما كقطعة ثلج نقية وبريئة تذوب في وجدها حتى التلاشي . وكانا يشعران بهذا التحول البطيء الناضج وهما يعبران بوابات الحياة اللامرئية فوق مراجيح التردد ما بين البراءة الطفولية والأخطاء . وشعور بالخطيئة يشملهما كما لو طردا من الجنة . فكان عليهما أن يدفعا هذا الثمن الباهظ .

*

كانت عبير تمتليء بفرحها الجسدي النابع من ذاتها كما ينبع العبير من لحم الوردة . كانا معاً يستمد كل منهما فرحة من ذاته في صلتها بالآخر . فكانا يكملان بعضيهما .. يتحدان .. إتحاداً قوياً عميقاً. وفي لحظة واحدة أصبحا ذاتاً واحدة . وعندما إرتعشا .. إنفصلا . وكان الفرح يموت وينطفيء .. ويدخل كل منهما في توحده .. كما يدخل الموت القبر . وشعرا بذاك السأم .. ومن جديد إمتلأ بذات المشاعر الراغبة في التوحد . وكما لو أصابتهما لعنة .. دارت حركتهما داخل عمق الليل البارد والناعم كالمخمل .. ذات دورة الجدوى واللا جدوى .. وكان الحب يعبث بهما ويديرهما الوجه التي يريد توحداً عذباً وانفصالاً .. وتستمر رقصة الحب حتي مطلع الفجر . وكان أول شيء يكتشفانه ان تحس بجسدك في خضم إحساسك بالآخر إحساساً حنوناً في وثاق محكم .

وإذ ينهضان من هذا النوم العميق والثقيل كالموت .. كان الفجر يطلع. فوجدا أنهما كانا قد قضيا الليل دون أن يعرفا .. فوق مقابر (أحمد شرفي) ..

.. كانا محاصرين بين شاهدي قبر سليمان عثمان .. وقبر عائشة مرسال .

*

وفي صوت كان يأتي من بعيد كرجع الصدى ..

قال ياسر .. أنظري الي أين ذهبنا !! .

قالت عبير .. أنه قدرنا .. ان نتأرجح مثل كل البشر بين هذا وذاك!. قال ياسر .. ولكن الثمن باهظ . وهذا الفرح الذابل لا يساوي كل هذا السأم !.

قالت عبير .. مادمنا أحياء .. فنحن محكومون بالحياة ! .

قال ياسر .. والموت ؟؟ .

قالت عبير .. نحيا .. ثم نكفّر عن الأخطاء !.

*

كان الشعور الذي يسيطر عليهما الإثنين طوال الأيام التالية .. أنهما عرفا حاجتهما كلاً للآخر. ولا أحد منهما يملك أصل العطاء كله .. فعليهما ان يتناصفا الجهد .. ان يجعلا من حياتهما المشتركة سعياً مليئاً بالمخاطرة. وان يبحث كل منهما عن ذاك الوجه اللامرئي، الذي هو فضاء الحب الذي يحلقان ويسبحان باجنحتهما عبره حتي آخر المدى . وأمسك كل منهما بيد الآخر في حرص حان .. وأخذا يمشيان.

لقد كان التأريخ البشري يكرر نفسه .. هي ذات قصص الحب القديمة .. هي ذات جهود البشر بالحلم في الزمن الآتي .. هي نفس حركة التاريخ نحو اللامتناهي . وإذاك إكتشفنا السر ورقصا معاً رقصة الإتصال والإنفصال . ومن ثم دخلا .. ياسر وعبير في كتاب سير الحب في هذه المدينه المصنوعة من التراب الصلصالي الأحمر . وكأن قلب أم درمأن ينبض بسرهما الحي كمعجزة.

*

فكأنت أم درمأن تمتليء بأشواقها .. تمتليء برغبة الإبداع .. أن تكون قصيدة .. ورواية ..كائنة ونغماً ولوحة . أن تكون اكثر ما هي كائن عليه بالفعل . فكأنت تأخذ في التغيير البطيء .
كأن شيء ما في روحها يسعى ويقفز الحواجز .. نحو الإمكأن والحلم. وكأنت شوارعها ضاجة بالحياة . والناس في طرقاتها يمرّون .. أناساً حقيقيين . وشيء صامت يتحول .

*

ومنهم من كأن يرى ذاك الوجه اللامرئي الجميل .. فيغنون له في الضمت والليل ذي النجوم البعيدة أو يظلون يحلمون .. ويحلمون حتي مطلع الصباح

- تمــــت-

شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف : هيثم الطيب

